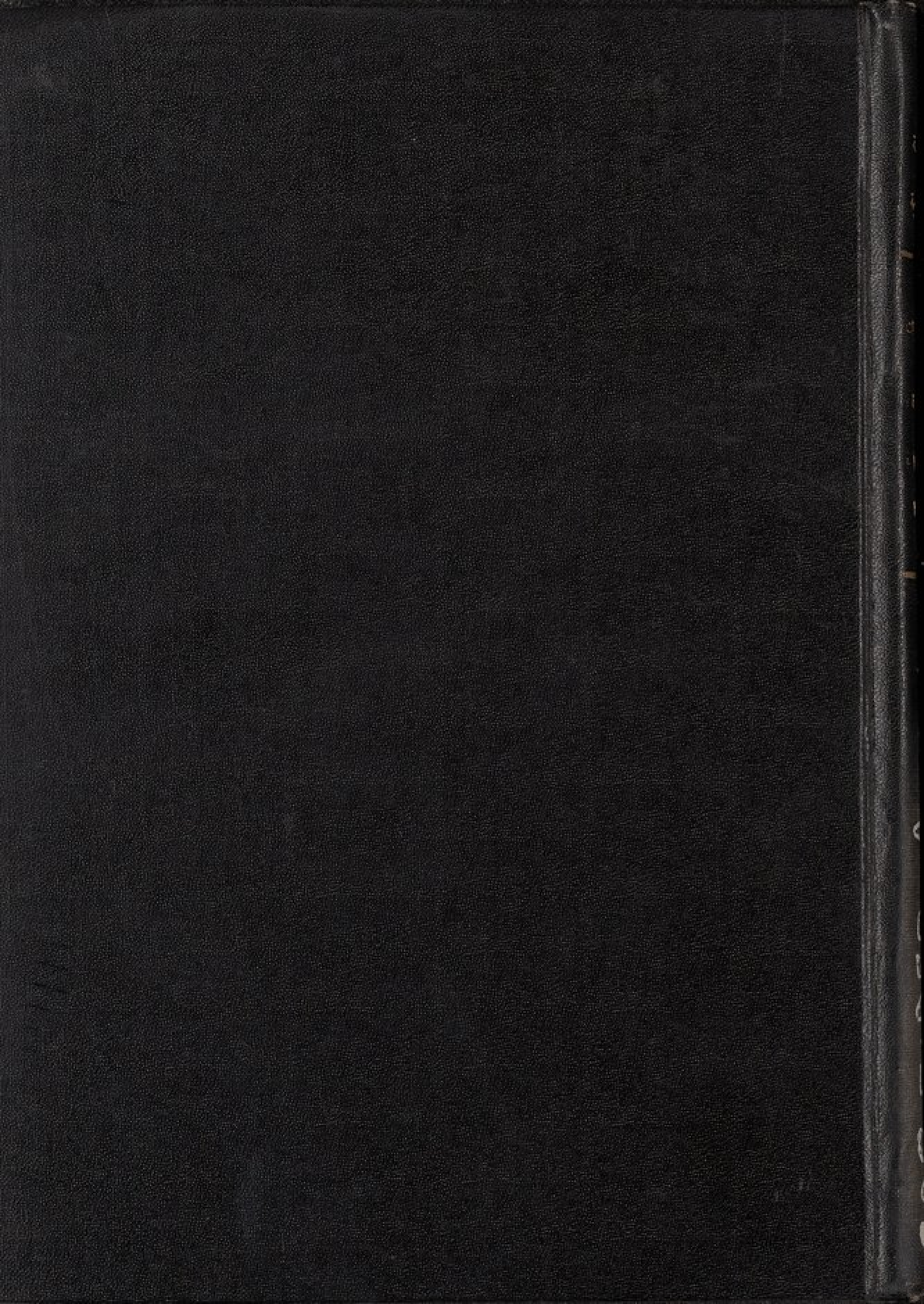






الجامعة السورية



للسنة الجامعية ١٩٥٠—١٩٥١

مطبعة الجامعة السورية

١٣٧١ هـ — ١٩٥١ م



الفهرس

توطئة

هذه هي المجموعة الثانية من المحاضرات العامة التي تنشرها الجامعة السورية. وهي المحاضرات التي ألقيت في مدرجها الكبير خلال العام الجامعي ١٩٥٠ - ١٩٥١.

وقد حرصت الجامعة، وما تزال، على ان تولي هذه الناحية الهامة من عملها عنايتها الخاصة. فهي تسعى الى تنظيم هذه المحاضرات ودعوة الجمهور المثقف اليها، مساهمة منها في بعث الحركة الفكرية في البلاد وتعزيزها. وهي اذ تنشر هذه المحاضرات، ترجو تعميم فائدتها، وتنبيه الاذهان الى معالجة القضايا التي تثيرها وامثالها من القضايا التي تنطوي عليها نهضتنا القومية.

ان النهضة القومية لا تكون تامة او صحيحة الا اذا شملت نواحي الحياة جميعاً، واستندت الى نهضة فكرية تصدت لمشاكل الحياة وعالجتها على ضوء العقل النير والفكر المنظم.

ولا يمكن امة ان تسمو وتسود اذا لم تهتد بهذا الضوء. وكل جهد يبذل في بعث الفكر واشاعة ضوئه بين افراد الامة وطبقاتها، انما هو جهد موجه الى صميم القضية القومية ودافع بها الى الامام.

وجُلّ ما تطمح اليه الجامعة السورية من تنظيم هذه المحاضرات ونشرها ان يكون عملها هذا وجهاً من وجوه المهمة الثقافية التي اخذت على نفسها القيام بها، وان تؤدي هذه المهمة بوجوهها المختلفة على الشكل الذي يدعم النهضة الفكرية المرجوة ويشيع اثرها في الوطن.

قسطنطين زريق

رئيس الجامعة السورية

المجتمع التقدمي (١)

لرئيس الجامعة السورية الدكتور قسطنطين زريق

تدور على ألسنتنا في هذه الايام بضعة الفاظ اساسية نعبر بها عن عقائدنا الفكرية ومناهجنا العملية ، وعما نطمح الى بلوغه من غايات وأهداف . من هذه الالفاظ : القومية ، والديموقراطية ، والاتحاد ، والتقدمية ، والاشتراكية وأمثالها . ولما كانت المعاني التي نسبغها على هذه الالفاظ لها خطورتها الكبرى في ما نصوغ من فكر وما نبني من منشآت ، وجب علينا ان نوضح لانفسنا حقيقتها ، ونستخرج متضمناتها ، كي نسير على هدى ، ونشيد على أساس صحيح . ولعلنا اذ تبينا الجوهر ، وكشفنا عن الاصل ، لانضيع ما نضيعه الآن من جهد ووقت في مناقشة الاعراض او البحث عن الفروع .

ولا جدال في أن هذه المهمة الايضاحية تقع أولاً على عاتق رجال الفكر . فهم المسؤولون في الدرجة الاولى — ازاء مجتمعهم وازاء التاريخ — عن تحديد المعاني ، ورسم الاهداف ، وتخطيط السبل . واليهم يتطلع المجتمع لقيادته في الكشف عن الاسس ، وتمييز الاصول من الفروع ، ووضع الأهم قبل المهم والمهم الباقي قبل التافه الزائل .

وليس حديثي هذا المساء سوى محاولة لايضاح معنى لفظ من هذه الالفاظ الاساسية التي نرددها ومشتقاته المختلفة . فكثيراً ما نتحدث عن التقدم ، والتقدمية ، والمجتمع التقدمي ، وننقسم شيعاً تبعاً لما نفهمه منها . ولذا كان حرياً بنا أن نقف بين آن وآخر

---

(١) ألقيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ١٥/١١/٥٠

لنتبين حقيقة مانقصد اليه ، ونتفق على مانعني ، توفيراً للجهد ، وتوضيحاً لجوهر الخلاف – اذا كان ثمة خلاف – واتباعاً للاسلوب العلمي المنظم في المناقشة الفكرية والسلوك العملي .

• • •

فما هو المجتمع التقدمي ، وما هي الصفات الاساسية التي تنطوي عليها تقدميته ؟

المجتمع التقدمي هو ، أولاً ، مجتمع متحرك متطور ، واذا أردنا استعمال لفظة غربية قلنا : «ديناميكي». وليس من الصعب علينا أن نفرق بين مجتمع يتصف بهذه الصفات وآخر يغلب عليه الركود والجمود . فالمجتمع المتحرك الديناميكي يتميز بالقوة والتغير . اما قوته فبانتاجه المادي والعقلي: انتاجه في مايستثمر من موارد الطبيعة، ويستغل من كنوزها ، وما يبني من منشآت ، وينظم من علاقات ،وما يصاحب ذلك كله من نظر عقلي ، وبحث علمي ،وتركيز للمفاهيم ، وتجميع للحقائق . وأما تغيره فبتطور منتجاته المادية ، وأحواله المعاشية، وأخلاقه ،وعاداته ،وسبله في الحياة عموما. وعلى العكس من هذا كله المجتمع الراكد « الستاتيكي » فهو ، من ناحية ، ضعيف بانتاجه المادي والعقلي، ومن ناحية أخرى ساكن واقف لاتتغير أحواله ونظمه الا قليلاً على ممر السنين .

ولاحاجة بنا الى القول ان الحركة في المجتمعات المتحركة، والركود في المجتمعات الراكدة ، ليسا صفتين مطلقتين ، وانما الاختلاف بينهما اختلاف نسبي يتوقف على احوال هذه المجتمعات وعلى قوة العوامل المؤدية الى الحركة أو الركود او ضعفها . كذلك ليست هاتان الصفتان ثابتتين لرجوعها – كما يعتقد البعض – الى الجنس الذي يتكون منه المجتمع ، والذي ان تغير او تبدل فالى حد أدنى بكثير من التغير او التبدل العائد الى العوامل الاقتصادية والاجتماعية. ان الابحاث الحديثة ،واختبارات الانسانية ، قد أثبتت فساد التعليل الجنسي المطلق ، وأقرت للعوامل الاقتصادية والاجتماعية بالاثر المستقل الراجح . فلكم من مجتمع كان راكداً في بعض مراحل حياته ثم انتفض وتحرك ، على ثبات في تكوينه الجنسي وارثه العرقي . ولاينكر ان

للعرق أثره، ولكن هذا الاثر ليس مطلقاً ، ولا ـ بعرفنا ـ راجحاً . وانما الراجح في تطور المجتمعات هو العوامل الاجتماعية المتشابكة الناتجة من علاقة المجتمع بمحيطه وعلاقة عناصره بعضها ببعض .

وتبعاً لهذا نقول ان مرد الحركة (الديناميسم) في مجتمع ما الى مقدرته على التفاعل بينه وبين محيطه الخارجي ، وعلى تفاعله الداخلي في نفسه . والمحيط الخارجي ذو وجهين : محيط طبيعي مادي ، وآخر بشري اجتماعي . والحركة والحياة تنشآن عندما يكون المحيط الطبيعي على درجة متوسطة بين اللين والشدة ، بحيث تستدعي شدته نشاط المجتمع ، وييسر لينه ، في الوقت ذاته ، لهذا النشاط ان يزدهر ويثمر . فاذا كان المحيط الطبيعي ليناً كل اللين ، واستطاع الانسان فيه أن يرضي شهواته البدائية بأيسر السبل ، لم يكن هناك داعٍ للهمة والنشاط ولتوليد الحركة وبث الحياة . وكذلك ، اذا كان المحيط في الطرف الآخر من حيث القسوة والشدة تغلب على مقدرة الانسان، في المراحل الاولى من تطوره، وشل حركته ، ومنع تقدمه . وهذا ما نرى واضحاً كل الوضوح في المناطق القاسية المناخ، حرارة أو برودة أو رطوبة أو جفافاً ، او التي يغلب عليها الجليد أو الادغال أو الصحراء او أمثالها.

ان هذه الظروف الطبيعية مؤثرة، كما قلنا ، تأثيراً حاسماً في المراحل الاولى من نشوء المجتمعات ونموها . وهي التي . في الاغلب، تبعث في مجتمع ما الحركة والخصب والتقدم، وتقضي على آخر بالركود والجدب والجمود اذ تستنفد جهوده كلها في اقتناص عيشه الضئيل وتحصره في دائرة ضيقة يصعب عليه اجتيازها . اما المجتمع الذي تتيسر له أسباب الحركة والنمو ، ويقطع في هذا الطريق شوطاً مديداً ، فانه يصبح قادراً على التغلب على المحيط الخارجي مهما اشتد وقسا . وها نحن نراه يستخرج المعادن من بطن الصحراء، ويستغل الادغال، ويوطد مراكزه في المناطق المتجمدة ، ويركب متون البحور والاجواء .

ومثل المحيط الطبيعي المحيط البشري . فاذا كان هذا المحيط هيناً ليناً لا يكمن فيه أي خطر استهان أهل المجتمع عيشهم ، وانصرفوا الى ملذاتهم ، وساروا الى

الركود فالانحلال . واذا كان على العكس من ذلك خطراً كله وتغلب على المجتمع بشكل حكم اجنبي استعماري او استعمار مستغل منظم ، شلت حركت المجتمع وكبتت حيويته. وتاريخ البشرية في الشرق والغرب مليء بالادلة الواضحة على مانقول ، فلا نحتاج الى ايراد أمثلة مفصلة وانما يكفينا ان نشير الى ما تعرضت له بلادنا العربية في السمائة السنة الاخيرة من غزوات خارجية جامحة وضروب من الحكم الاجنبي المستأثر امتصت حيوية أرضها وسكانها ، وجعلتها تركد وتعجز عن الانتاج باي شكل من الاشكال . اما الحالة المؤدية الى الحركة والنمو فهي وجود الخطر ـ الخطر الذي لم يقض على المجتمع ـ واحساس المجتمع به ، وما يتبع هذا الاحساس من بعث للهم ، واثارة للنشاط، وتعبئة للجهود .

ولا تقتصر حيوية المجتمع المتحرك على التفاعل بينه وبين محيطه الخارجي : الطبيعي والبشري، بل تتمثل ايضاً في تفاعله الداخلي : بين افراده، ومنظماته، وطبقاته. فالعلاقات البشرية في المجتمع الراكد علاقات بسيطة ، قليلة التغير . اما في المجتمع المتحرك ، فهي تزداد على الايام تطوراً وتعقداً . والحيوية المنصرفة الى الخارج لاتلبث أن تضعف وتخل اذا لم تصحبها حيوية في الداخل تؤدي الى نمو في شتى دوائر المجتمع: في العائلة ، والمدرسة، والدولة وسواها. بل نقول ان التفاعل والنمو في داخل المجتمع هما أصدق دليل على مقدرته على مجابهة المحيط والصمود في وجه قوى الخارج.

وخلاصة القول إن المجتمع المتحرك الديناميكي هو مجتمع منتج متطور ،متفاعل مع محيطه الطبيعي والبشري ، ومتفاعل في ذاته داخلياً .

• • • • •

ولكن ليست كل حركة تقدماً ، ولا كل تطور نمواً وارتقاء. فما هو السبيل الى ضمان هذه الاهداف المنشودة ؟ واذا أردنا نحن في البلاد العربية أن ندفع بمجتمعنا العربي الى الامام، فكيف نأمن ان يكون انبعاثه من ركوده، وتحركه من جموده ، مؤديين فعلا الى نمو وتقدم وغير مقتصرين على مجرد الحركة والتغير ؟ وبكلمة أخرى، ماهي المقاييس التي يقاس بها تقدم مجتمع على آخر، او درجة التقدم، او التأخر، في نفس المجتمع ؟

توصيحاً لتفكيرنا في هذا الموضوع الاساسي أتقدم اليكم هذا المساء ببضعة مقاييس عامة ، لا بصفة نهائية حاسمة ، بل بصفة تمهيدية تجريبية ، لعلها تكون اساساً صالحاً للبحث ، وخطوطاً عامة نسترشد بها في هذا الميدان الواسع المتشعب .

أول هذه المقاييس ، في نظري ، هو مبلغ سيطرة المجتمع على الطبيعة وقدرته على ضبط قواها واستغلال مواردها . فالمجتمع الذي تحده قوة الطبيعة أو تتغلب عليه يكون عبداً لها خاضعاً لسلطانها ، ويظل متأخراً عن سواه من المجتمعات التي سبقته في هذا المضمار . وتأخره عنها يكون في ناحيتين أساسيتين : الاولى سلبية ، والثانية ايجابية . أما في الناحية السلبية فيبقى عرضة لاحداث الطبيعة وفعل عناصرها المادية والحية ، يتحكم فيه نوع الارض وشكلها وموقعها ، ودوران الفصول ، وتقلبات المناخ ، وتتسرب اليه الجراثيم القتالة والاعراض الفتاكة . فهو ، من هذا القبيل ، مغلوب على أمره ، مستعبد لمحيطه الخارجي . ثم هو محدود من الناحية الايجابية أيضاً لعجزه عن استدرار غنى الطبيعة ، واستخدامه لتحسين معاشه وترقية حياته مادياً وأدبياً . ومادام ضئيل الانتاج ، مهدداً بالفقر والمرض ، فهو حتماً متأخر عن سواه ، وغير مجهز للسير في ميادين التقدم والرقي .

والمدنية الحديثة انما تمتاز عن المدنيات السابقة في هذا المضمار . ولا حاجة بي هنا الى التفصيل والايضاح ، فالامر ظاهر بيّن دون دليل أو برهان . وانما يجدر بنا أن نلاحظ ان المدنية الحديثة هي ، من هذه الجهة ، وحدة غير متجزئة . ولا يغرننا اختلافها في نواحي اخرى ، فهي في هـــذه الحالة متفقة كل الاتفاق . لننظر الى القوتين الجبارتين اللتين تتنازعان العالم اليوم : القوة الغربية التي تتزعمها اميركا ، والقوة الشرقية التي تقودها روسيا . نجد أنهما كلتيهما قائمتان على الحرص الشديد والقدرة الجبارة على استثمار الطبيعة واستغلال مواردها . في كل منهما ، في الولايات المتحدة وروسيا على السواء ، وفي الدول الاخرى بدرجات متفاوتة ، اهتمام بالآلة ، وانكباب على التكنيك ، وحرص على الاقتصاد . وما الآلة والتكنيك والاقتصاد

سوى الوسائل التي يتسلح بها الانسان لضبط الطبيعة وعلاقته بها، وما ينتج عن ذلك من علاقات اجتماعية .

وهذا الانكباب على الوسائل الانتاجية هو سر الحركة (الديناميسم) ومصدر القوة المادية والعقلية في المجتمع الحديث على اختلاف الوانه واتجاهاته. وهو الواجب الاول الملقى على عاتقنا نحن العرب اليوم ، لاننا لانستطيع ان نحمي كياننا الا عن سبيله . فالعالم أصبح يضيق بغنى غير مستثمر ، وموارد غير مستغلة . والدول تكاد تسير في معاملاتها على أن المجتمع الذي لايستثمر موارده يخسر حقه فيها . ولئن كان القانون الدولي لايقر هذا المبدأ ، بل بالعكس يصرح بسيادة الامة على أراضيها وارثها الطبيعي ، ولئن كانت شرعة الامم المتحدة قائمة على مساواة الدول في هذه السيادة ، فالواقع أن الدوافع المسيرة للدول في تصرفاتها هي غير ذلك . ولا نكران ان الصهيونية بنت جانباً هاماً من حجتها لقضيتها في فلسطين على تفوقها على العرب في استغلال الارض واستخدام وسائل الانتاج الحديث . وكان دعاتها يجوبون اطراف العالم مرددين هذه الدعاوة ويستقدمون الوفود والبعثات ليطلعوهم على سبقهم للعرب في هذا المضمار : وكان نجاحهم في هذا ، على مخالفته لابسط قواعد الحقوق الدولية ، مقنعاً لكثير من الناس وموجهاً للرأي العام العالمي في مصلحتهم. وليس هذا الواقع فعالاً في مثل هذا العدوان الفاضح فحسب ، بل هو مؤثر ايضاً في التدخلات الاخرى الاكثر خفاء ، التي تدفعها قوة لاترد ، من منطق المدنية الحديثة ذاته ، لاستغلال البوار ، واحياء الموات ، اينما كان ولمن كان .

فاستثمارنا لمواردنا هو اذن داعم لحقنا فيها ، واهمالنا لها هو ، بالعكس ، وسواء أشئنا أم أبينا ، منقص لهذا الحق في مفهوم العالم الحديث. ثم اننا بهذا الاستثمار نهيء لانفسنا من الناحية الايجابية ، وسائل الدفاع عن كياننا ، في الميادين الحربية والاقتصادية والسياسية والعلمية . ولا شك في أن سبق الصهيونية لنا اجيالا في هذا المضمار هو الذي يسر لها سبل عدوانها علينا، واستجرار القوى السياسية والاقتصادية الكبرى الى مساندتها في هذا العدوان .

عندما نتبين هذا الواقع ونقره ، نخرج منه الى نتائج حتمية لامفر لنا منها . خلاصتها ان نهضتنا القومية ، بما تتضمن من سياسة داخلية ودولية ، ومن تنظيم اقتصادي واجتماعي وتعليمي ، يجب أن تبنى أولا على هذه الاركان المتسلسلة : آلة ، تكنيك ، اقتصاد ، انشاء . فبها تحرك مجتمعنا وتسري فيه الروح الديناميكية التي تيسر له الوسائل لحماية كيانه اولاً ولتقدمه في النواحي الاخرى ثانياً .

قد نختلف في فهمنا للتقدم والتقدمية نظريا ، ولكن كل جهد فردي أو حكومي لادخال الآلة الحديثة ، ولاستثمار مواردنا عن طريقها ، هو عامل أولي في حفظ بقائنا في عالم قائم على الانتاج الواسع الشديد ، وفي توفير وسائل نمونا وتقدمنا . واذا نظرنا هذه النظرة الى الناحية التعليمية من سياستنا القومية ، تحققنا حالاضرورة دعم التعليم الفني وتوسيعه ، لنعد لانفسنا العناصر البشرية القادرة على استخدام الآلة واستغلال الثروة الطبيعية ، والمجهزة للقيام بالاعمال الانشائية المطلوبة .

يضاف الى هذا ان التجهيز للعمل الانشائي له أثره وفائدته لا في النواحي المادية من حياتنا القومية فحسب ، بل في سائر النواحي على الاطلاق ، لان الروح الانشائية اذا انطلقت في مجتمع ما لا تقف عند حدود ولا تحبسها حواجز وسدود ، بل تسري في حياة المجتمع كلها ، وتعمل فيه بناء وتدعيما وتنظيما . ومن هنا تبدو خطورة الجهد الذي يجب أن يبذل في الاستثمار والانتاج . وفي الاستفادة من الوسائل التي يهيئها المجتمع .

. . . .

على أن هذه الوسائل الانتاجية الاستثمارية لا تأتي عفواً ولا تهبط من علُ . واذا استمددناها من سوانا فهي لا تبقى لنا ولا تعمل في مصلحتنا الا اذا اكتسبنا معها القوى الاصيلة التي ابتدعتها . والشعوب التي تقدمتنا في هذا المضمار لم تنلها الا بعد أن حققت شرطها الاساسي وباعثها الاصلي : وهو التحري عن الحقيقة ، والاسلوب العلمي المنضبط الضابط ، والنتائج العلمية المحققة المتراكمة . هو العقل النامي المنتظم في نفسه المنظم لسواه .

ولا جدال في أن العقل الانساني هو من أعظم القوى التقدمية في الوجود .

فهو ماينفك يبحث عن المجهول ويغتبط باقتحامه . وما اقتحام الرائد للمناطق المعزولة الصعبة بأيسر من اقتحام العالم للمجهول من أسرار الطبيعة والانسان ، وما نجاحه فيها أعظم ، او السرور الذي يبعثه في نفسه أشد . بل العالم هو في جوهره وكيانه رائد ممتاز ، لايحقق وظيفته ولا تسعد نفسه الا بالمغامرة والتقدم .

ثم أن العقل ، المتمثل في جهد العالم الرائد ، ملح مستمر في تقدمه . فان لم يطغ عليه مايطفيء جذوته او يبطل عمله ، سار من خطوة الى خطوة ، وقبض على حلقة بعد حلقة من سلسلة الحقيقة المترابطة . وهو لايقف عند حد ، ولا يرضى بمحال ، بل يندفع دوماً الى الامام منقباً باحثاً مكتشفاً . هذا هو منطقه وكيانه ، وهو فيه منجسم مع منطق الحقيقة وكيانها .

ثم هو ، بعد هذا وذاك ، منظم في تقدمه . فالخطى التي يقطعها متصلة ، والحلقات التي يقبض عليها متماسكة . ذلك أن جوهر الحقيقة التي يسعى اليها وتقيد بها ويخدمها جوهر متماسك متحد . وليس معنى هذا ان العالم لايخطيء ولا يخرج عن السبيل السوي . فكثيراً ماضل وابتعد ، وضاع وضيّع ، لكن الاسلوب العلمي المنبعث عن طبيعة العقل وجوهره كفيل برده الى الصواب . والعبرة ليست في تلك الضلالات العرضية ، بل في السير الاساسي المتصل ، والسلسلة المترابطة الحلقات . ان بناء العلم بناء متماسك الاحجار ، واذا حدث ان وضع حجر فاسد فيه ، فالجهد العلمي خليق بان يكتشفه يوما ، فيطرحه وكل مابني عليه .

فالعلم ، بجوهره الخالص وتقليده الايجابي الاصيل ، تقدمي . وتقدميته تتميز بالتطلع ، والاستمرار ، والانتظام . ولذا كان مقياساً من أهم المقاييس التي تقدر بها تقدمية مجتمع من المجتمعات . وهو ، من الناحية العملية التطبيقية ، أساس المقياس الاول : اي قدرة المجتمع على الطبيعة ، لانه ، كما ذكرنا ، هو الباعث الاقوى للعمل الانتاجي الاستثماري . على أن له ايضاً ناحيته النظرية التي تجلى فيها مقدار الحقيقة المكتسبة والمجهول المكتشف . فاذا أردنا اذن أن نقارن مجتمعين من حيث التقدم والتأخر ، او نقيس تقدمية مجتمع ما ، أمكننا أن نركن الى هذا المقياس :

الى درجة اكتساب المجتمع للاسلوب العلمي وخضوعه لسلطان العقل، والى مقدار الحقيقة المتراكمة التي يملكها ويؤمن بها ويسير على هداها .

واذا أراد مجتمعنا العربي ان يكون تقدمياً فعلا، وجب عليه ان تمسك بهذا العنصر التقدمي الحي، ويؤمن به، ويجعل سيره مظهراً صادقاً له، وحياته تجسداً لايمانه به وبالحقيقة التي يؤدي اليها .

* * * * *

ترى، أيكفي هذان المقياسان : مقياس القدرة على الطبيعة، ومقياس الاكتساب العلمي كيفية وكمية، لقدر تقدمية المجتمعات ؟ ان النظر الدقيق ليظهر ان هذين المقياسين لايستنفدان التقدمية الصحيحة . ذلك ان استثمار الطبيعة هو، في الواقع، عامل مساعد اكثر منه عاملاً أصيلاً . فهو يهيء الوسائل للتقدم، ويدفع المجتمع في بعض النواحي، لكنه لايضمن التقدم ولايدفع المجتمع قدماً في جوهره وتمامه، الا اذا توفر له عامل آخر مستقل عنه . ان يعد الاسباب، ويهيء القوى، ويجهز النتائج، لكنه، بنفسه، لايقرر الغايات التي يجب أن توجه اليها الاسباب والقوى والنتائج . انه يضع بين يدي المجتمع موارد وافرة استخرجها من الطبيعة، وثروات استمدها منها، وقوى فجرها من بطونها، ولكن، ترى، لأي شيء يستخدم المجتمع هذه كلها ؟ للبناء والتعمير ام للهدم والتدمير ؟ للتحكم والاستئثار ام لنشر العدل والمساواة ؟ للحرب أم للسلم؟ للتقدم الشامل المتوازن أم للتقدم الجزئي المضطرب؟

كذلك يقال عن العلم نفسه، المقياس الثاني الذي اتخذناه . انه يكتشف الحقيقة، والحقيقة وحدها غايته ومبتغاه . ولكن من الذي يستخدم هذه الحقيقة، ولماذا ؟ هو ذا أمر خارج عن سلطته . او لعل العالم يساعد، عن وعي او غير وعي، في استخدام الحقيقة لاغراض مهدمة، فتؤدي الى التأخر والهلاك، في حين انها وجدت لتخدم قضية التقدم والانبعاث .

فلضمان التقدم الصحيح، لايكفي توفير الوسائل، بل يجب تحقيق الغايات الصحيحة التي توجه اليها. لايكفي مجتمعاً أن يتغلب على الطبيعة ويضبطها، بل عليه مع هذا، ان لم نقل قبل هذا، ان يضبط نفسه ويتغلب على أهوائه لايكفيه ان

يتبين الحقيقة التي اكتشفها بالعقل ، بل عليه ان يولد الارادة التي تمنع تشويهها او استخدامها لما هو مناقض لطبيعتها وبالتالي مهدم لاركان المجتمع .

هنا تظهر العلة الاصيلة في المدنية الحديثة وداؤها الدفين . فلقد أحرزت هذه المدنية تقدماً شاسعاً واسعاً في ميدان استثمار الطبيعة، لكنها لاتزال مقصرة تقصيراً شائناً في معرفة الغايات التي يجب أن نوجه اليها نتائج هذا الاستثمار ، وفي تكوين الارادة الصحيحة لهذاالتوجيه. وقطعت كذلك أشواطاً طويلة في اكتشاف الحقيقة ، لكنها لاتزال عاجزة عن الامتثال لها ، بل هي تمعن في تحويلها عن غايتها واستخدامها للشر والفساد .

من هنا نشأ الخلل وعدم التوازن في كيان المدنية الحديثة : عدم التوازن بين الوسائل والغايات ، بين التقدم العلمي والتقدم الادبي ، بين السلطة على المحيط والسلطة على النفس .هنا أصل العلل التي تعانيها هذه المدنية . هنا منشأ الازمات الاقتصادية ، والهزات السياسية ، والمنازعات والحروب ، والاخطار التي تهدد عالمنا الحاضر بالهلاك والدمار .

وهذا كله يظهر انه لقدر التقدم الصحيح لابد من مقياس آخر غير المقياسين اللذين ذكرناهما : مقياس أهم وأشد خطورة ، وأصعب من سابقيه تحديداً وتعييناً. هو المقياس الخلقي الادبي : هو مقدرة المجتمع عامة ، ومقدرة الافراد الذين يؤلفونه، على التغلب على الهوى والطمع والاستئثار ، هو احترامهم لكرامة الفرد وشخصية الانسان .

هذا التقدم الادبي يظهر بمظاهر عدة : منها توفر الحرية السياسية والاجتماعية والفكرية ، وضمان العدل في القضاء ، وتساوي الناس في الفرص ، وما الى ذلك من المبادىء التي جاهدت الشعوب بالثورات حيناً وبالعمل المستمر حيناً آخر لتحقيقها. وكل مرحلة من مراحل تطور البشرية تتميز بالجهاد في سبيل احد هذه المبادىء. اما المبدأ الذي يشغل مرحلتنا الحاضرة ، ويملأ اجواء عالمنا دوياً فهو العدل الاقتصادي فالاجتماعي : أي حسن توزيع الوسائل التي يهيئها لنا استثمار الطبيعة .

لم تعد مشكلة البشرية عامة مشكلة الاستثمار ، بل مشكلة التوزيع . ولذا أصبح هذا المقياس الادبي الذي نتحدث عنه أهم من حيث بقاء البشرية وتقدمها من المقياس الاول الذي بدأنا به .

هذا العدل الاقتصادي والاجتماعي اصبح ، من حيث المبدأ ، أمراً مبتوتاً ،وان اختلفت الشعوب في مقدار العزم على تحقيقه وفي اختيار الطريق المؤدية اليه .ولذا غدا مفروضاً علينا ، عند تقديرنا تقدم مجتمع ما ، ان ننظر في الوسائل المادية التي يهيئها لافراده ، ودرجة تساويهم في هذه الوسائل ، وبالتالي في الفرص المؤدية الى ازدهارهم المادي والعقلي والروحي . ولكن هذا المقياس ، على اهميته ، لايصلح ان يؤخذ وحده ، بل يجب أن يضم اليه مقدار الحرية السياسية والفكرية التي يتمتع بها الفرد في المجتمع . والصراع القائم بين قوتي العالم الجبارتين اليوم انما هو صراع بين أولوية هذين المبدأين : الحرية الفردية ، والعدل الاجتماعي . وبقاء المدنية الحديثة وازدهارها منوطان بمقدرتهما على التوفيق بينهما ، والمحافظة على القيم التي ينطوي عليها كل منهما .

ولعلنا نستطيع ان نجملها وسواها من المقاييس الادبية في مقياس واحد شامل هو : مبلغ احترام الشخصية الانسانية ، أي الاقرار بأن لكل مواطن وكل انسان شخصية لها حرمتها وكرامتها ، وأن أي افتئات على هذه الشخصية بحرمانها من حق سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي هو اهانة لها ، ووصمة في جبين المجتمع .

نستطيع هنا ان نفصل هذا المبدأ الاساسي ، فنتكلم عن مختلف الوجوه التي يتمثل بها . نتكلم عن حرية الفرد السياسية والاجتماعية والفكرية ، وعن استقلال القضاء وضمان العدل للجميع . نتكلم عن الفلاح وتحريره من نير العشائرية والاقطاعية ، وعن العامل وضمانه من مساوىء الرأسمالية . يمكننا ان نوضح القضية النسائية ونبين العوائق التي يجب ازالتها من طريق المرأة والفرص التي يجب ان تفسح امامها لتلعب دورها الخطير في حياة المجتمع . بوسعنا ان نلح على أهمية التعليم وضرورة نشره ، وعلى حماية الصحة العامة ، وتوفير الامكانيات المادية والاجتماعية

للمواطنين على السواء . كل قضية من هذه القضايا وامثالها وجه من وجوه النهضة والتقدم ، وهي اذا تحققت بمجموعها كونت المجتمع التقدمي المنشود . ولكنها كلها تنشأ من اصل واحد ، اذا لم يتكون ويثبت وينم ، كان الجهاد في سبيلها جهاداً متفرقاً متلاطماً . هذا الاصل هو احترام كرامة المواطن والانسان وقدسية كيانه والعزم الوطيد على محاربة كل تعد على هذه الكرامة أو أي ظلم لها ، سياسياً كان أم اقتصادياً أم اجتماعياً أم فكرياً ، من خارج المجتمع أم من داخله .

• • • • •

ان المجتمع التقدمي مجتمع منسجم ، يتساوى فيه المواطنون بالفرص ، فلايستأثر فيه فرد بفرد أو فريق بفريق بحكم ولادة أو ارث أو جنس أو أي فارق عرضي آخر ، لانهم كلهم متساوون في الجوهر : في مواطنيتهم ، وفي انسانيتهم .

الى اي حد تنتشر هـذه الفكرة في مجتمع ما ؟ الى أي عمق تنزل في نفوس أفراده ؟ الى أي مدى يسعون لتحقيقها عن طريق التعليم ، أو الجهد السياسي ، أو النشاط الاجتماعي ، أو العمل الثوري ؟ الى أي حد يعتبر المواطن أو الانسان وسيلة للاستثمار ، أو ، بالعكس ، غاية في ذاته ، وشخصية تفرض الاحـترام وتستوجب التنمية والاغناء ؟ هذا هو جوهر المقياس الادبي ، المقياس الأهم ، خاصة في هذه المرحلة الحاضرة من تطور الانسانية ، نظراً للتقدم الذي حصل في ميدان الاستثمار وفي الميدان العلمي ، والذي يـكاد ينقلب تأخراً ، بل انحلالا ودماراً ، نظراً للتأخر الحادث في المضمار الاخير .

• • • • • •

ان هذا العنصر الاخير — العنصر الادبي — يختلف عن العنصرين السابقين في ان تقدمه ليس حتمياً كما هو الحال فيهما . فقد تحدث نكسات في حياة الشعوب تخف فيها احترام الشخصية الانسانية والارادة لتوفير أسباب نموها وازدهارها . ولذا تحتاج هذه الشعوب الى الالتفات الى تاريخها لتتحسس مجدداً تلك الهزات النفسية التي سمت بها فجعلتها تعي هذه المبادىء وتجاهد في سبيلها : تلك الادوار في حياتها التي كانت فيها حقاً تقدمية .

وهنا تتجلى امامنا مسألة طالما شغلت المفكرين والعاملين منا ، وهي العلاقة بين

النظرة التقدمية وبين التمسك بالكيان التاريخي والميراث القومي . والواقع انه ليس ثمة تناقض اساسي بين الامرين اذا ضبطا وفهما فهماً صحيحاً ، وكانت عند المختلفين حولها الارادة المكينة لرؤية الحق والسير على هداه . فالكيان التاريخي الايجابي والميراث القومي الصحيح هما نتيجة لنظرة كانت عند الاسلاف تقدمية . لقد كان العرب في ابان نهضتهم تقدميين ، جابوا الآفاق البعيدة ، وساروا الى غاياتهم بلا خوف ولا وجل : اقتحموا البلاد فاتحين وتجاراً ورواداً ومصلحين ، نظرهم ممدود ابداً الى الامام ، فبنوا دولة شاسعة الاطراف وانشأوا حكماً خلده التاريخ . وعندما اتصلوا بالمدنيات الاخرى ، وتفتحت لهم من خلالها آفاق عقلية واسعة ، لم يتأخروا عن ارتيادها فانتجوا في ميادين العلم والفلسفة آثاراً ليس هنا مجال تبيان ضخامتها وجلالها . واهم من هذا وذاك وابقى ارتيادهم للآفاق الروحية، وتطلعهم الى القيم الخلقية والادبية ، واثر هذا كله في حياتهم العملية وانتاجهم الحضاري . هذا الاقتحام للميادين الطبيعية والعقلية والروحية هو باعث ابداعهم ، ومصدر عزهم ومجدهم . فلما خبت جذوتهم ، ضاقت آفاقهم ، وتخلفوا في ميادين الانتاج ، فغلبوا على امرهم . أما تراثهم الصحيح فهو نتيجة تلك الروح التقدمية التي ذكرنا . واذا ما عدنا اليوم اليه فلنقتبس جوهر تلك الروح ،فنبدع كما ابدعوا ، ونخلف لانفسنا ذكراً كما خلفوا .

هذا النوع من الاستيحاء التاريخي لايتعارض والنظرة التقدمية الحاضرة ، خصوصاً اذا حققت هذه النظرة الشرط المتعلق بها . وهو ان تفهم التقدم بمعناه الواسع الشامل ، فلا تقف عند عناصره المادية والعملية فحسب ، بل تتناول أيضاً العناصر الادبية والروحية ، تلك العناصر التي قلنا إنها اساسية في تقدير التقدم الصحيح ، والتي كثيراً ما تهملها أو تقلل من اهميتها التقدمية الحديثة .

ينتج من هذا ان المجتمع التقدمي بالمعنى الشامل الصحيح لهذه الكلمة لايحتاج لان يقطع صلته بتراثه الصحيح الباقي مادام هذا التراث هو نفسه نتيجة لنظرة تقدمية وجهد تقدمي . بل ، بالعكس ، ان التقدمية الصحيحة والتاريخية الصحيحة

نظرتان وسبيلان تتم الواحدة منهما الاخرى وتسندها وتقويها . وانما الخلاف والتناقض بين التاريخية المتمسكة بما لم يكن في جوهره تقدمياً ، والتقدمية الثائرة على الماضي بكامله المستخفة بالقيم الادبية . وفي كليهما خلل وفساد . ولذا كان لابد من ان يتنافرا ويتنازعا . اما الحق فمن طبيعته ان يتصل بالحق ويبتهج بلقياه والانصهار فيه.

. . . .

ذكرت ، ايها السادة ، ثلاثة مقاييس رئيسية لتقدير تقدم مجتمع ما : سلطة المجتمع على الطبيعة ، شيوع الروح العلمية ، احترام الشخصية الانسانية . هذه المقاييس قد تبدو في ظاهرها عامة بسيطة ، لكنها ، فيما أرى ، المقاييس الاصلية التي يتفرع عنها كل مقياس آخر ، ولا تخفنا بساطتها ، فالحق في جوهره في غاية البساطة .

هذه المقاييس الثلاثة تتحد في النهاية في مقياس واحد شامل هو : الحرية . فاستثمار الطبيعة مؤداه تحرير المجتمع من سلطة المحيط الخارجي ، وبالتالي من الفقر والمرض . والتقدم العلمي جوهره تحرير المجتمع من الوهم والجهل. والتقدم الادبي لايتم الا بالتحرير من الخوف والذل عند بعض طبقات المجتمع ، ومن الهوى والطمع عند الطبقات الاخرى . ولذا فالمقياس الشامل لتقدم مجتمع ما هو مقدار ما يوفر لافراده من حرية : حرية من المحيط الطبيعي ، ومن المحيط البشري : الخارجي والداخلي ، ومن الامراض الداخلية : الوهم والجهل والهوى . والتقدم انما يكون صحيحاً اذا تناول هذه الوجوه كلها ، لأن اي خلل أو أي فقدان للتوازن بينها مدعاة للاضطراب ومجلبة للتدهور كما هو حال عالمنا اليوم .

على ان الحرية لاتكون حقيقية ، ولا تؤدي مفهومها ، ما لم يصحبها عنصر متمم لها هو : الانتظام . فالجهد العلمي ، سواء أكان عملياً تطبيقياً كاستثمار للطبيعة أو نظرياً مجرداً كاكتشاف للحقيقة ، هو في الواقع عمل انتظامي . ذلك ان العلم ، كما ذكرنا ، بناء متماسك في نتائجه واسلوبه . وكذلك التقدم الادبي : انه يصدر عن انتظام النفس بضبط الاهواء والشهوات .

ولما كان هذان المعنيان المتكاملان : الحرية والانتظام ـ شأن كل صفة عقلية أو نفسية ـ لايقومان الا في شخصية انسانية ، فان المقياس الاخير للمجتمع التقدمي هو مقدار ما يتوفر فيه من شخصيات حرة منتظمة ، شخصيات قد تحررت من محيطها ومن نفسها ، وانتظمت قواها ومواهبها ، فكان في انتظامها هذا كمال حريتها.

. . . . .

ايها السادة !

لقد رددنا في حديثنا لفظتي التقدم ، والتقدمية . ولعلنا لم نميزهما تمييزاً كافياً. فالتقدم شيء موضوعي يقاس بالمقاييس العامة التي ذكرناها ، وبمقاييس اخرى تفصيلية متفرعة عنها . اما التقدمية فهي صفة داخلية في المجتمع تدفعه الى السعي الى التقدم والى تحقيق المعاني التي تتضمنها هذه المقاييس . وهي تنطوي على عناصر الرغبة والعزم والارادة . فاذا لخصنا مقاييس التقدم بما يتحلى به المجتمع ، عن طريق الشخصيات المكونة فيه ، من تحرر وانتظام ، امكننا ان نقدر التقدمية بمبلغ ما له من تحفز وعزم وارادة لاكتساب هذه القيم وانمائها . هذا التطلع والتحفز ، هذا العزم والتصميم ، هذه الارادة الدافعة ، هذه الهيئة النفسية المتجهة نحو القيم الانسانية العليا التي يلخصها التحرر والانتظام : هذه هي جوهر التقدمية المنشودة .

وارجو ان لا يفهم من قولي هـذا ان التقدمية صفة زائدة على التحرر والانتظام ، وانما هي نتيجة ملازمة لهما . فالشخصية التي حققت هـذين المعنيين المتكاملين هي شخصية تقدمية حتماً . وكذلك المجتمع : اذ ان صفته ــ كما قلنا ــ هي خلاصة صفات الافراد الذين يتألف منهم . وبعبارة اخرى ان هذه المعاني الثلاثة ــ في الافراد والمجتمعات ــ هي واحدة في جوهرها . فالتحرر اذا تحقق فعلا كان هو نفسه انتظاماً فتقدمية .

ويستنتج من هذا ان الشخصيات الحرة المنتظمة ليست هي نتيجة للتقدم ومقياساً له فحسب ، بل هي ـ بمعنى أهم ـ العامل المؤدي اليه . ولا شك في انه من الصعب عند تشابك العناصر الاجتماعية وتفاعلها فيما بينها فصل النتائج عن الاسباب فصلاً تاماً حاسماً . فكأي من نتيجة كانت بذاتها ايضاً سبباً لسواها ، بحيث يعسر

تحديد أية من هاتين الصفتين تغلب عليها . وهـذا هو اصل الخلاف الذي مازال قائماً بين الفلاسفة وعلمـاء الاجتماع ومعلمي التاريخ ، والذي نجد صداه الصاخب عندنا في نظريات الباحثين وجهود العاملين .

ولما كان لابد لكل باحث في هذا الموضوع من أن يبدي رأيه الصريح في هذه القضية الاساسية ، لأنمنه تتفرغ آراؤهفي القضايا الاجتماعية عامة ، فموقفي الخاص هو ان العوامل الشخصية الانسانية هي العوامل الاصيلة ، وما سواها هو اما عامل مساعد لها أو نتيجة عنها . لقد تكلمنا مثـلاً عن الآلة كسبب من اسباب التقدم لفعلها في استغلال الطبيعة وضبط العلاقات الاقتصادية والاجتماعية . ولكن الآلة هي نتيجة عمل العقل المتحرر المنتظم . نعم ! انها تساعد في ازالة الموانـع وتحطيم الحواجز القائمة في وجه تحرر العقل ، فهي من هذا القبيل عامل مساعد . ولكن العامل الاصيل هو العقل الانساني ذاته ، بل الشخصية الانسانية المكتملة بتحررها فانتظامها فتقدميتها .

وفي نظري انمايحرزه مجتمعنا العربيمن تقدم متوقف ـ في الدرجة الاولى ـ على ماينشأ ويعمل فيه من شخصيات متحررة منتظمة تقدمية في ذاتها . ولا عجب في هذا ! ففاقدالشيء لايعطيه . عبثاً ننتظر اشاعة الحرية ممن لم يتحرر في ذاته اولاً . عبثاً نتطلع الى من لم ينتظم عقله وتنسجم قوى نفسه لان يكون باعث انسجام وانتظام في المجتمع . عبثاً نرجو ممن يخشى المغامرة واقتحام آفاق العمل والعقل والروح ان يدفع بمجتمعه الى الامام .

ولذا كان اخطر واجب علينا ، وأجسم عبء ملقى على عاتقنا ، تكوين هذه الشخصيات التي تصبح في المجتمع مبعث قوة وحياة واندفاع . ولا نكران للقوة والحياة والاندفاع مصادرها الاخرى ، ولكن هنا ـ في الشخصيات الحية الفاعلة، المتحررة المحررة ، المنتظمة الناظمة ـ المصدر الاول والمبعث الرئيسي .

وفي الواقع ان هذا الاعتقاد هو اساس ايماننا باولوية التعليم ، والجامعي منه بصفة خاصة . فانما بذلك ننشد مداواة العلة في جذورها ، وتهيئة العامل الرئيسي

للانبعاث والتقدم . وعلى هذا الشكل يجب ان تفهم مهمة الجامعة الاصيلة . ان للجامعة مهمات عدة ، على درجات متصاعدة من الخطورة والجلال . عليها تدريب شباب الامة واعدادهم للمهن الحرة . وليس من يستخف بهذه المهمة ، خصوصاً في مجتمع كمجتمعنا يحتاج الى انشاء شامل والى عاملين اكفاء في شتى نواحي الانتاج : في استثمار الطبيعة ، في ضمان الصحة ، في نشر التعليم . وقد بينا اثر هذه الاعمال كلها في تقدم المجتمع ، والضرورة الملحة لتدعيم تعليمنا الفني وتوسيعه . وللجامعة فوق هـذا مهمة المحافظة على التراث العلمي الايجابي وتنميته بالبحث والتحري ، ونقله الى الاجيال الصاعدة ، وبهذا ايضاً تساهم في التقدم ، كحامية للعلم وخادمة للعقل . لكن مهمتها الكبرى ، مهمتها الاصيلة ، هي تكوين الشخصيات التي وصفنا، تلك الشخصيات التي يؤمن الجامعي بانها العامل الاهم في التقدم والارتقاء .

هذا كان اب عمل الجامعات في التاريخ ، وهذا فعلها في نهضات الامم ، فاليه يجب ان توجه جهودنا في جامعتنا الوطنية هذه .

عن هذا السبيل — وعنه وحده — تبرر هذه الجامعة وجودها في الوطن . عن هذا السبيل تساهم مساهمة اصيلة في تكوين المجتمع العربي المستثمر امكانياته، القابض على جوهر العلم ، المتعلق بالقيم الادبية والروحية ، الصائن كرامة المواطن والانسان : المجتمع العربي المتحرر ، المنتظم ؛ المجتمع العربي التقدمي ، الجامع بتقدميته هذه المعاني كلها .

❀❀❀

تأميم الطب في سورية (١)

للدكتور مدني الخيمي

سيدي الرئيس سيداتي سادتي

انه موضوع شائك عسير ماحاول ان اعالج في هذه الامسية .

لقد جمع اطباء الولايات المتحدة بواسطة نقابتهم ملايين الدولارات هذه السنة لمقاومة تأميم الطب في الولايات المتحدة وللوقوف سداً منيعاً دون نفوذ عدواه الى اميركا ولقد ندر أن نجد مجلة أو جريدة وردتنا في بحر السنة الماضية من بلاد الحريات الاربع دون ان نجد بها مقالاً أو اكثر من مقال في ذم الاشتراكية والضمان والسخرية من الطب المؤمم، مقالات لا اشك في أن نقابة الاطباء هي التي تدفع ثمنها ، فان البقرة التي يستغلها الاطباء الرأسماليون حلوب يعز عليهم ان يفارقوها الى غير رجعة وان يرتفعوا عن المستوى المادي الذي ألفوه والفهم وعن الروح التجارية التي احبوها واحبتهم فهم يحاولون ان يؤثروا في الرأي العام بالدعاية والاعلان وحتى بالضغط على النواب والناخبين ومقاومة المرشحين الذين يقولون بالتأميم والحيلولة دون نجاحهم في الانتخابات القادمة .

ولو علمتم حضراتكم أي جحيم يدخله المريض وأي ابتزاز لماله ووقته وبدنه وروحه يتعرض له عندما يحاول ان يراجع أحد الاطباء او أن يدخل احد المستشفيات الخاصة لعلمتم لماذا يحاول هؤلاء الزملاء ان لا يرتفعوا فوق المادة الى مفهوم العدل الاشتراكي .

وقد اطلعت على مقال نشرته المختار الافرنسية تحت عنوان « نظرات موضوعية

---

(١) ألقيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء ٢٠/١٢/٥٠

في الطب المؤمم » وقد سررت كثيراً ان اتيح لي الاطلاع عليه قبل ان اتشرف بالوقوف امامكم محاولاً الدفاع عن الاشتراكية الطبية لان كاتبه ستاسن رئيس جامعة بنسلفانيا من العقول المعدودة في العالم ولان مقاله كان نموذجاً ، لامثاله من الدعاة الذين يقلبون الحقائق رأساً على عقب فلا يرون الا الجانب السيء فيصبون عليه انوارهم الكشافة ويتعامون عن الجانب الحسن فيطمسونه في ظلمة دامسة؛ ولا يستبعد ان يكون كاتب المقال بريئاً من تهمة قلب الحقائق عن سابق عمد وتصميم بل ربما كان من اولئك المراقبين السذج الذين لايرون الا من خلال اطار خاص تفرضه نظارة خاصة لاترى الى اقرب او الى ابعد مما صنعت له حتى ان كل النقاط التي اوردتها في محاضرتي قبل ان اطلع على هذا المقال كحسنة من حسنات الضمان قد اوردها ستاسن كبينة على سوءته وكدلالة على عورته .

والظاهر ان النظرة الموضوعية هي من النوع الجديد الذي يفرض الموضوعية قبل ان يلقي النظرة . ألم نتعود كلنا في البلاد العربية على تلك المقالات التي كانت تنشرها الصحف الاميركية تحت عنوان نظرات موضوعية في القضية الفلسطينية والتي لم يسبقها في تاريخ الانسانية شيء تفوح منه رائحة التحامل بمقدار ماتبتعد عنه الموضوعية كهذه المقالات واؤكد لكم انها لم تكن مدفوعة بالعملة الصهيونية بل كان اكثرها من هذا النوع الموضوعي الذي يستطيع اليهود ان يفرضوه على مفكر ساذج دون عناء .

انهم يقيسون كل القضايا بامتارهم ولا يريدون ان يعترفوا على مقياس آخر فما دام فلاحهم يملك سيارة وآلة حلب اوتوماتيكية وعاملهم مطبخاً وبراداً كهربائيين فانهم لن يستطيعوا بأي حال من الاحوال ان يفهموا مايعانيه المزارع الحوراني المريض الذي يغادر قريته النائية وفي بطنه بضع لترات من الحبن اي الاستسقاء فلا يصل دمشق الا وقد بلغت بعد جهود السفر ومشقة انتظار دوره في الدخول الى المستشفى عشرات اللترات .

ان الذين يأكلون البسكويت والكونسروة لايستطيعون ان يشرعوا للذين

يأكلون الشعير وتصبغ جلودهم من فقد مادة اللحم اللازمة في الطعام ، وان الذين
يشأ تشمع كبدهم من الافراط في تناول الكحول لايستطيعون ان يعالجوا قضايا
الذين يتشمع كبدهم من البرداء (الملاريا) والزحار (الدزنتريا) بالاضافة الى فقد
اللحم من الطعام .

انه يجدر بنا ان نفيد منهم ومن تشاربهم دون ان يغيب عنا اننا نواجه مشكلاتنا
الخاصة وقضايانا القومية فما هو الطب الرأسمالي وما هو الطب الاشتراكي ؟

لقد سبق التأميم التام او الاشتراكية الطبية محاولات عديدة في سبيل ضمان
قسط من العدل الاجتماعي للطبقات الكادحة المحرومة ومن هذه المحاولات
مانشاهده اليوم في بعض الامم الاوربية وهو مايسمى بالتأمين الاجتماعي وهو
يختلف بين امة واخرى ولكنه يتلخص في ان المريض المؤمن اجتماعياً (Assuré
social) ينتقي طبيبه من بين عدد من الأطباء ويدفع صندوق التأمين قسماً مهماً
من اجر الطبيب كما يعيد قسماً من ثمن الدواء ويبقى على المريض الفقير ان يدفع جزءً
مهماً ينوء بتحمله في اغلب الاحيان وهو نظام على محدوديته ونقاط ضعفه خطوة
لابأس بها فى طريق التأميم .

اما التأميم التام او الطب الاشتراكي فهو ماطبق في روسيا وبريطانيا وبقية
الامم التي اوصلت الى الحكم الحزب الاشتراكي او مايعادله ولا يختلف النظام في
احدها عن الأخرى من حيث الاساس بل هو مختلف من حيث التطبيق ليناسب
الظروف المحلية في الارجنتين مثلاً او المكسيك او انكلترا او روسيا . وسنحاول
ان نصف هذا النظام ثم نقارن بين حسناته وسيئاته مايقوله خصومه وما يقوله
اصدقاؤه وسنخرج من كل هذا الى مايمكن ان يطبق في بلدنا آخذين بعين الاعتبار
درجة تطور شعبنا ونقاط الحساسية في مجتمعنا .

لقد دفعت بريطانيا في السنة الماضية ٢١٤ مليون جنيه انكليزي في التأمين
الاجتماعي مع المخصصات العائلية و٣٩٢ مليونا في الخدمة الصحية القومية و٢١٩
مليوناً في التعليم و ٦٠ مليوناً في بناء دور السكن ، ويشكل هذا الرقم عشر الميزانية

البريطانية وتتشكل ميزانية الضمان مما يدفعه العمال المؤمنون وصاحب العمل وما دفعته الخزانة الحكومية ١٩٨ مليوناً من الجنيهات . وما يصرف على الخدمة الصحية يوزع بين مايدفع للأطباء وما يدفع في اثمان العلاجات المختلفة ، اما بقية المبالغ فهي لفروع الضمان الاخرى التي سيرد ذكرها فيما بعد وينقسم الناس من حيث المبالغ التي يدفعونها للدولة من اجل هذا الضمان الى ثلاث فئات؛ وقد حولت المبالغ الى العملة السورية حتى نستطيع ان نكون فكرة سهلة عن هذا الضمان .

فالفئة الاولى وهي فئة المستخدمين في المعامل والمصانع الكبرى والمخازن والدكاكين وكل من يتناول راتباً مقطوعاً من صاحب عمل، فيدفع الرجل في هذه الفئة خمس ليرات سورية اسبوعياً يدفع نصفها صاحب العمل ونصفها العامل كما تدفع المرأة في هذه الفئة اربع ليرات مناصفة بينها وبين صاحب العمل .

والفئة الثانية هي فئة غير المستخدمين الذين يشتغلون لوحدهم كالباعثين المتجولين واصحاب الدكاكين الصغيرة وصغار اصحاب المهن كمصلح المواقد والسقوف والخادمه المتنقلة بين بيت واخر، وهؤلاء يدفع الرجل ثلاث ليرات اسبوعية لصندوق الضمان كما تدفع المرأة ليرتين ونصف .

اما الفئة الثالثة فتشمل كل من لايدخل في عداد الفئتين السابقتين ويدفع الرجل في هذه الفئة ليرتين ونصف كما تدفع المرأة ليرتين وترسل هذه المبالغ الى صندوق الضمان بلصق الطوابع بالمبالغ المقررة في نهاية الاسبوع .

هذا مايدفعه الناس الى صندوق الضمان فما الذي ينالونه بالمقابل ؟

١) تعويض المرض : — وهو عبارة عن ١٢ ليرة سورية اسبوعياً و ١٨ اذا كان رب عائلة بالاضافة الى اربع ليرات عن كل ولد في سن الدراسة ويتناول هذا المبلغ من صندوق الضمان في اثناء المرض وطوال مدة النقاهة التي يراها الطبيب ضرورية له.

٢) تعويض الأمومه وهو على اقسام :

آ ـ هبة الامومه وهي عبارة عن ٣٦ ليرة سورية عن كل ولادة ويدفع هذا المبلغ من ضمان الزوج اذا كانت هي غير مؤمنة .

ب) فائدة الامومة : وهي ١٦ ليرة اسبوعية تدفع بالاضافة الى الهبـة الاولى وتدفع ستة أسابيع قبل الولادة و١٢ اسبوعا بعدها الى أفراد الفئة الاولى والثانية فقط.

ج) مساعدة الامومة : وهي تسع ليرات اسبوعية تدفع لأفراد الفئة الثالثة التي لاتستفيد من الهبتين السابقتين .

٣) الترمل او الرملة وهي على اقسام :

آ) تعويض الأرمل والأرملة وهو عبارة عن ١٦ ليرة اسبوعية لمـدة ١٣ اسبوعاً و ٤ ليرات اسبوعية عن كل ولد في سن الدراسة .

ب) راتب الام الارملة وتتناوله بعد التعويض الأول وهو عبـارة عن ١٤ ليرة اسبوعية مقطوعة عن الأم والولد واذا كانت تعمل فانه يطرح من هذا الراتب نصف ليرة عن كل نصف ليرة تجنيها بعد الـ ١٥ ليرة الاسبوعية .

ج) راتب الارملة وهو ١٢ ليرة اسبوعية ويطرح منه كذلك ماذكر سابقاً اذا كان لها دخل يزيد عن ١٥ ليرة اسبوعية .

٤) راتب الوصي : ويدفع لرب العائلة التي تعيل احد الاولاد القاصرين بعد فقد ابويه وهو عبارة عن ست ليرات اسبوعية .

٥) راتب البطالة : ويعادل مايدفع اثناء المرض ويستمر لمـدة ستة اشهر فاذا كان عذر البطالة لايزال مقبولاً بعد هذا التاريخ فان الراتب ينقل عندئذ الى ميزانية المالية لترى رأيها في امر اعاشته ولا يدفع له بعد ذلك من ميزانية الضمان .

٦) راتب التقاعد : ويدفع عن بلوغ الخامسة والستين المرجل وعنـد بلوغ الستين للمرأة وهو عبارة عن ١٢ ليرة اسبوعية وسبع ليرات للزوجة اذا كانت غير مؤمنة ويرتفع هذا الرقم الى ماذكر تحت راتب الارملة عند فقد زوجها ويعتبر متقاعداً كل من بلغ الخامسة والستين ولا يستطيع او لايريد ان يشتغل اكثر من ١٢ ساعة اسبوعية ومتقاعدة كل من بلغت الستين ولا تستطيع او لاتريد ان تعمل خارج بيتها اما اذا اختار احد هؤلاء المسنين ان يبقى في عمله بعد الخامسة والستين

او في عملها بعد الستين فان راتب التقاعد يزيد نصف ليرة كل اسبوع عن كل سنة بقي فيها المسن في عمله ودفع عنها عوائد الضمان .

٧) هبة الموت : وهي مايدفع عند موت احد المؤمنين وهي عبارة عن ١٨٠ ليرة عن الكهل ونصف المبلغ عن الولد مقابل نفقات الجنازة والدفن .

٨) تعويض الرض اثناء العمل : وهو مقصور على الفئة الاولى من المؤمنين ويعادل ماجاء تحت تعويض المرض .

٩) راتب الاولاد : وهو ليرتين سوريتين عن كل ولد في سن الدراسة .

١٠) معونة الكرامة الانسانية : وتدفع لمن يحتاج لمعونة ولا تطاله كل هـذه الضمانات ويرصد لها مبلغ كبير خصوصاً في اثناء فترة الانتقال الحاضرة .

١١) الضمان الصحي : وهو الذي تديره وزارة الصحة نيابةً عن وزارة الضمان الاجتماعي وهو في متناول الفئات الثلاث دون استثناء وهذا الجزء البسيط من الضمان الاجتماعي وهو ما يعنينا هذه الليلة هو في متناول يد كل رجل وامرأة وولد دون النظر الى مايملك من مال او عقار ومايكلفه هذا الضمان يحسب عبئاً على الدخل القومي بأجمعه ويحق لكل انسان ان يتمتع بخدمة طبيب ينتقيه بنفسه دون اكراه ولا اجبار كما يحق له ان ينتقي طبيب اسنانه وطبيب عيونه وقابلته كما يستطيع ان يستشير من يشاء من الأخصائيين الذين يرى طبيب عائلته لزوم استشارتهم وكذلك يحق له الدخول الى المستشفى واجراء مايحتاج اليه من عمليات اومعالجات كما تصرف له مجاناً سائر الوصفات التي يشير بها الطبيب سواءً كانت ادوية او نظارات او اسنان او ايدي او ارجل اصطناعية او اربطة او حزامات او نقل دم او تمسيد (مساج) او اطعمة خاصة وحتى شعر اصطناعي لمن يحتاجه اذا قال الطبيب ان الصلع هو من النوع الذي يؤثر على نفسية المريض وقد صرف من هـذه الشعور الاصطناعيـة مقدار ٥٠٠٠ طقم في السنة الاولى من تأميم الطب في بريطانية .

ويستطيع كل انسان كما قلنا ان يذهب الى طبيب مؤمم وان يتقيد في سجله اي يلزم نفسه به اذا قبل الطبيب ان يسجله كما يمكنه ان ينتقي طبيب اسنانه او طبيب

عيونه وان يغير ويبدل في هذا وذاك كما يريد ويستطيع، كذلك ان يستشير الاطباء الذين لم يدخلوا في التأميم إذا دفع أجرة إضافية ولكنه لا يستطيع أن يدفع أي أجرة أو أن يقدم أي هدية أو أن يكون له أي علاقة مادية تحت طائلة أشد أنواع العقاب بالطبيب المسجل في قيوده (ليستته) . وإذا مرض إنسان بعيداً عن بلده وعن طبيبه فانه يستطيع ان يستشير أحد الاطباء مجاناً ويدفع أجرة الزيارة مركز البوليس وكذلك يستطيع زوار بريطانيا من الاجانب ان يستشيروا من يشاؤون دون دفع اي أجر . كما يستطيعون الحصول على ما يريدون من العلاجات والاوائل الصحية مجاناً بعد ان يمضي على اقامتهم مدة ثلاثة اشهر غير ان باستطاعتهم اجراء أي عملية اسعاف (اي العملية التي يضطرون لاجرائها بصورة مستعجلة) بعد وصولهم بدقائق ولكن عليهم ان ينتظروا دورهم اذا كانت العملية غير اضطرارية .

ويفحص طلاب المدارس دورياً صحياً وعينياً وسنياً ويعالجون في عيادات خاصة وهنالك مايزيد عن ٣٠٠ مركز للوقاية العقلية وتعني هذه المراكز بالاطفال المتأخري النمو العقلي كما يستطيع هؤلاء الاطفال ان يرسلوا وراء هذه العناية الى بيوتهم اذا كانوا في حاجة اليها .

ويتلخص التأميم في تقسيم الاطباء الى ممارسين واخصائيين ويدخل في زمرة الممارسين طبيب العيون وطبيب الاسنان ويقيم الممارس في عيادته أو في المركز المعين له ويقطن هذا المركز في الغالب طبيبان يتناول احدهما نسبة تزيد عن زميله ولكنها لا يجب ان تزيد عن الثلثين وان لا تنقص عن الواحد والخمسين بالمئة ويتناول الآخر بقية الايراد وهو كما ترون يجب ان لا ينقص عن الثلث ولا ان يزيد عن التسعة والاربعين الباقية من المئة ويجب ان يقيم احد هذين الشريكين في العيادة مع عائلته حتى يكون تحت تصرف المرضى في خارج اوقات الدوام اي في الليل والنهار فاذا مرض او تغيب لعذر حل محله الشريك الآخر وبذلك يكون المركز على استعداد لتلبية المرضى في الليل والنهار .

ولا يعالج الطبيب المرضى غير المقيدين في سجله الا اذا أراد ذلك ويدفع له

أجراً إضافياً مقابل هذا العمل ولكنه مجبر على معالجة مرضاه المسجلين في اي وقت شاؤوا . ويستطيع الاطباء أن يمارسوا في أي منطقة شاؤوا إذا كانت هـذه المنطقة المنتقاة غير مغلقة والمنطقة المغلقة هي المنطقة التي استكملت العدد الكافي من الاطباء فاذا شاء احدهم أن يشتغل فيها فعليه ان يحل في مكان أحد الاطبـاء الذين تقاعدوا أما في المناطق المفتوحة فانه يستطيع أن يبدأ عمله في أي وقت أراد بالاتفاق مع المجلس الصحي المحلي .

ويتناول الاطباء رواتبهم أربع مرات في السنة على طريقتـين الطريقة الاولى بالنسبة لعدد المرضى المقيدين في سجل الطبيب وهذه الطريقة يفضلها أصحاب العدد الكبير من المرضى بين الاطباء في المناطق العمالية ويتناول الطبيب حوالي عشر ليرات سورية سنوياً عن كل مريض في سجله سواء استشاره أم لم يستشره ولا يسمح له ان يسجل أكثر من أربعة آلاف مريض أوضعف هذا الرقم تقريباً في المركز الذي يشغله طبيبان. اما الطريقة الثانية فهي طريقة الراتب المحدود مع إضافة صغيرة عن عدد المرضى وهذا ما يفضله الاطباء في المناطق الغنية التي لا يوجد فيها عدد كبير من المرضى على أن لا يقل الحد الادنى من المرضى عن خمسمئة وندر من الاطبـاء من بلغ رقمه القياسي إلا في المنـاطق العمالية المفتوحة والكثيفة السكان على قلة في عدد الاطباء . ولا يعني التسجيل أن كل المرضى المسجلين سيستشيرون طبيبهم حتما فان من المرضى من لا يحتاج الى طبيب إلا مرة في كل خمس سنوات ولكن الطبيب يتناول عشر ليراته السنوية على كل حال كما يتناول تعويضاً عن سيارته في المناطق القروية وكذلك عن الوقت المضاع في التنقل بين المركز والقرى المحيطة .

ويتناول الاخصائيون رواتب مقطوعة وإضـافات بالنسبة لرقم الاستشارات وبالنسبة للدرجة والشهادة أي كلما حازوا على ألقاب أكثر أو كلما تناولوا بحثاً جديداً بالدرس والتمحيص وذلك تشجيعاً لهم على رفع مستواهم العلمي والفني .

وبما أن الطبيب يربح بالنسبة لعدد المرضى المقيدين بسجله فان من مصلحته المادية أن لا تقل الاسماء في هذا السجل وأن تبقى قريبة من الرقم القياسي على قدر

الامكان وبقاؤها كذلك رهن بكفائة الطبيب واستعداده للخدمة طالما أن الوسائل المشبوهة التي تستعمل لجلب الزبن في الامم الرأسمالية مفقودة في النظام الاشتراكي .

ويدير هذه الآلة الجبارة وهذا العدد الهائل من المستشفيات ومراكز الوقاية والعيادات ثلاث هيئات حكومية مسئولة امام وزير الصحة: اما الهيئة الاولى فهي مجلس المشافي ويشرف على المشافي وخدمات الاخصائيين في الدولة بأجمعها ، والهيئة الثانية هي مجلس الوقاية والخدمات الاجتماعية ويشرف على مراكز التلقيح والتمنيع والعناية بالطفل والامومة والاشراف على الوقاية العقلية ، والهيئة الثالثة هي مجلس الممارسين الذي يشرف على الاطباء وأطباء العيون وأطباء الاسنان كما يشرف على الصيادلة ومعامل الادوات الصحية ويتكون من رؤساء هذه المجالس الثلاث مجلس الوزارة الاستشاري الذي ينعقد برئاسة الوكيل الدائم لوزارة الصحة ويشرف هذا المجلس بالتعاون مع وزارة الضمان الاجتماعي على هذا الجهاز العظيم الذي يحول الانسان من حيوان سائم لا يعرف كيف يتخلص من مرضه وألمه إلى إنسان رفعه العدل الاشتراكي الى مرتبة الانسانية الحقيقية فأبعد عنه خوف المرض الذي لا يعرف كيف يتقيه .

لقد أتيح لي أن أرى هذه الآلة الجبارة أي الطب المؤمم في أثناء عملها فقد نزلت على صديق دراستي وهو من الاطباء المؤممين ويعمل هذا الصديق في الجانب الفقير من المدينة أي في مركز عمالي كما كنت اذهب في بعض ساعات النهار إلى طبيب آخر من أصدقائه يعمل في الطرف الآخر أي في الحي الارستقراطي من المدينة ولا فرق بين العيادتين إلا في منظر المرضى وفي لهجتهم أما المعاملة فمتشابهة في الحالين . ويعمل صديقي مع شريك آخر ويتناول أحدهما الخمسة والخمسين بالمائة والآخر بقية الخمسة والاربعين ويسكن صاحب الدخل الصغير في العيادة التي خصص طابقها الارضي لاستقبال المرضى ويبدء عمل الطبيبين في الصباح معاً فيستقبلان المرضى في غرفتين متلاصقتين ويتعاونان معاً في بعض العمليات الصغيرة كشق خراج أو وضع جبيرة صغيرة لطرف مرضوض .

وينتظر المرضى في صالون الانتظار بالترتيب الذي عرف عن الشماليين في احترام النظام وكنت أراقب على وجوه المرضى لارى تفضيلا أو ميلا للدخول على احد الطبيبين دون الآخر فلم أستطع أن أرى ذلك بل كانوا يدخلون عليهما كما لو كانوا يدخلون على مسجلي بطاقات الاعاشة في مصلحة الطعام . وعدم التفضيل، ناشيء عن الثقة التامة بالطب الاشتراكي الخالي من إغراء المادة التي تمنع الطبيب من الاستنارة برأي زميله خوف ضياع المريض أو خوف تحميل هذا المريض مالا طاقة له بتحمله من النفقة فان ثقة المريض بأن طبيبه سيستعين بالخبرة التي يراها ضرورية جعلته يثق بأي طبيب طالما أن هذا الطبيب لن يحتكر المعالجة إذا وجد أن من مصلحة المريض دخول المستشفى أو الاستعانة برأي الاخصائي .

ويستريح كل شريك يوما واحداً في كل اسبوعين وفي هذه الفترة يكون الشريك الآخر مسئولا عن كل المراجعين والمرضى الذين لا يستطيعون القدوم إلى العيادة يقدرون ذلك بأنفسهم فيهتفون للطبيب فيسألهم بدوره إذا كانوا يظنون أن الضرورة تقضي بحضوره حالا أم أنه يستطيع تأخير ذلك ساعة أو ساعتين حتى ينقص عدد المراجعين في العيادة، وللمريض أو لاهله مطلق الحرية في أن يقولوا أنهم يريدون الطبيب حالا أو بعد فترة من الزمن ولكن لهذه الحرية ثمنا باهظاً إذا أسيء استعمالها فان الطبيب عندما يذهب لعيادة المريض ويرى أنه كان على غير حق باستدعائه بهذه السرعة فانه يعلق على ذلك بكلمة عابرة أو ملاحظة بسيطة في المرة الاولى فاذا تكرر العمل من نفس المريض فانه يناقشه وربما هدده في المرة الثالثة بفصله من سجله ولكن الى أن يأتي اليوم الذي يستطيع به فصله عليه أن يلبي دعواته مهما كثر عددها وليس بمقدوره أن يتركه في منتصف الطريق بعد ذلك ينذره قبل شهر من انتهاء سنته الاشتراكية أنه شطب اسمه من سجله وأن عليه أن يجد طبيباً آخر للسنة المقبلة ويستطيع المريض أن يفعل نفس الشيء وأن ينقل اسمه إلى سجل طبيب آخر بنفس الطريقة دون أن يكون مجبراً علي التماس عذر لذلك أو سبب .

وقد رأيت بعض الذين اتوا الى المركز يحملون بطاقاتهم فيقول أحدهم لقد تركت طبيبي واريد ان اقيد نفسي وعائلتي بسجلكم ويسأله الطبيب عن أسباب تركه لطبيب عائلته فيخترع لذلك سبباً من الاسباب : — انه لم يلب دعوتي في اثناء الليل او ان ابنتي ساءت حالتها لانه تركها في نوبة تشنج مدة ثلاث ساعات قبل ان يحضر او انه يأتي وروائح الخمر تفوح من ملابسه ولا يكون المريض على حق في شكايته في أغلب الاحيان وربما كان على حق في بعض الاحيان. ويوازن الطبيب بين ما يربحه من هذا المريض (ستة اوسبع بطاقات عدد أفراد عائلته اي ستين او سبعين ليرة سنوياً) وبين ان يكون هذا المريض من النوع المزعج المرهق وربما سأل طبيبه السابق عن اسباب تركه ولكنه ليس مجبراً على ذلك . فاذا لم يشأ قبوله في سجله فليس عليه ان يقدم عذراً عن ذلك فهو إما ان يكون قد بلغ رقمه القياسي او ان يكون هذا المريض او أحد افراد عائلته معروف لدى الطبيب ولا يريد ان يعيده الى سجله بحال من الاحوال او انه سمع عن سوء تصرفه من طبيبه السابق . أما اذا اقتنع الطبيب ان المريض على حق وان طبيبه السابق قد اساء التصرف او انه بحاجة الى ماله مهما كانت الظروف فانه يقبله ويضيف الى دخله مبلغاً آخر اي عشر ليرات عن كل فرد من افراد عائلته والطبيب الكفؤ المجد الانساني المعاملة يقترب من رقمه القياسي بسرعة وهو عندئذ يكون اكثر حرية في انتقاء مرضاه واسقاط الطالح منهم واستبدالهم بغيرهم في نهاية السنة .

فانتم ترون ياسادتي ان هنالك نوعاً من « المسايرة » بين الطبيب والمريض لا تختلف كثيراً عما يحدث الآن في بلدنا هذا فالطبيب لا يريد ان يخسر المريض لان خسارته تجر الى خسارة عائلته وربما جيرانه ومعارفه وهو في نفس الوقت لا يريد ان يهبط عدد الاسماء في سجله الى الحد الادنى لان ذلك يحمله الكثير من المزعجات في سبيل الحصول على المال ويجبره على ان يقبل كل من تقدم له من المرضى حتى لا يبقى ملاصقاً لرقمه الادنى وفي تلك الحال يكون معرضاً كما يحدث في روسيا للنقل الى مركز آخر والمريض كذلك لا يريد ان يستبدل الطبيب الذي

يثق بطبه وعلاجه واندفاعه في خدمة مرضاه فهو لا يسيء استعمال الحرية التي خولها اياها القانون في استدعاء الطبيب في اي ساعة من ساعات الليل او النهار .

ويستطيع المارس ان يستشير من يرغب باستشارته من الاخصائيين كما يستطيع ان يرسل مريضه الى المستشفى الذي ينتقيه وان يكتب له ما شاء من العلاجات بالغاً ما بلغ ثمنها كما يستطيع ان يمنحه ما يشاء من ايام العطل والراحة ولكن هذه الحرية تبقى في حدود الصدق والحقيقة لان الاغراء المادي مفقود في علاقة الطبيب بمريضه .

هذا هو جهاز التأميم ياسادتي وياسيداتي فما هي المآخذ التي يثيرها عليه العالم الرأسمالي وما هي حججهم على عدم صلاح هذا الجهاز اننا سنذكرها تباعاً وسنرى كيف انها لا تستقيم على قدم او ساق .

أما الحجة الاولى فهي ضياع حرية اختيار المرضى لطبيبهم وقد لاحظتم معي ان هذه الحرية مفقودة في بحر السنة وان المريض لا يستعيدها الا في نهاية هذه السنة ولكنه مقابل هذا الفقدان الموقت لحرية الاختيار يتمتع بحرية استشارة عدد كبير من الاخصائيين ما كانت ظروفه المادية تسمح له باستشارتهم لو لا التأميم. فانظروا الى اي تربية اجتماعية ممتازة يؤدي هذا القسر البسيط فيما لو طبق في سوريا خصوصاً وقد تعود الناس على تبديل الاطباء بشكل يجلب الضرر الصحي على انفسهم اكثر مما يلحق بالاطباء من الضرر المادي فان المعرفة المسبقة من طبيب العائلة باحوال المريض وبسوابق عائلته الشخصية والارثية يساعد على تفهم حقيقة امراضه وامراض اولاده بينما ينتقل المريض في بلدنا بين طبيب وآخر دون سبب معلوم او منطق مفهوم فان المريض يشفى بعناية احد الاطباء من مرض خطير فيشكره على صفحات الجرائد ثم يمرض فرد آخر من افراد العائلة بعد بضعة اسابيع فيستشيرون طبيباً آخر غير الطبيب الاول وذلك انه تعرف في هذه الاثناء بطبيب آخر قيل له انه احسن من الاول . ان هذا التحديد في حرية الاختيار نعمة في بلادنا تمكن اطباء العائلات من دراسة مرضاهم بصورة اكثر جدية وجدوى.

أما الحجة الثانية التي تثار في محـاربة التأميم فهي ان الطبيب يتحدد طموحه فيتوقف عن المطالعة ويصبح سمساراً يورد المرضى الى المستشفيات طالما ان باستطاعته ان يرسل مرضاه الى اي اختصاصي واي مستشفى ينتقيه وذلك مردود من أساسه لان الطبيب غير الناجح كما ذكرت لحضراتكم لا يحصل اكثر من خمسمئة ليرة سورية في الشهر بينما يحصل الناجح على ثلاثة آلاف وبين الرقمين متسع للكفاح على ما اظن ومن غير الضروري ان يبلغ دخل الطبيب عشرة او عشرين الف ليرة سورية شهرياً كما يحدث الآن في سوريا ولبنان بين بعض الاطباء الاجانب بينما يحصل ابناء البلاد على كفافهم بصعوبة ولا يستطيعون ان يعلنوا عن ذلك حتى لاتستخدم للاضرار بسمعتهم فيظن المرضى انهم اطباء غير ناجحين . اما توريد المرضى الى المستشفيات فنعمة يحاولون تحويلها الى نقمة فان بعض الاطباء في كل البلاد الرأسمالية يقومون اليوم بعمليات وفحوص لا يفقهون فيهـا شيئاً وذلك كسباً للرزق بينما يسرهم ان يحولوا هذه الاعمال الى الاخصائي اذا انتفى العامل المادي منها وأصبح القيام بها او تركها سواء من ناحية المادة ولن يقسر اي نظام من الانظمة الطبيب الذي لا يريد ان يطالع على المطالعة وليست هي الدراهم التي تنصب بكثرة في جيب الطبيب هي التي تحفزه للتزود من العلم بل انها في بعض الاحيان باعث للكسل ومشجع للأبتعاد عن الكتب والمطالعة .

والحجة الثالثة هي ان المرضى الذين لا يحتاجون الى الطبيب حقيقة كمن دخل الغبار في عينيه او عض لسانه اثناء الاكل يأخذون من الطبيب وقت اولئك الذين هم في حاجة حقيقية اليه . هل سمعتم بأغرب من هذا ؛ الا يحق لمن عض لسانه ان يستشير الطبيب ألا يؤدي الغبار الى التهاب العين في بعض الاحيان ؟ ان المسلولين والمحمومين والمصابين بالسرطان في سورية ليس باستطاعتهم ان يستشيروا الطبيب لانهم لايملكون اجر الاستشارة واذا ملكوها فليس باستطاعتهم ان يشتروا الدواء او ان يتبعوا سبل المعالجة الضرورية؛ وان الطب المؤمم يسمح لهؤلاء ان يتعالجوا فهل هنالك من غضاضة اذا أضيف اليهم من عض لسانه او دخل الغبار في عينيه؟

وهل يرفض الطبيب الرأسمالي مريضاً عض لسانه اذا كان هذا المريض سيدفع له خمسة وعشرين ليرة ثمن استشارته ألا يفضله على المسلول الفقير ؟ ان الازدحام الحاصل في عيادات الاطباء الاشتراكيين مفخرة من مفاخر الاشتراكية لان سبعين بالمئة من هؤلاء المزدحمين كانوا يموتون في جحورهم لعجزهم عن الدفع دون أن يعلم بهم منتقدو التأميم، فاذا أضيف اليهم خمسة بالمئة من المرضى غير الحقيقيين فان هذا الضرر البسيط لايعادل النفع العام الذي يحصل بعد أن ينقلب الطب من تجارة بالارواح الى مواساة انسانية .

اما الحجة الرابعة فهي زوال العلاقة الروحية بين الطبيب والمريض وانتفاء المواساة النفسية التي يدفع ثمنها المريض وانا أعترف أن هذه الحجة صحيحة كل الصحة وانا أقر ان هذه الناحية لايؤمنها الطب المؤمم. ان المواساة الصرفة والطب النفساني الذي نقوم به الآن يحول الى صراحة مكشوفة قاسية . ان بعض المرضى يجدون في عيادات الاطباء فرجة لكبتهم وتكئة لبلواهم في تلك الدريهمات القليلة التي يدفعونها بين حين وآخر ليتقبلوا تلك الاكاذيب التي يعرفون في قرارة نفوسهم انها اكاذيب اولئك المرضى من الرجال الهاربين من واقعهم المختفين وراء امراض يتسلون بترديد اعراضها في المقاهي والنوادي وأولئك النسوة اللواتي يملأن فراغ نفوسهن بمجموعة من الامراض. اي خلاء خواء يتركه في نفوس هؤلاء وأولئك غياب الطب الرأسمالي؟ من هو الطبيب المؤمم الذي يقبل ان يطبب مريضاً موسوساً سنة كاملة لقاء عشر ورقات سورية ولا يصارحه بالحقيقة العارية، اي طبيب يذهب عشر مرات متواليات في ليال حالكة قارصة ليرى مريضه هستريائية وبنفس الثمن المقطوع ولا يقول لها شيئاً من حقيقة تفكيره اما إذا كان يقبض كما يفعل الآن خمسين ليرة سورية بعد كل زيارة ليلية فانه يخترع لها بعد كل زيارة تشخيصاً يختلف عن سابقه ويذكر لها قاموس الادواء والاوصاب دون ان تلفظ شفتاه هستريا بل أنه يتجنب في سبيل الحصول على أجره، ان يلفظ كل كلمة فيها « هس » وكل كلمة فيها « تر » بينما لو كان مؤمماً لايتناول عن سنة كاملة الا تلك العشر ورقات

المقطوعة ويحرم عليه أن يقبل هدية مادية او معنوية لصارح تلك السيدة الفاضلة بعد الزيارة الثانية بحقيقة مرضها واقذف في وجهها بكلمة هستريا وسببها كذا و كذا وسأحيلك الى الاخصائي باسيدتي وسترين انه سيقول لك بعد ان يجري عليك مئات الفحوص ماأقوله لك الآن ولاحاجة بك في استعمال العلاجات، انها تجربة قاسية مريرة من هذه الناحية ولكن لكل بناء جديد لابد من عقول جديدة ويجب أن يدفع الثمن في سبيل خلق شعب جديد. ان هذه الصدمة ستحرم عدداً من الاطباء من العيش كما الفوا ولكنها ستخلق عقلاً جديداً وشعباً جديداً.

ثم اننا نخلص من التقارير الطبية تلك التقارير التي تكتب غيابا في سبيل تأجيل محاكمة او في سبيل الفرار من امتحان البكالوريا او في سبيل الحصول على زوج مصاب بالافرنجي هذه التقارير أي اغراء يبقى في كتابتها اذا استبعد العامل المادي.

والادوية هذه العقاقير التي يتنافس بعضها البعض الآخر، وندر اليوم الذي لانستقبل به أحد دعاتها، اي وفر يحصل باستهلاكها اذا أممت تجارتها فلن يستورد منها الاما يقره مجلس الضمان الاعلى، واني قانع دون اللجوء الى عمليات حسابية ان الوفر الذي يحصل في مدى خمس سنوات يكفي لانشاء معمل لصناعة الادوية لايقل عظمة عن أكبر معمل للادوية في أوربا. ولاأريد أن أقول شيئاً عن الوفر في الوصفات، بل أن أدعو زملائي ان يتصوروا طبيباً مؤمماً لاقيمة مادية فيه للدواء، وكذلك لاقيمة فيه للدعاية فقد انتفى العنصر المادي بينهم وبين مرضاهم وزالت الرغبة في الاعلان - اي وفر يحصل في الوصفات الطبية والفحوص المخبرية والصور الشعاعية والخ.

هذه حال التأميم فما حال الوضع الطبي الحاضر في بلادنا؟

كلنا يعلم أن الضمان على أنواعه مفقود في سورية وان الخدمات الصحية المجانية تقتصر على عيادات الصحة المنتشرة في سوريا وان العلاج المجاني يقصر حتى عن التافه مما يحتاج اليه المرضى، اما الضمان قبل قانون العمل وبعد قانون العمل يتلخص في أن لكل شركة أجنبية او وطنية ولكل معمل او شركة او بنك طبيب أو عدد من الاطباء يختارهم اصحاب العمل يستشيرهم العمال وعائلاتهم وعلى هؤلاء الاطباء أن

لايصفوا أدوية ثمينة اذا كان صاحب العمل هو الذي سيدفع ثمنها وعليهم أن لا يعطوا الا أقصر مدة ممكنة من الراحة بعد المرض اي ان عليهم اذا أرادوا أن يحتفظوا بمراكزهم ان يكونوا دائماً في ركاب « رأس المال » ويختلف الحال باختلاف المؤسسة او الشركة فهو في بعضها احسن بكثير مما هو عليه في البعض الآخر .

ومع ذلك فان هذا الضمان تافه حقير ومرضاه يلجأون كما تعلمون الى الاطباء الاحرار او الى المستشفيات ليستكملوا علاجا لايوفره لهم هذا الضمان الاشل الابتر ، اضف الى ذلك ان من يلحقهم هذا الضمان لايشكلون اكثر من ٣٪ من مجموع الشعب لان البقية الباقية من الطبقة الكادحة تشتغل في مشاريع افرادية صغيرة لاتوفر حتى هذا النوع البسيط من الضمان كما أن الفلاحين محرومون تماماً الا من العناية التي تقدمها وزارة الصحة مجاناً او من الطبيب الذي يزحف مستقلاً في الصباح وفي جعبته مئات الابر فلايعود من غزوته في المساء الا وقد أتم سائر واجبات الانسانية ، اما بقية الناس من العمال الاحرار وأصحاب الدكاكين الصغيرة والزراعين وكل من لايتناول اجراً ثابتاً فكلهم مسؤولون عن عائلاتهم بانفسهم وعليهم أن يبيعوا اثاثهم وفراشهم عندما ينكبون بمرض طويل حتى يوفروا أجر الطبيب وثمن الدواء وكثيراً مايؤدي بهم الحرمان من دور النقاهة الكافي الى الدخول في مرض السل . وان الطبقة الدنيا من هؤلاء الناس جميعاً يتركون مريضهم في كفة القدر موكولاً الى عناية الله يموت او يحيى بقدرته دون أن يستطيعوا ان يوفروا له شيئاً من العناية فاذا مات فقدوا معيلهم وتشردوا عبئاً على الثروة القومية واذا شفي فقد خسرت الامة من دخلها القومي طوال اشهر كان يمكن أن يختصر فيها المرض الى بضعة أيام لو وفر له العلاج في الوقت المناسب مثال ذلك الحمى التيفية (التيفوئيد) فانها تشفى في ستة أيام وتنفق في ستة اخرى اذا انفق على المريض مئة وخمسة وعشرين ليرة سورية بينما هي تدوم بين الثلاثين والستين يوماً وتنفقه في مثلها اذا تركت دون علاج اضف الى ذلك خطر الموت في قليل من مرضاها فالخسارة في الثروة القومية في الحالة الثانية تعادل بين خمسة وعشرة أضعاف ما ينفق على المريض هذا مع العلم

ان هذا العلاج يستورد من الخارج ولو كان يصنع محلياً لاستطعنا ان نؤمنه بخمس ثمنه على الاكثر كما هي الحال في ايطاليا مثلا . اما اذا انتقل المريض الى داء مزمن كالسل او الافرنجي أو البرداء فانه عدا عن خسارته كنعصر فعال من عناصر الامة يشكل خطراً على بقية المواطنين ينقل لهم جرثوم الداء ويكون نكبة عامة على اطفاله وعائلته وعلى اطفال غيره وعائلاتهم .

ان جزءاً كبيراً من الطب الرأسمالي سمسرة ودجل وان الطب الرأسمالي تجارة رابحة في بعض الاحيان وخاسرة في البعض الآخر ومعذور هو الطبيب عندما يضحي بعشرين سنة من حياته على مقعد الدرس في النهار ووراء كتابه في الليل وينتهي ليرى انه لايستطيع ان يوفر لنفسه ولعائلته الحد الادنى من الحياة المحترمة بل يستمع فقط الى الخطب الرنانة التي تسأله باسم الانسانية ان يضحي من ماديته وانانيته ويذهب الى القرية ليخفف الآلام ويكفكف الدموع بل انهم يسخرون منه لانه يلتصق بالمدينة فلا يريد ان يفارق جوها ولا يخرج الى القرية المحرومة من كل شيء لان هذا الشيء يكلف هؤلاء الخطباء كثيراً من رقاهم في سبيل انعاش القرية بينما لايكلف ذهاب الطبيب الا هذه الخطب الرنانة التي ربما سهلت نجاح اصحابها السياسي . ماذا اعد هؤلاء الدعاة لهذا الطبيب في تلك القرية النائية أي راتب اضافي يدفعونه له بدل استماعه لاصوات البقر والحمير بينما هم يجلسون في مقاعدهم الوثيرة في السينما والنوادي أي تعويض مادي واعذروا كلمة مادي تتردد في محاضرتي الليلة عدد حبات السبحة اقول أي تعويض مادي يوفرونه له سوى ان ينطلق بابره في اقفيه الفلاحين المساكين يعوض بتلك الدراهم الممزوجة بدمائهم وعذاب ضميره عن غربته ووحدته ونقمته على المجتمع القاسي ولتنتحر الانسانية كما تشاء اذا كانت هذه الانسانية تملي على ان نقبع انا وانت امام موقدتنا في الشتاء نطالع كتاباً يلذ لنا ان نلعب مع اولادنا اذا لم يكن الكتاب بين متعنا بينما على ذلك الانسان المسمى بطبيب القرية ان يزرع الثلوج جيئة وذهاباً لوجه الانسانية بينما هو في الامم الاشتراكية يتناول ضعف الراتب المخصص لاكبر اخصائي في المدن. انه يشعر في

آخر كل شهر ان امته لا ترسله الى الثلوج لتنساه بل ترسله وتذكره في آخر كل شهر وتذكره بعد عدد من السنين فتوفر له تقاعداً سريعاً أو الانتقال الى مركز اسمى والى مسؤولية اكبر خصوصاً اذا استطاع في عزلته ان يدرس ويرتقي بمعلوماته وان يحصل على بعض الشهادات الاضافية .

ان الوجدان الطبي في سورية انقى وارفع منه في كثير من الامم الرأسمالية التي طغت المادية على تفكير افرادها وسيطرت على افئدتهم وادمغتهم وآمالهم واحلامهم وان لسورية مصلحة اي مصلحة في تطبيق مثل هذا النظام الذي يمكن ان يدرس ليناسب امكانياتها ودرجة تطورها النفسي والاجتماعي . وان يزيد عدد الراغبين في الانضمام الى هذا الضمان عن مليون سوري فلا يفرض في البدء الا على اصحاب الدخل الثابت كالموظفين في المراتب الدنيا والعمال وموظفي الشركات والبنوك والصناع ، ويقسم عائد الضمان الذي لا يجب ان يزيد عن ليرة اسبوعية ونصف ليرة عن الزوجة وربع ليرة عن كل ولد وتؤمن لهم وزارة الصحة مقابل هذا المبلغ ضماناً اجتماعياً كاملا فلا يدفع المؤمن عن كل وصفة طبية الا نصف ليرة سورية بالغاً مابلغ ثمنها ويدفع صاحب العمل والعامل هذه المبالغ مناصفة . وينتقى للجهاز الجديد عدد من الاطباء والاخصائيين بالمسابقة أو بالتطوع ويمكن عندئذ للدولة ان تدفع لكل طبيب خمس ليرات سورية عن كل مريض ولا تسمح له بقبول اكثر من اربعة آلاف مريض في سجله بالاضافة الى المرضى الذين يراجعونه من خارج الضمان . وعليها ان تشجع الاطباء الذين يشتغلون في مركز واحد بانزال ضريبة الدخل عنهم لتتشكل الوحدات الصحية وان يكلف هذا العدد من الناس اكثر من خمس ملايين ليرة سورية بالاضافة الى ١٢ مليوناً تجمع من عائداته يوفر مقابلها اكثر من خمسين مليوناً من الانفاق القومي .

وتستطيع الدولة السورية مبتدئة بوزارة الصحة ان تنطلق في تجربتها الاولى في تطبيق الاشتراكية فان خبرتها التي ستتعلمها من هذا التطبيق ستفيد منها في كل ما تريد ان تفعله بعد ذلك .

ان المرض معلم للصبر مرقق للشعور مهذب للغرائز الابتدائية وان هذا المرض المتعدد الجوانب في السوء له هذا الجانب الحسن الجانب الرحيم الذي يساعد في تنظيم الافراد وضمهم في انسانية مشتركة .

ان الشعوب التي تعود افرادها الفوضى وقست ظروف التاريخ عليها فجعلت من ابنائها تماثيل من الانانيات المتنافرة المتصادمة تخلو نفوسهم من روح المواطنية وتنعدم في افئدتهم روح التعاونية هذه الشعوب يجب ان تتاح لها الفرصة لكي تنهض ولكي تستعيد نزوعها نحو الانسانية الحقيقية واي فرصة ارحب من هذا الضمان يشعر المواطن بالوشائج التي تربطه باخيه المواطن وبالمسؤولية التي تحملها لا كانسان يشكل كياناً مستقلا فحسب وانما كجزء من وحدة وجود الشعب بكامله وانما كذرة من بدن واحد اذا اصيبت بما يضيرها تداعت لها سائر الذوات.رفاه الفرد جزء من رفاه الكل وبؤس الكل اجزاء يتوزعها المجموع .

أي نظام أشرف وارفع من النظام الذي يبدؤ حيث يتألم المواطن واي ألم يلتصق فيه الجزء المادي الذي هو البدن بالجزء المعنوي الذي هو الروح اكثر من ألم المرض فان في هذا الالم يجتمع المواطنون على صعيد واحد ومن هذا الصعيد الاشتراكي بحكم الطبيعة يجب ان تبدأ الدولة تحقيق اشتراكيتها الفاضلة التي تنشدها .

لقد ساعد على نجاح التجربة في بريطانيا كثير من الصفات التي تميز فيها الشعب البريطاني ولقد ساعدت هذه المزايا على ان تحتفظ بريطانيا لتجربتها الاشتراكية بكثير من حرية الاختيار اما نحن فلا يهمنا ما فعلت بريطانيا الا بمقدار ما نظن ان بامكاننا التطبيق ويجب ان نتطلع الى بقية الامم الاشتراكية فنقلل من الحرية في تجربتنا الجديدة إذا اردنا ان نضمن لها النجاح فعندما يخبر الطبيب البريطاني مريضه انه (أي المريض) في حاجة الى عملية جراحية غير مستعجلة وانه سيؤمن له اجراءها في احد المستشفيات بعد ثلاثة أشهر فانك تستطيع ان تراهن رابحاً في تسعة حوادث من كل عشرة ان هذا الطبيب لن يرى وجه مريضه قبل انقضاء التسعين يوماً التي حددها له اما اذ حصل مثل ذلك في سورية فانك تستطيع ان

تراهن رابحاً كذلك رابحاً في تسعة حوادث من كل عشرة ان الطبيب سيرى وجه مريضه في صباح اليوم الثاني مزوداً ببطاقة من كبير أو عظيم بل ربما احس هذا الطبيب ان نفوذ ذلك العظيم سينهار في تلك المنطقة التي اتى منها المريض اذا لم يقبله في المستشفى ويجري له العملية في الحال . وكذلك اذا استشارك احد الاطباء في وضع مريضه فارسله اليك لتبدي رأيك كاخصائي في وضع قلبه مثلا فاصغيت وصورت ودققت وخططت ولفظت حكمك بعد ذلك وقلت له ان قلبه من القلوب التي ستخفق الى ما شاء الله تسعين عاماً لاتنقص وان عليه ان يعود الى طبيبه ليزف اليه البشرى لاستطعت ان تراهن انه سيراجع نصف اطباء البلد وربما نصف اطباء بيروت قبل ان تطمئن نفسه الكبيرة الى ان قلبه العظيم لن يطاله هادم اللذات ومنغص راكبي السيارات .

من اجل اصلاح جديد ياسيداتي وياسادتي نريد عقولا جديدة ونحن لن نخجل من ذكر عيوبنا حتى نصلحها اننا اقرب الى الشعب الذي داس زعيمه وقتله رفساً وركلا بعد ان سلخ هذا الزعيم ربع قرن من حياته في خدمة هذا الشعب وآثار هذا الزعيم واضحة مشرقة لكل من زار ايطاليا بعد الحرب الاخيرة أقول اننا أقرب الى هذا الشعب منا الى هؤلاء الشماليين فاذا اردنا ان نتصور عقليتنا فلا مانع من ان نقسرها قليلا على النظام وان نفرض عليها بعض الانسجام فليست الديموقراطية مرادفاً للفوضى وليست الحرية في ان تمنعها عن الآخرين لتتمتع بقسطين منها .

ان الضمان الصحي الاشتراكي لايقل في تعويد الشعب على الصبر والطاعة والايثارية عن الجندية وان تطبيقه سيفتح لنا سبيل عدد من المشاريع الحيوية الاخرى التي لايمكن لنا ان نفعلها الا اذا استخدمنا المرض كحافز للطاعة والانتظام .

إن العقل السوري عقل محافظ وان العقل السوري عقل لايحب الطفرة ولكن هذا الجار الجديد الخطر الرابض على حدودنا الجنوبية يجب ان يدفع بهذه المحافظة وهذه الرتابة فيقتلعها اقتلاعاً. ان امكانيات هذا الجار الذي يتربص لابتلاعنا تعادل

امكانيات دولة اوربية معظمة وان تلهينا بالقشور، ومفاخرتنا بالمحافظة وكره الطفرة لن تشفع لنا في المعركة الآتية التي لاريب بحدوثها وان ضمانة الامم المتحدة لنا لن تكون كضمانتها لكوريا وانتم ترون ماذا يحدث الآن ولكن حتى الامم المتحدة لن تتدخل بيننا وبين من يسيطرون على شرايين الحياة في اغلب هذه الامم التي تباهي بالديموقراطية خصوصاً وقد نجح هؤلاء اليهود في تسويد سمعتنا وتصويرنا بصورة الحمر قدماء سكان اميركا وتصويرهم لانفسهم بصورة مستغلي الارض المتروكة في أيدي العرب الكسالى. فاذا لم ننفض الجمود عن اكتافنا ونسير وأي سير ابوا تقى من ان نوفر لمرضانا الخلاص المادي والراحة الروحية ونعطي لانفسنا الفرصة لتنظيم مواردنا وضبط احصائياتنا وفي ذلك خدمة تقدمها وزارة الصحة لكل الوزارات الاخرى وفتح على صعوبته ومخاطره رائد لكل اصلاح يأتي بعده وخطوة عملية حقيقية تبرهن للناس جميعاً ان كلمة الاشتراكية في دستورنا لم تكن تقليداً وانما كانت ايماناً عميقاً يهز منا مشاعر راسخة في نفوسنا متأصلة في عقولنا وانكم الاعلون ان كنتم مؤمنين.

❀ ❀ ❀

الشمس (١)

للاستاذ جميل العلي

أيها أعظم فائدة لنا الشمس ام القمر ؟ هذا هو السؤال الذي أشغل ذهن المتفلسف الروسي(Kutzma Prutkov) الذي اخترع شخصية الكاتب الشهير ليو تولستوي . وبعد أن أمعن هذا المتفلسف في الفكر ، أجاب على سؤاله بقوله : ان القمر أعظم فائدة لنا ، لانه ينير في الظلمات بينما الشمس تنير في الضياء . أيها السادة أرجوكم ان لاتظنوا ان(Kutzma)أشد سخفاًمن كثيرمن زملائه المتفلسفين الاقدمين او المحدثين . تعلمون ولا شك ان ضياء القمر ليس إلا ضياء الشمس وقد انعكس عن سطح القمر ، كما انكم تعلمون ان الظواهر الطبيعية التي نشاهدها في دنيانا منشؤها في الاصل الطاقة (Energy) التي تشعها الشمس . وعلى وجه التخصيص فان مصادر الطاقة التي يستخدمها الانسان في بناء المدنية مستمدة في الاصل من الشمس . ومع ان استعمال حرارة الشمس بصورة مباشرة ، عندما تجمع مثلاً بواسطة مرايا مقعرة ، نادر جداً كاستعماله في تسخين مياه الحمامات العامة في طاشقند ، فاننا عندما نحرق الخشب والفحم والزيت في بيوتنا ومصانعنا انما نطلق الطاقة الحرارية التي انبعثت من الشمس وكمنت بشكل مركبات كربونية في غابات العصر الحاضر او الغابات التي خلفتها العصور الجيولوجية في الماضي البعيد .

عندما تسقط أشعة الشمس على اوراق النباتات النامية تحلل هذه الاشعة ثاني

---

(١) ألقيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ١٠/١/٥١

اكسيد الكربون الموجود في الهواء الى كربون وغاز الاكسجين ، فالاكسجين ينتشر في الهواء ، وهذا هو السبب في ان وجود النباتات في غرفة ، ينعش الهواء بينما يترسب الكربون في جسم النبات وهذا الكربون يعود فيستأنف اتحاده مع الاكسجين عندما تشب الحرائق في الغابات او عند احتراق الحطب والفحم في مواقد البيوت .

عندما تحرق شجرة يابسة فان الطاقة التى تستردها لا يمكن ان تزيد على الطاقة الحرارية التي اخذتها اوراق هذه الشجرة من الشمس وخزنتها . من هذا يتضح انه لولا ضياء الشمس لما عمرت الغابات بالاشجار ولما كان بالامكان الحصول على مركبات الفحم والزيوت على سطح الارض . وكذلك الطاقة الميكانيكية المستمدة من اندفاع الماء فان منشأها الطاقة الحرارية المنبعثة من الشمس لان هذه الطاقة تبخر المياه من سطوح المحيطات والبحار ثم تصبها في اعالي الهضاب والمرتفعات حيث تجري لمستقرها الذي نشأت منه .

وكذلك الحال في قوة الريح التي يسخرها الانسان في دنياه فان منشأها تفاوت في سخونة الاجزاء المختلفة من سطح الارض ومن هذا التفاوت تنتج حركة الهواء . كيفما ادرنا البصر نرى ان مصادر الطاقة التي نستخدمها مستمدة من الشمس وأنه لولا اشعتها لكانت دنيانا خرابا يبابا ، لهذا قدس الانسان الاول الشمس ورفعها الى مقام العبادة ، فكهنة مصر الاقدمون عبدوا Amon Ra لانها عندهم ربة الارباب ، وعبدها سيدنا ابراهيم الى ان هداه الله : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر ، فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون . اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين » .

وحاك حولها قدماء الاغريق اساطير بالغة حد الروعة من نسج الخيال الفسيح . فقد حدثوا ان Phaeton قاد عربة الشمس في السماء ورأى أشعتها تصلي جلدي الدب الاكبر والدب الاصغر ، وأنه رأى الافعى التي كانت متمطية في سبات عميق حول نجم القطب الشمالي تفيق من سباتها غضبى مذعورة من حر ما اصابها ، ثم

رأى قمم الجبال على سطح الارض تحترق والغيوم التي تكتنفها يتصاعد منها الدخان فكان ان اسودت جلود الاحباش واقفرت صحراء ليبيا من إمارات الحياة ، وتصدعت فيما بعد قشرة الارض فنفذ ضياء الشمس الى Tartarus ، العالم الاسفل فذعر ملك الظلمات هو وزوجته من هول ما رأى ، واخيراً استغاثت الارض بجوبيتر ملك الناس والآلهة فأغاثها ورمى Phaeton بصاعقة من البرق يخطف الابصار فانتزعته من مقعده وقذفته وشعره يحترق كالنجم اذا هوى في نهر Eridamus الكبير فانطفأ جسده الملتهب .

هذه تصورات شعرية اكثر منها علمية ولكن علماء الاغريق اهتموا بدراسة الفلك ووضعوا مع قدماء البابليين الاسس الرياضية لهذه الدراسة . ويروى عن Eudemus الفلكي الاغريقي انه قال « ليت لي ان انتقل الى الشمس فأحترق بلهيبها وينكشف لي سرها الدفين » . لكن ماهو هذا السر الدفين الذي يود Eudemus لو يحترق في سبيل اكتشافه ؟ هو مصدر الطاقة الحرارية في الشمس وسأحاول في هذا الحديث ان ابحث بايجاز عن مصدر هذه الطاقة .

الشمس كما تعلمون كرة ضخمة جداً من الغاز ويدل على انها غازية اختلاف السرع التي تدور فيها البقع السوداء او الكلف في وجهها . ولو كانت صلبة متماسكة لما كان هناك اختلاف في سرع تلك الكلف ، إلا ان سطح هذه الكرة ليس مكورا في أحسن تكوين إذ تهب في جوها عواصف واعاصير ، وتحدث في داخلها في كثير من الاحيان انفجارات هائلة فتندلع من سطحها ألسنة من الغاز الملتهب (Solar Prominences) قد يبلغ ارتفاعها نصف مليون تقريبا .

وتتألف الشمس من اكثر العناصر المعروفة على سطح الارض وهي موجودة كلها في حالة غازية ملتهبة ، لان درجة الحرارة في وجه الشمس يبلغ ما يقرب من ستة آلاف درجة مئوية وفي مركزها ما يقرب من عشرين مليون درجة مئوية ، وبسبب هذه الحرارة العالية جداً في داخل الشمس ، تنخلع كهيربات الذرات (atoms) المختلفة من مساراتها فتبقى النواة من كل ذرة . وعلى وزن هذه النواة

ومقدار الكهربائية فيها تتوقف طبيعة الذرة . تبين العلماء وجود هـذه العناصر المختلفة في الشمس بواسطة المطياف spectroscope وهو جهـاز يحلل الضوء المنبعث من العناصر المختلفة عندما تكون في حالة غازية ملتهبة ، بعد انكساره في منشور المطياف ، الى خطوط ملونة في تنسيق معين . أما لون هذه الخطوط وتنسيقها فيتوقف على طبيعة العنصر الذي صدر عنه الاشعاع .

والآن انتقل الى البحث في مصدر الطاقة الحرارية في الشمس . لقد وجد بالحساب انه لو كانت مادة الشمس من مادة قابلة للاحتراق مثل الفحم وأشعلت في زمن الفراعنة الاولين لما كانت الآن إلا رماداً ، ونحن عنـد ما نتكلم عن احتراق مادة ما نعني اتحاد هذه المادة كيمياويا بعنصر الاوكسجين. واتحاد كيمياوي كهذا يستحيل حدوثه في الشمس بسبب درجة حرارتها الهائلة الـتي تحل كل مركب كيمياوي الى عناصره التي قد تتألف منها . ومن هذا نستخلص انه يستحيل ان يكون احتراق مادة معينة هو مصدر الحرارة في الشمس .

ولعلماء الفلك والجو نظريات مختلفة في مصدر هذه الحرارة سأبحث في اثنتين منها وفي الاسباب المختلفة التي ادت الى رفضها .

الاولى : نظرية التقلص للعالم الالماني Helmholz وخلاصتها ان كتلة الشمس الغازية تتقلص حجما بسبب قوة الجذب الهائلة فيها نحو مركزها وبسبب هـذا التقلص يزيد الضغط في هذه الكتلة الغازية فيترتب على ذلك ارتفـاع في درجة حرارتها وبالتالي انبعاث الموجات الحرارية منها .

ليس في هذه النظرية خطأ أساسي من حيث المبدأ الذي تفترضه اذ الواقع ان شيئاً من هذا التقلص حدث في بعض النجوم ولكن الاعتراض الخطير الذي تواجهه النظرية هو انها تحدد عمر الشمس بمـا لا يزيد عن عشرين مليون سنة الا قليلا ، لان النظرية تحتم ان يتقلص نصف قطر الشمس بمقدار كيلو مترين في كل قرن حتى تستمر في انبعاث الطاقة بمعدلها في الوقت الحاضر ، وهذا التقلص كبير جداً لا يمكن ان يكون واقعياً لان عمر الشمس وفق مقـاييس الزمن الكونية

يزيد على الفي مليون سنة ، ومقدار الطاقة التي انبعثت من الشمس منذ ان ولدت حتى الان هو تقريباً ٢،٤ × ١٠^٥٠ ارغاً . ما هو هذا المعين الذي يجهز الشمس بهذا القدر الهائل من الطاقة ؟ وهل ينضب هذا المعين ؟

النظرية الثانية هي نظرية الشهب : وخلاصتها ان الشمس ترجم بالشهب كما ترجم الأرض، فالفضاء الأكبر يرجم الشمس بكتل هائلة من هذه الشهب تصل وجه الشمس بسرعة اربعمئة ميل في الثانية تقريباً .

وبما ان طاقة حركة جسم ما تتناسب مع مربع سرعته فالطاقة الميكانيكية التي تحول عند الأصطدام الى حرارة هائلة جداً . ولكن علماء الفلك رفضوا هذه النظرية أيضاً لأنها تتطلب ان يتضاعف وزن الشمس في مدى ٣٠ مليون سنة حتى تبقى تشع بمعدل اشعاعها في الوقت الحاضر .

في خلال الثلاثين سنة الأخيرة بعد أن تقدمت الأبحاث الطبيعية في دراسة الذرة واصبح تحويل العناصر بعضها الى بعض في عالم الاختبار والتجربة ، استقر رأي علماء الفلك والطبيعيات على ان مصدر الحرارة في الشمس هو تحول غاز الهيدروجين فيها الى غاز الهيليوم ويقوم بدور الوسيط في عملية التحول هذه عنصرا الكربون والنيتروجين ، وتستغرق عملية التحول مايقرب من خمسة ملايين سنة . وفي كل لحظة تبدأ عمليات تحول من هيدروجين الى هيليوم وتنتهي عمليات سبق ان بدأت قبل خمسة ملايين سنة . وللتمثيل على مقدار الطاقة الهائلة المنبعثة من عملية التحول العنصرية اذكر أنه لو تمت عملية تحول غرام واحد من ذرات الهيدروجين الى هيليوم في ثانية واحدة لانطلقت من هذا التحول قدرة الف مليون حصان ميكانيكي . تعرف عملية التحول المذكورة في علم الفيزياء الذرية بالدورة الكربونية (Carbon cycle) وقد اكتشفها في آن واحد عالما الذرة (H. Bethe) و (C. Weizsacker) وجدير بالذكر ان تحول نواة الهيدروجين (Proton) الى نواة الهيليوم — وهي تتألف من أربعة بروتونات — لايكون بصورة مباشرة بل يتم كنتيجة لسلسلة تحولات ذرية في دائرة مغلقة (Closed circular chain)

على ست مراحل ، وتلعب نواة الكربون والنيتروجين — او نظائر من نواتيها (Isotopes) — اللتان تصطدم كل منهما مرتين من نواة الهيدروجين في كل دورة للتحولات — الأدوار الرئيسية في مراحل التحول فتعود كل نواة منها في نهاية التفـاعلات الست المتسلسلة الى النواة ذاتها عند بدء التحول سليمة معافاة من كل ضر . ثم تستأنف جهادها في سلسلة تفاعلات أخرى مادامت حرارة الشمس الهائلة في مركزها تجهز هذه التفاعلات بقنابل ذرية من نواة الهيدروجين .

وقد اثبت (Bethe) رياضياً ان الطاقة الحرارية المولدة من سلسلة التفاعلات المذكورة في درجة حرارة عشرين مليون درجة مئوية ، وهي درجـة الحرارة في مركز الشمس ، تساوي الطاقة الحرارية نفسها التي تصدر عن الشمس .

لقد وجد بالحساب الرياضي ان كمية الهيدروجين التي تستهلك في الشمس في عملية التحول الى هيليوم تقرب من ٦٦٠ ست مئة وستين مليون طن في الثانية ، وان كتلة الشمس هي ٢ × ١٠^٢٧ طن تقريباً ، وان كمية الهيدروجين في الشمس تقدر من نتيجة ابحاث واختبارات (Schwartzs chilel) التي نشرت في أواخر ١٩٤١ بما لا يزيد عن ٥٠ ٪ من مجموع كتلة الشمس ، ولهـذا فان عمر الشمس يقدر بخمسين الف مليون سنة تقريباً ، ولأنه لم يمض على ميلادها اكثر من ثلاثة أو أربعة آلاف مليون سنة فهي لا تزال في دور طفولتها المرحة .

وبما ان عنصر الهيليوم يخزن الموجات الحرارية اكثر من عنصر الهيدروجين فسينتج من عملية التحول هذه في القرون المقبله ازدياد في حجم الشمس وارتفاع في درجة حرارتها وستستمر هذه العملية على مدى آلاف ملايين السنين كما ذكرنا الى ان يتم تحويل كل غاز الهيدروجين الى غاز الهيليوم وسيترتب على ذلك قيام الساعة على هذه الأرض فتختفي صور الحياة من أديمها بسبب الحرارة الهائلة التي سترسلها الشمس على الأرض . ولكن هـذه الصورة للحياة على الأرض ليست خاتمة الرواية ، فبعد ان يستهلك كل غاز الهيدروجين الموجود في الشمس ستبرد هذه تدريجياً ويتلو ذلك تقلص في حجمها وبالتالي يزودها هذا التقلص بشيء من

الحرارة فلا تبرد دفعة واحدة وفي أثناء تبردها ستظهر على الأرجح صور الحياة مرةً ثانية على الأرض ويعيش الناس على أديمها ملايين السنين مادام تقلصها يزودهم بالحرارة الكافية لحفظ حياتهم . ثم تبرد الشمس اكثر فاكثر فينفخُ في الصور للمرة الثانية وتنقرضُ الحياة على وجه الأرض وتقوم الساعة بسبب البرد الشديد وتصبح دنيانا فيما بعد كرة من جليد تدور حول أمهـا في الفضاء الرحيب وقد فارقتها الحياة بحيثُ لايمكن ان تعود اليها .

قلنا ان الارض ستدور حول أمها الشمس ومن أطرف مايروى هو منشأ هذه الأمومة . كان ذلك في عام ١٧٤٩ عندما تصور المؤرخ الطبيعي (Louis Le Clerc Comte De Buffon) ان الارض والاجرام السيارة التي تدور حول الشمس قد ولدت من الشمس بقوة أن انقضّ عليهامن الفضاء النجمي مذنب هائل جبار مسح بذنبه الضخم قطعاً كبيراً من سطح الشمس فاندفعت هذه القطع بقوة الاصطدام تدور في الفراغ حول امها التي انفصلت عنها .

نعلم اليوم اننا كلما ازددنا عمقاً عن سطح الارض نحو مركزها فان درجة الحرارة ترتفع بمقدار ٣٠° مئوية لكل كيلو متر وبهذا المعدل في ارتفاع درجة الحرارة لابدوان تكون كل صخور الارض في حالة انصهار تام على عمق يقرب من ٥٠ كيلومتراً عن سطحها ولذلك يكون مايزيد على ٩٧٪ من مادة أرضنا في حالة الذوبان ولربما كان بعض هذه الحقائق هو الحافز الى تصور (De Buffon) بان الارض كانت في الماضي الجيولوجي البعيد كرة مؤلفة من مواد منصهرة في درجة حرارة عالية جداً وان الشمس منشؤها على الارجح .

لم يمض على هذه النظرية بضع عشرات من السنين حتى تقدم الفيلسوف الالماني (Immanuel kant) بنظرية جديدة وخلاصتها أن الشمس نفسها قد كونت الارض والاجرام السيارة دون أن يمسها جرم سماوي آخر . فقد تصور (Kant) ان الشمس كانت في فجر تكوينها كرة ضخمة جداً من الغاز بحجم الفراغ التي تشغله الشمس والاجرام السيارة ، تدور ببطء على محورها وان تبردها تدريجياً عن طريقة الاشعاع الى الفراغ المجاور قد أدى الى تقلص في حجمها فنتج عن ذلك ازدياد في سرعتها

الزاوية على محورها وبالتالي ازدياد في القوة الطاردة عن المحور فنشأ عن هذا استطالة في قطرها الاستوائي ثم تناثرت منها حلقات غازية اخذت تدور حول الشمس في مستوى دائرة استوائها .

اخذ بهذه الفكرة الرياضي الافرنسي (Laplace) فشرحها وعلق عليها في كتابه: (Exposition du system du monde) ومع أنه كان رياضياً من القدر الاول فانه لم يشرح النظرية بطريقة رياضية ولكن عندما حاول (Maxwell) العالم الفيزيائي الانكليزي معالجة فرضية كانت ـ لابلاس بطريقة رياضية اتضح له انه لو انتثرت كتلة الاجرام السيارة في الفراغ الذي تشغله الآن لكان التوزيع المادي في هذا الفراغ خفيفاً جداً ولما تمكنت قوى الجذب من تكثيف الحلقات الغازية وتكوين الأجرام السيارة المختلفة .

بعد هذا الفشل الذريع على ما يبدو الذي منيت به فرضية (Qant-Laplace) تقدم العالمان الاميريكيان (Chamberlin) و (Moulton) والعالم الانكليزي الشهير (Sir James Jeans) فأعادوا الى الحياة نظرية (De Buffon) في الاصطدام ولكنهم بدلوا المذنب المنقض على الشمس بنجم كبير كتلته تضاهي كتلة الشمس لأنه أصبح معلوماً في عصرنا ان كتلة أكبر مذنب لا يمكن ان تضاهي كتلة القمر . ولما عجز هذا التعديل عن تبيان الأسباب التي جعلت مسارات الاجرام السيارة دائرية تقريباً بدلاً من ان تكون قطوعا ناقصة متطاولة انقذ (Jeans) الموقف فأحاط الشمس عند اصطدامها بالنجم الهائل بغلاف غازي يدور حول الشمس فكان له الاثر في تعديل مسارات الاجرام السيارة بحيث أصبحت دائرية تقريباً . وبما أنه لا وجود لهذا الغاز في الفضاء الذي تجول فيه الأجرام السيارة فقد استقر رأي الفلكيين على أنه قد انتشر وتبدد في الفضاء النجمي ولم يبق منه إلا أثر ضئيل في مستوى مدار البروج هو مبعث ما يسميه الفلكيون ضوء مدار البروج (Zodiacal light).

آمن بصحة هذه النظرية جميع علماء الفلك والطبيعة حتى أوائل سنة ١٩٤٣ عندما تقدم العالم الالماني الشاب (Weizsacker) فقطع العقدة الجوردية في نظرية

نشوء الأجرام السيارة وأعاد الى الحياة الافكار الاساسية في فرضية كانت – لابلاس .

قبل ان أعرض خلاصة سريعة لرأي (Weizsacker) يجب ان أشير الى التقدم الهائل الذي طرأ على علم فيزياء النجوم او الفيزياء الفلكية (Astro - physics) في خلال العشرين سنة الاخيرة ونحن مدينون بهذا التقدم بصورة خاصة الى ابحاث وتجارب واكتشافات العالمين (Schwarzschild و Stromgren) عن العناصر الكيمياوية التي تتألف منها كتلة الشمس ، فقد اتضح من اكتشافاتهما ان كتلة غاز الهيدروجين تزيد قليلاً عن ٥٠ ٪ من كتلة الشمس وان كتلة غاز الهيليوم أقل بقليل من ٥٠ ٪ من كتلتها وان العناصر الكيمياوية التي تتألف منها أرضنا لا تزيد كتلتها عن ١ ٪ من كتلة الشمس .

وقد أثبت هذان العالمان ايضاً ان الفضاء النجمي (Interstellar Space) الذي كان يعتبره الفلكيون الفيزيائيون فراغاً ليس فراغاً بالمعنى الصحيح لان هنالك هباءً مادياً ينتشر فيه وان كتلة هذا الهباء تبلغ ميلغراماً في كل مليون ميل مكعب . وهو مؤلف من العناصر الكيمياوية ذاتها التي تدخل في تركيب الشمس والنجوم وبالنسب ذاتها من جهة الكمية .

كان الاعتقاد السائد عند علماء الفيزياء الفلكية إلى ما قبل عشرين سنة أن العناصر الكيمياوية التي تتألف منها كتلة أرضنا بنسب معينة تدخل في تأليف كتلة الشمس بتلك النسب ذاتها وقد أدى هذا الاعتقاد إلى آراء خاطئة في الفيزياء الفلكية ومنها نظرية نشوء الأجرام السيارة .

أعود الآن إلى رأي (Weizsacker) في نشوء الأجرام السيارة وخلاصة هذا الرأي هي أن الاكتشافات الحديثة عن التركيب المادي للشمس وللفضاء النجمي تؤيد الفكرة الاساسية في فرضية كانت – لابلاس عن نشوء الأجرام السيارة . فالشمس في رأي (Weizsacker) قد تكونت من تكاثف الهواء المادي المنتشر في الفضاء النجمي وعندما كانت في فجر تكوينها كان جزء كبير منها

ـ كتلة على الأرجح تساوي مئة ضعف كتلة الأجرام السيارة في الوقت الحاضر ـ يكوّن غلافاً ضخماً يدور حولها وتتألف مادة هـذا الغلاف من غازات لا تقبل التكاثف مثل الهيدروجين والهيليوم ومن هباء مادي للمركبات التي تدخل في تركيب أرضنا ، يعوم في غاز الغلاف الدوار . أما تكوين الأجرام السيارة حول الشمس فمنشؤه تصادم ذرات الهباء المادي المذكور ثم تماسكها وتكوينها كتلاً أكبر فأكبر حتى بلغت هـذه الكتل أقدار الأجرام السيارة عند فجر تكوينها .

وقد وجد (Weizsacker) أن الزمن اللازم لتكوين السيارات من الهباء المادي الذي كان يغمر الفراغ الذي تؤمه الأجرام السيارة يقرب من مئة مليون سنة وأن غاز الهيدروجين والهيليوم قد تبددا من هذا الفراغ وانتشرا في الفضاء النجمي في المدة الزمنية نفسها .

عندما كانت الأجرام السيارة في دور النمو كان اصطدامها بمواد البناء المادي التي كانت تجول في الغلاف الدوار ، يزيد في كتلتها وبالتالي في قوة اقتناصها ـ جاذبيتها ـ لتلك المواد إلا أن اصطدام مواد البناء في كتل السيارات كان يحفظها في درجة حرارة عالية ولكن عندما نفذت مواد البناء من الغلاف أخذت هذه الكتل تبرد شيئاً فشيئاً بالاشعاع الحراري فتجمدت قشرتها الخارجية وازدادت هذه القشرة سمكاً مع مرور الزمن بسبب تبرد السيارات بالاشعاع .

نرى من هذه الخلاصة السريعة لرأي (Weizsacker) أن عملية نشوء الشمس وأجرامها السيارة لم تكن حادثاً استثنائياً فرداً وأنها قد تكررت آلاف ملايين المرات عند نشوء جميع النجوم تقريباً .

إن الاتجاه الحديث في الفيزياء الفلكية يقرر أن لكل نجم جملة سيارات وإذا علمنا أن شمسنا نجم من أربعين مليون نجم في مجموعة المجرة وحدها فلا بد من أن يكون هنالك ملايين من الأجرام السيارة في المجرة نفسها تنطبق ظروفها الفيزيائية إلى حد كبير على ظروف أرضنا . ولهذا فان عدم ظهور الحياة بشكل من الأشكال

في تلك السيارات القابلة لنشوء الحياة إن صح وكان أمراً واقعاً لما يدعو إلى شديد الدهشة والاستغراب .

أما مصير شمسنا في النهاية فانه عرضة لاحتمالين : قد تثور على حتفها فتنفجر وتصبح نواة لسحاب ضوئي يعرف بالسديم (Nebuta) كما حدث للنجم الذي انفجر في رابعة النهار سنة ١٥٧٢ وسجل انفجاره (Tycho Brahe) وللنجم الذي سجل انفجاره الفلكيون الصينيون سنة ١٠٥٤ . هذا هو الاحتمال الاول، واما الاحتمال الثاني فهو أن تذعن للفناء فتبرد إلى أن تنطفيء جذوتها ويخبو ضياؤها فتتشح بالسواد وتعجز المراقب الفلكية عن أن تنبئنا بشيء عنها .

الحديث عن الشمس ذو أطراف، ولست أستطيع في وقت قصير معالجة الموضوع من جميع أطرافه، لكنني سأتكلم الآن عن ظاهرة هامة هي ظاهرة البقع السوداء أو الكلف في وجه الشمس .

أول من شاهد هذا الكلف هو غاليليو العالم الايطالي ثم اهتم الناس بهذه الظاهرة منذ فجر القرن السابع عشر ودونوا ملاحظاتهم عنها إذ ليس من الضروري دائماً استعمال المرقب — التلسكوب — لمشاهدتها لأنها تكون في بعض الاحيان كبيرة جداً ويمكن رؤيتها بالعين المجردة باستعمال نظارة سوداء لحماية البصر .

وتختلف هذه البقع في الكبر فبعضها يبلغ قطرها نحواً من بعض مئات الاميال وكثير منها لا يمكن رؤيته حتى باستعمال المرقب بينما يبلغ قطر بعضها ٥٠٠٠٠ ميل أي ما يقرب من ستة أضعاف قطر الأرض . وتظهر هذه البقع سوداء بالمفارقة مع سطح الشمس الشديد الضياء فهي ليست مظلمة . أو باردة إذا ما قيست بما نعرفه نحن من ظلمة وبرودة فانها في الواقع شديدة الحرارة ولو انفصلت عن سطح الشمس لكانت مضيئة . ومع ان اكثر البقع داري الشكل إلا أنها كثيراً ما تظهر باشكال مختلفة وهي تغير شكلها بسرعة . هذا التغير السريع في الشكل يدل على وجود عواصف هوجاء تجتاح سطح الشمس ومنشأ هذه

العواصف هو اختلاف السرع الزاوية التي تدور بها اجزاء الشمس المختلفة لانها كرة غازية .

فسرعة دورانها في منطقتها الاستوائية أكبر منها في مناطقها القطبية . وهذا الاختلاف في السرعة يكون حوامات في سطح الشمس أشبه بالحوامات التي تكونها سرع الماء المختلفة في سطوح الأنهار والسواقي السريعة الاندفاع . وقد ايدت أرصاد الفلكيين لهذه البقع انها تنشأ في أدوار فيزداد عددها من نهاية صغرى إلى نهاية عظمى ثم يعود الى نهاية صغرى في مدة زمنية متوسطها بين نهايتين متماثلتين إحدى عشرة سنة تقريباً وأول من لاحظ هذه الدورة الزمنية هو (H.Schwabe) الذي نشر نتيجة دراسته في سنة ١٨٤٣ وقد كانت آخر نهاية عظمى للبقع في أواخر سنة ١٩٤٩ وهي الآن آخذة في التناقص . ومن دوران هذه البقع على سطح الشمس استدل علماء الفلك على أن منطقة الشمس الاستوائية تدور على محورها في مدة ٢٥ يوماً بينما تدور مناطقها القطبية في مدة ٣٤ يوماً . وينحصر وجود الكلف في سطح الشمس بين خطي العرض ٣٠° جنوبي خط الاستواء الشمسي و ٣٠° شمالي ذلك الخط . وعندما تكون البقع في نهايتها الصغرى لا تظهر الكلف إلا في جهتي خطي العرض المذكورين ثم تأخذ تنتشر نحو خط الاستواء إلى أن تبلغ نهايتها العظمى ثم تأخذ في الانقراض فتنعدم من المنطقة الاستوائية تدريجياً . وتعود فلا تظهر عند النهاية الصغرى إلا قرب خطي العرض المذكورين .

وتتحكم هذه البقع السوداء في وجه الشمس في مصائرنا معشر الآدميين بشكل يكاد يفوق التصديق فهي تثير في جو أرضنا عواطف مغنيطية تسبب إضطراباً في المخابرات اللاسلكية البعيدة المدى وقد تتوقف هذه المخابرات عبر المحيطات بضع دقائق بسبب هذا الاضطراب وهي السبب في حدوث الاضواء القطبية (Aurora Borealis, Australis) .

لأنه عندما يكون نشاط البقع على أشده تنبعث من الشمس إلكترونات

بسرعة هائلة تصل الأرض في أقل من يومين وعندما تصطدم هذه الإلكترونات بطبقات الجو العليا تجعله مضيئاً .

وهي تسبب إزدياداً في سقوط الأمطار لأن الإلكترونات المنبعثة من الشمس عند نشاط البقع تُؤَيِّنْ (أي تكهرب) ذرات الهواء فتصبح كل ذرة نواة صالحة ليتكاثف عليها بخار الماء . ومن الحقائق المثبوته أن نمو الأشجار على مر السنين يتأثر بنشاط البقع فيكون أسرع عندما تبلغ البقع أوجها وقد أثبت هذه الحقيقة الأستاذ (A.E. Douglass) إستاذالفلك في جامعة (Arizona) بعد تجارب قضى فيها سنين طويلة يبحث في تباين سمك الحلقات التي تظهر عندما يؤخذُ مقطعٌ عرضيٌ للأشجار المعمرة وكما تعلمون يدل عدد الحلقات في مقطع شجرة ما على عدد السنين في عمر تلك الشجرة .

وبعد أن فحص (Douglass) مقاطع آلاف الاشجار في غابات(California وArizona) تبين أن متوسط عدد الحلقات أو عدد السنين التي تفصل الحلقات الأكثر سمكاً يتراوح بين إحدى عشرة وإثنتي عشرة حلقة فثبت له من هذه التجارب بكل جلاء أن السنين التي تنشط فيها البقع في وجه الشمس يكون فيها نمو الاشجار على أشده .

ومن طرائف الاحصائيات في الولايات المتحدة ان نشاط السوق التجاري والمالي بين سنة ١٩٢٥ و١٩٣٨ يظهر ارتباطاً وثيقاً مع نشاط البقع في وجه الشمس في تلك السنين . ويلاحظ هذا الارتباط أيضاً في مقدار ما تخرجه المصانع من السيارات وفي عدد تعهدات البناء كما وأنه لوحظ ان الكساد المالي والضيق الاقتصادي يحل بعد مرور مايقرب من سنتين ونصف سنة على بلوغ البقع ذروتها. ولكن العجبَ العجاب هو تحكم هذه البقع في سلوك الآدميين وامزجتهم وقد يكون سبب ذلك الزيادات الهائلة بواقع ٢٠٪ التي تطرأ على كمية الأشعة مافوق البنفسجية عندما تكون البقع في ذروتها إذ ثبت أن هذه الأشعة تؤثر في نشاط الغدد الصماء في الأحياء وعلى افرازات هذه الغدد تتوقف حيوية الأفراد وأمزجتها

وقد درس الأستاذ (A.Tchijevski) عضو الاكاديمية العلمية في موسكو تأثير البقع السوداء في تصرفات جماهير عامة الناس فخرج بالنتيجة المؤيدة بالاحصاء إن فعالية الجماهير تكون في أوج نشاطها عندما تكون البقع في وجه الشمس على أشدها وأول ما أيد هذا النشاط لديه هو احتدامُ المعارك أبان الحرب العالمية الأولى في أواسط حزيران سنة ١٩١٥ عندما ظهرت في قرص الشمس بقعٌ كبيرة جداً ثم استشهد بالأرصاد المدونة عن السنين التي كانت فيها البقع في الأوج فاثبت ان الثورات التاريخية الكبرى ، كالثورة الأميركية ، الثورة الافرنسية والثورتين الروسيتين كلها حدثت في اعقاب السنين التي بلغت فيها البقع أوجها ومما يؤيد رأي (Tchijevski) ان نشاط البقع في وجه الشمس فيما بين سنتي ١٩٣٧ - ١٩٤٠ كان مستمراً . وكلنا يعلم حالة التوتر والويلات التي كانت تسود العالم في ذلك الحين .

وما قول حضراتكم في حالة التوتر الكئيب التي تسود العالم الآن وهاهي تنذر بشر مستطير ! عملاقان يستعدان للصراع الرهيب ولا شك أبداً أن التطاحن بينهما إذا وقع بالفعل سيدك القسم الاكبر من صرح الحضارة العالمية .

فالحرب قائمة هناك في كوريا وخطر وقوعها في الهند الصينية والشرق الأوسط وغرب اوروبا ماثل قريب الاحتمال . وفوق هذا وذاك كارثة العرب في فلسطين وضياع البلد الأمين .

هل لمثل هذه الأحداث علاقة بالنشاط الذي كان ملحوظاً في السنتين الأخيرتين في البقع السوداء في وجه الشمس ؟ قد يكون ! ولكن العلم اليقين يقرر أن ما أصابنا معشر العرب كان نتيجة طبيعية لسيطرة غرائز الذات في تربيتنا . فتهافتنا على العبادة المطلقة في محراب الذات وفقدان الاحساس العميق بنبل التعاطف الاجتماعي يفتان في عضدنا فيلتوي علينا دائماً وأبداً سبيل الأنجاز إلى مايجب تحقيقه في خدمة المجموع .

ان خطة عدونا وأعوانه الذين يهبونه آلاف ملايين الدولارات هي ابعادنا عن

شواطىء المدنية إلى الصحراء التي لفظتنا وهو يعمل ليل نهار في سبيل الوصول إلى غايته الا وهي :

« من النيل إلى الفرات وطنك يا اسرائيل » .

فما لم تقم فينا ثورة روحية تربوية تهدف إلى تطهيرنا من شر صحبة الذات وإلى تنمية التعاطف الاجتماعي فيما بيننا وتقويم المفاهيم الخاطئة عندنا عن الفرض من الحياة فان الله لن يكون معنا .

ويالهول ماسيكون ! ولاحاجة بنا إلى أن نقول مع أمير الشعراء مع بعض التعديل :

قفي يا اخت يوشع خبرينا أحاديث السنين القادمينا

لأن مستقبلنا سيولد من حاضرنا .

* * *

أثر الحكام في أخلاق الرعية[1]

دراسة عن أخلاق الانطاكيين في العصر الهلنيستي الروماني

للدكتور جورج حداد

في نحو الثاني والعشرين من شهر أيار عام ٣٠٠ ق م. عند شروق الشمس كما يقول الرواة بدأ بناء مدينة انطاكية بين جبل سلبيوس ونهر العاصي . وقد بناها سلوقس أحد قواد الاسكندر ومؤسس الدولة السلوقية باسم أبيه انطيوخس على الأغلب فأصبحت عاصمة تلك الدولة السلوقية التي شملت في أيام عزها جميع المناطق التي فتحها الاسكندر في آسيا من البحر المتوسط حتى حدود الهند والتي اقتصرت في أواخر أيامها على سورية حتى سماها المؤرخون الدولة السلوقية السورية وعرف ملوكها بملوك سورية . وقدر لمدينة انطاكية أن تبلغ من العز وعظمة الشأن مالم تبلغه في العالم الهلنستي الروماني سوى ثلاث مدن أخرى وهي رومة والاسكندرية والقسطنطينية فيما بعد . ولقد شبهها بعض مؤرخي هذا العصر بمدينة باريس في فخامتها وطراز معيشة سكانها وبمدينة فينا في القرن الماضي لكونها ملتقى حضارات الشرق والغرب . وعرفت عند معظم مؤرخي ذلك العصر باسم « انطاكية العظمى » كما انها عرفت في القرن السادس الميلادي باسم « مدينة الله » ولم يهمل ذكرها أحد من الكتاب والمؤرخين والشعراء والخطباء والوعاظ .

وبعد أن كانت انطاكية عاصمة الدولة السلوقية ومسكن ملوكها أصبحت في زمن الحكم الروماني عاصمة ولاية سورية الرومانية ثم قاعدة الحكم الروماني في الشرق

---

(١) ألقيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء ٢٤/١/٥١

كله وكثيراً ما كان يسكنها أباطرة الرومان في أبان حروبهم مع الفرس . ولكنها بنفس الوقت كانت تتمتع باستقلال داخلي وتحكم من قبل حكام وقضاة ومجلس ينتخبهم مواطنوها . وبجانب انطاكية كانت تقع ضاحية دفنة الجميلة التي يقترن أسمها بالاهة جميلة أسمها دفنة هام بها الآله ابولون ولحق بها كما تروي الاسطورة فتحولت إلى شجرة غار وأتى الملك سلوقس فابتنى هيكلاً لابولون في وسط غابة الغار حتى اشتهرت دفنة بمعبدها بقدر ما اشتهرت بأعيادها وأفراحها . وسكن انطاكية جماعة من المكدونيين واليونان منهم جنود متقاعدون ومنهم مهاجرون من أوربا في عصر كثرت فيه الهجرة إلى البلاد التي حكمها خلفاء الأسكندر . واختلط بهذه العناصر جماعات من السوريين ومن سائر بلاد الشرق الذين تدفقوا على المدينة حتى أصبحت من المدن التي شهدت أعظم امتزاج بين العناصر ، على أن سكانها عرفوا عند كثير من مؤرخي ذلك العصر بالانطاكيين السوريين . وازدهرت المدينة إقتصادياً وازداد عدد سكانها واتسعت مساحتها حتى أصبحت أحياؤها الغربية متصلة بضاحية دفنة وأصبح عدد سكانها أكثر من نصف مليون ويقدرهم البعض بثمانمائة الف نفس فاعتبرت ثالث مدن الامبراطورية الرومانية بعد رومة والاسكندرية . ولعبت انطاكية دوراً هاماً في بدء عهد النصرانية حتى دعيت « كرسي النصرانية » كما اشتهرت كمركز هام من مراكز الثقافة الهلينية الوثنية.

ولا يتسع المجال للكلام عن جميع نواحي عظمة انطاكية في التسعمائة سنة التي امتدت من تأسيسها حتى القرن السادس للميلاد ولا عن المشاكل التاريخية المتعلقة بسكانها وألوان حضارتهم . إنما أردت أن أقدم بهذا القدر لكي أنتقل إلى الكلام عن أخلاق الانطاكيين التي ذكر عنها الكتاب الأقدمون والمعاصرون الشيء الكثير . وقد اخترت أن أتكلم عن هذه الناحية الأخلاقية لقسم من سكان سورية مضى عليهم نحو الفي سنة لأبين كيف يسيء المؤرخون والكتاب أحياناً إلى سمعة شعب من الشعوب ، وكيف ينقل المؤرخون المعاصرون هذه الأقوال على علاتها فيشوهون سمعة سكان انطاكية في ذلك العصر البعيد ، كما أنني أردت من جهة

أخرى أن أبين كيف تتأثر الرعية بأخلاق حكامها مع العلم أن أثر هؤلاء الحكام السلوقيين والرومان في أخلاق رعيتهم لا يجب أن يستنتج منه أن أخلاق الرعية تكون دائماً نتيجة لتأثير أخلاق حكامها لأن مثل هذا الاستنتاج يجب أن تسبقه دراسة شاملة للعلاقة بين اخلاق الحكام وأخلاق رعيتهم في جميع العصور مع درس الأحوال الخاصة التي تؤدي إلى تأثر أخلاق الفريق الواحد بالآخر في كل عصر .

لقد تبارى بعض مؤرخي العصور الحديثة كما تبارى قبلهم بعض كتاب العصر الروماني بوصف سوء أخلاق سكان انطاكية . واليكم بعض ماقاله عنهم (Gibbon) الانكليزي صاحب تاريخ تداعي الامبراطورية الرومانية وسقوطها قال : « إن دفأ الاقليم جعل السكان يميلون إلى التنعم بالهدوء والترف إلى أقصى حد ، وان استهتار اليونان قد امتزج فيهم بنعومة السوريين فلم يكن لهم قانون سوى اتباع الأزياء ولا هدف سوى الملذات ، ولا امتياز سوى فخامة اللباس والأثاث ، وقد أولعوا بانواع التسلية من ألعاب في السيرك وتمثيل في المسارح أيما ولع ، وكانوا لايصبرون على حال ولا يعجبهم سلوك أحد من الملوك » . ويقول أرنست رينان الافرنسي في معرض كلامه عن سكان انطاكية في ذلك العهد أنهم كانوا مجموعة لامثيل لها من الممثلين والسحرة والمشعوذين ، وان المدينة كانت مدينة سباقات وألعاب ورقص ومواكب وأعياد ، ويصف الانطاكيين بأنهم كانوا تارة ذليلين جاحدين وطوراً جبناء وقحين ، ويتكلم عن الشارع الرئيسي في المدينة فيقول إنه مثل مسرح تتدفق فيه طيلة النهار جماعات من السكان طائشة خفيفة متقلبة مشاغبة وأحياناً هازلة مشغولة بالضحك والهزء والسخرية . ويقول مومسن (Mommsen) الألماني إنه لم تكن في العصور القديمة مدينة هدف الناس الرئيسي فيها التلذذ بالحياة بينما واجبات الحياة فيها أمر ثانوي مثل انطاكية . ويقول مؤرخ انكليزي معاصر اسمه « بوشيه » في كتاب تاريخ انطاكية « لقد كان يُسرُّ الانطاكيون بالمشاهد الفخمة الجميلة وبالاروقة المعمدة المزخرفة وبالحمامات والأبنية العامة . ولقد كانوا يتملقون حاكماً كريماً ثم لايلبثون أن يهينوه عند سقوطه . فبقاء الحال على وتيرة

واحده كان يتَعبهم . وكانت الفرصة تسنح لهم أثناء المنازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة وكذلك أثناء محاولات اغتصاب العرش في زمن الرومان فكانوا يستفيدون منها ليثبتوا استقلالهم بمحاولات يائسة أحياناً لقلب الوضع الراهن . فقد كان ينقصهم الجد إنما كانوا قادرين على الحماس لمدة قصيرة ، وكانوا متمردين إنما يمكن قمع تمردهم بسهولة ، وكانوا مترفين ولكن في بعض الأحيان كانوا مستعدين أن يميلوا إلى التصوف الشديد » .

بمثل هذه العبارات ياسادة ، وصف بعض مؤرخي العصر الحديث أخلاق سكان إنطاكية وأكثرهم من سادة المؤرخين والعلماء . ولكن إذا بحثنا عن المصادر التي استقوا منها هذه الاخبار وأوردوا على أساسها هذه الاوصاف نجدانهم أستقوها من مراجع لنا كل الحق أن نشك بصحتها وبتجردها أو على الأقل أن نصفها بالمبالغة والتحيز . وهذه المصادر في كتابات بعض المؤرخين اليونان والرومان الذين كانوا يمثلون وجهة نظر السلالات الحاكمة ضد البلاد المحكومة . كذلك كان من أهم مصادرهم ذلك الكتاب الذي وضعه امبراطور روماني متفلسف اسمه يوليانوس يهجي فيه الانطاكيين لانهم سخروا به لاسباب سنذكرها بعد برهة ، ومن جهة اخرى مواعظ يوحنا المعروف بالذهبي الفم الذي كان كاهناً في مدينة انطاكية وكان يبالغ في وصف نواحي الحياة الاجتماعية ويهاجم ، على عادة الوعاظ ، سلوك الناس إذا ماذهبوا لحضور الالعاب وحفلات التمثيل وغرضه إبعادهم عن المعاصي وعن الوقوع في تجارب هذه الحياة الدنيا كما أنه كان يهدف الى مهاجمة بعض مؤسسات الحياة الاجتماعية التي اعتبرها آباء الكنيسة من بقايا الوثنية إذ أن الصراع كان لايزال عنيفاً في القرن الرابع بين النصرانية وبقايا الوثنية . ومصيبة المؤرخين الحديثين الذين ذكرنا أقوالهم أنهم اعتمدوا على ما جاء في هذه المواعظ وفي هجاء الامبراطور يوليانوس الناقم على انطاكية وانهم صدقوا ما جاء في كتابات بعض المؤرخين والكتاب عن أخلاق الانطاكيين وعموم سكان هذه البلاد بمناسبة حوادث معينة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء درس الاسباب التي جعلت

الكتاب القدماء يذكرون ما ذكروا أو العوامل التي جعلت سكان إنطاكية يتصرفون كما تصرفوا . وهنالك أمور تحمل الانطاكيون تبعتها ولكنها كانت من عمل حكامهم وولاة أمرهم فخلط مؤرخونا الحديثون في صورة واحدة أعمال الانطاكيين مع أعمال رجال السلطة الحاكمة .

والنواحي الاخلاقية التى هوجم الانطاكيون من أجلها هي من جهة التقلب والشغب والطيش والميل الى التهكم ، ومن جهة أخرى الترف والاستهتار وطلب الملذات . ولا أدري إذا كان الوقت يسمح باستعراض كل من هذه النواحي وبيان الأسباب التي دعت إلى إتهام الانطاكيين بها حتى نتفهم وضعهم وتصرفاتهم بصورة أقرب إلى الانصاف والحقيقة . ولنبدأ بما نسب إلى الانطاكيين من تقلب وتآمر وميل الى التمرد والشغب . فقد حصلت سلسلة من الانقلابات بين أفراد الاسرة السلوقية الحاكمة منذ منتصف القرن الثاني ق. م . رافقتها مؤامرات في البلاط وحوادث اغتيال متعددة . وتقلب ستة ملوك على العرش في أقل من ثلاثين سنة وكان البطالمة في مصر يتدخلون فيؤيدون ملكاً سلوقياً ضد آخر كما أن الطامعين بالعرش أنفسهم كانوا يستعينون بالجيوش المرتزقة وعندما يصلون الى الحكم يطلقون لهذه الجيوش العنان كما فعل ديمتريوس الثاني الذي استعان بجنود من جزيرة كريت وسام سكان انطاكية أنواع العذاب بشهادة المؤرخ ديودورس الصقلي حتى ثاروا فقمع ثورتهم بالقتل والنفي والتشريد ولم يتردد بالاستعانة بثلاثة آلاف جندي من اليهود استقدمهم من فلسطين ولذلك نقم عليه جنوده القدماء الذين ساءهم الاعتماد على المرتزقة فعملوا على قلب حكمه وولوا أحد القواد مكانه ثم لم يلبثوا أن نقموا عليه لأنه بدل سياسته المعتدلة معهم وأتوا بأخي الملك السابق وولوه العرش . ويصعب بالنظر لهذه الأمور أن نوافق على ما قاله بعض المؤرخين من ان الانطاكيين كانوا سبب هذه الانقلابات بل نميل إلى إعتبارهم ضحايا حوادث الاضطراب وليسوا مثيريها . على أنه لابد من الاعتراف بان الانطاكيين قد أفسدتهم النعم التي كان يغدقها عليهم بعض الحكام إذ أن الملوك أثناء محاولاتهم لاغتصاب العرش بعضهم من

بعض كانوا يحاولون إكتساب رضى الشعب كما يشهد ديودورس ويتسابقون إلى ذلك فاذا أصبح الشعب الانطاكي معتاداً على تغير الملوك فالخطأ ليس خطأهم وإنما المسؤولية تقع على الملوك الطامحين الذين أفسدوه بتناحرهم على خطب وده كما أنهم أفسدوا أخلاقه بالمكائد والفضائح المختلفة التي شهدها البيت السلوقي في أواخر أيامه .

وينتهي الحكم السلوقي قبيل منتصف القرن الأول ق. م. ويبدأ الحكم الروماني بعد أن عمت الفوضى في أواخر العهد السلوقي . على إن الحكم الروماني لم يأت بالسلم والطمأنينة لانطاكية أثناء فترة الحروب الأهلية بين الرومان أنفسهم ، فقد حصلت الحروب بين قيصر وبومبيوس ، ثم بين جماعة قيصر وقتلته ، ثم بين أفراد حزب قيصر أنفسهم انطونيو واوكتافيوس ، وفي جميع هذه الحروب كان سكان المدن يتحملون أنواع العذاب من دفع ضرائب باهظة وإيواء الجنود . والحروب كانت غريبة عنهم وليس لهم فيها مصلحة لانها كانت بين شخصيات رومانية لاطماع شخصية وهذا ما دعاهم أن لا يميلوا الى فريق دون آخر ، فاذا قبلوا بحكم الفريق الواحد ثم الآخر حسب ظروف الحرب فذلك ليس بدليل على تقلبهم . زد على ذلك بأن حدودهم لم تكن محمية من جهة الشرق وقد نجح الفرتيون باحتلال انطاكية عام ٤١ ق.م. بينما كان انطونيو هائماً بحب كليوباطرة وكان يبيع وظائف الحكم في المدن للحصول على المال . وكان زعماء الاحزاب من الرومان يستعينون بعدوهم المشترك في الشرق ليتخلصوا من منافسيهم وهذا مافعله رجل اسمه لابينوس (Labienus) وهو من خصوم انطونيو إذ دعا الفرتيين أعداء الرومان ليحتل سورية بمساعدتهم . فكيف يمكن ان نلوم السوريين بما فيهم الانطاكيين في هذه الأحوال وننسب إليهم التقلب إذا هم أيدوا الفريق الواحد من الرومان ثم الفريق الآخر والفريقان أجنبيان عنهم وليس لهم إختيار في هذا ولا في ذاك . فلقد كان سكان مدن اليونان يفعلون أكثر من ذلك إذ كانوا يمنحون الألقاب بدون حساب لمن يتفق أن يكون حاكمهم وذلك تملقاً ورياءً وقد بلغ من سكان مدينة أثينا أنهم أعطوا آلهتهم أثينا خطيبة لانطونيو . والانطاكيون لم يذهبوا إلى هذا الحد . وعلى

ضوء ذلك يمكن أن نتبين مبالغة أرنست رينان في كلامه عن تذلل الانطاكيين .
أما مساهمة الانطاكيين في حوادث إغتصاب العرش من قبل الطامعين في زمن الامبراطورية الرومانية ، ووصفهم بالتقلب والميل إلى تغيير الحكم القائم في كل فرصة سانحة فهذا ناتج عن حادثين رئيسيين أولهما أن حاكم المناطق الشرقية العام واسمه أفيديوس كاشيوس (Cassius) نادى بنفسه أمبراطوراً في عام ١٧٥ م على أثر حملة موفقة ضد الفرتيين وكان الامبراطور ماركوس اوريليوس يحكم في رومة . ويحدثنا مؤرخو الرومان أن زوجة الامبراطور اوريليوس نفسها هي التي شجعت الحاكم على عمله لأن زوجها كان مريضاً وابنها كان معتوهاً . ويظهر أن سكان أنطاكية وكذلك سكان ولايات كثيرة اعترفوا به ثم لم يلبث أن غلب على أمره . على ان ذلك لايجب أن يدعونا إلى القول بأن الانطاكيين حاولوا قلب الوضع القائم لأنهم كانوا تحت حكم هذا الطامع إلى العرش وليس لهم الخيار ، ومن جهة أخرى فقد اعترفت به جميع الولايات الشرقية التي يحكمها حتى حدود مصر . ثم بعد عشرين سنة يقوم حاكم آخر من حكام سورية واسمه نيجر (Niger) وتنادي به الفرق الرومانية التي تحت قيادته أمبراطوراً . وفي نفس الوقت يقوم له منافس اسمه سبتيميوس سفيروس ويقود جيوشه من منطقة أخرى بعد أن نادت به أمبراطوراً ويتجه إلى سورية لمحاربة نيجر . كل هذا بينما هنالك أمبراطور ثالث في رومة تسلم الحكم بعد أن تآمر على قتل سلفه وكان مكروهاً من الشعب الروماني الذي ثار عليه وحبذ تولية نيجر الذي أصبح أمبراطوراً في سورية . ويشهد المؤرخون المعاصرون بوضوح أن نيجر لم يفكر باستلام الحكم في سورية إلا عندما بلغه أن الرومان في رومة نفسها يرغبون فيه ويكرهون أمبراطورهم . فما هو ذنب الأنطاكيين في هذه المحاولة؟ لقد ذكر بعض المؤرخين أن نيجر خطب في الفرق التي تحت قيادته وفي قسم من الشعب الأنطاكي وعلى اثر الخطاب حيوه كأمبراطور ، ثم إن الانطاكيين ساعدوه بالمؤن وإن كثيرين منهم انتظموا في جيشه . ويظهر أن مؤرخاً معاصراً للحادث اسمه هيروديان كان يميل إلى سفيروس الذي كسب العرش من منافسيه فتراه في

هذه المناسبة يهاجم السوريين الذين ساعدوا نيجر ويقول «إن السوريين طائشون بطبيعتهم وميالون إلى تغيير الأوضاع الراهنة»، ثم يذكر هذا المؤرخ خطاباً ألقاه سفيروس على جنوده عندما كان يتجه إلى سورية وكان يقصد تشجيعهم غالباً إذ قال «إن السوريين لا هم لهم سوى الهزء بالآخرين ونظم أشعار الهجاء، وخاصة الذين يعيشون في أنطاكية». هذا بينما مؤرخ آخر اسمه كاشيوس ديو (Cassius Dio) معاصر للحادث ومعروف بدقته لا يذكر شيئاً عن الانطاكيين ولا عن هذه التفاصيل التي أتى بها هيروديان. والذي يتضح في هذا الحادث أن كلاً من المتنافسين الثلاثة قد أصبح أمبراطوراً بمساعدة جنوده، وأن نيجر في سورية قد نادى به الرومان أمبراطوراً ورغبوا فيه بقدر ما رغب فيه السوريون، وأن الجنود والشعب في أنطاكية لم ينادوا به أمبراطوراً وهو نفسه لم يفكر باستلام العرش إلا عندما أتت الأنباء من رومة نفسها بتأييده. فكيف يجب أن نسمي الانطاكيين متقلبين لا يؤمن جانبهم طالما انهم اشتركوا في حركة عامة بدأت من رومة لتنصيب حاكمهم على عرش الامبراطورية؟ وإذا اعتبرناهم متقلبين خائنين فمن كانوا يخونون؟ أكانوا يخونون المغتصب في رومة الذي شتمه شعب رومة نفسها ولم يعترف به الا بعض جنود الحرس الذين تآمروا معه وقتلوا أمبراطورهم السابق؟ ام كانوا يخونون سفيروس الذي كان طامعاً في العرش مثله ومثل نيجر؟ على هذا الضوء ياسادة يمكن أن نتبين بان المؤرخين الحديثين وبينهم «بوشييه» مؤرخ انطاكية لم يستعملوا التعابير المناسبة عندما يتكلموا عن التقلب الذي أظهره سكان أنطاكية ولم يرووا الحقيقة كاملة عندما ادعوا انه بالرغم من فشل الانطاكيين في تنصيب افيديوس كاشيوس أمبراطوراً فقد قاموا بمحاولة ثانية ليفرضوا مرشحاً من عندهم على الأمبراطورية.

أما ملاحظات المؤرخ هيروديان وكلمات سفيروس نفسه عن خفة السوريين وميلهم إلى الهزء والسخرية فانه يجب النظر اليها كمحاولات للحط من قدر سكان الولايات كلما عملوا شيئاً يعتبره اصحاب الشأن ضد مصلحتهم. وقد أتى بمثل هذه الملاحظات

مؤرخون واشخاص رسميون آخرون يمثلون وجهة النظر الرومانية . فالمؤرخ فوبيسكوس (Vopiscus) يعلق على أخلاق السوريين بشيء من هذا القبيل عندما يقتل التدمريون الحاكم الروماني والحامية التي تركها الامبراطور اورليانوس بعد انتصاره على زنوبيا إذ يقول « من الأمور النادرة بل الصعبة أن يؤتمن السوريون». وما هو موضع الأمانة هنا حسب المنطق الروماني ؟ حاكم روماني وستمائة جندي يريدون التسلط على دولة تدمر التي هزت الامبراطورية الرومانية بأسرها في عهد زنوبيا ! ومن هذا القبيل ما ذكره نفس المؤرخ عن قنصل روماني وقف في مجلس الشيوخ في رومة وقال « لقد بلغ من طيش السوريين وخفتهم انهم يرضون بحكم امرأة ـ يعني زنوبيا ـ بدلاً من أن يخضعوا لحكمنا العادل » ! هذا أيضاً منطق روماني وهو منطق جميع السلطات الأجنبية الحاكمة فاذا أراد السوريون أن لا يوصفوا بالطيش والخفة من قبل مؤرخي الرومان ومؤرخي أوربا المعاصرين الذين نقلوا عنهم ، فما كان عليهم بموجب هذا المنطق إلا أن يخضعوا للحكم الروماني بدون قيد ولا شرط وبدون تمرد ولا ثورة !

أما بشأن ميل الانطاكيين إلى التهكم والاستهزاء حتى بحكامهم فقد ذكرنا ما قاله بعض المؤرخين القدماء والمعاصرين بهذا المعنى . على أن الذي أفاض في وضعهم من هذه الناحية هو الامبراطور يوليانوس الذي ضايقه الانطاكيون حتى قال : انهم شعب يحب الضحك وليس عندهم احترام للذين يحكمونهم فهم يهينون امبراطورهم وحتى الشعر الذي على ذقنه والرموز التي على نقوده .

والواقع أن سكان انطاكية سخروا بملوكهم في بعض المناسبات وأحياناً كانوا يسمونهم بغير اسمائهم ويطلقون عليهم الألقاب على اننا لسنا متأكدين من ان هذه الألقاب أعطت عن لؤم أو تعمد إهانة الملوك ، ومع ذلك فان لها مايبررها في سلوك الذين أطلقت عليهم وفي أوضاعهم . ويجب أن لا ننس أن السوريين واليونان قد عرفوا بخفة الروح وسرعة الملاحظة وحضور النكتة كما شهد بعض الكتاب والفلاسفة في العصر الروماني وكانوا يلاحظون سلوك حكامهم وبسرعة

يعلقون عليه ويكونون رأيهم فيه ففي العصر الروماني يخبرنا أحد المؤرخين (كابيتولينوس Capitolinus) ان (لوشيوس فيروس) الذي كان يحكم في رومه بجانب ماركوس اوريليوس ثم ارسل إلى الشرق لمحاربة الفرتيين في عام ١٦٤ م كان موضع هزء السوريين عامة نظراً لانغماسه في الملذات وفي انواع اللهو في انطاكية بينما كان قواده يحاربون العدو ويقتلون . وقد نقده السكان وهجوه حتى على المسارح . والواقع يثبت ان نقدهم له لم يكن عن تغرض أو لؤم ، فقد ندب ماركوس اوريليوس حظ الامبراطورية بسبب انحلال هذا الحاكم العام ، وكان معلمه الكاتب الروماني فرونتو يكتب له من رومه وينصحه بان يعتدل ويحد من شهواته ولكن هذا المعلم بنفس الوقت كان يتملقه ويقارنه بالامبراطور تراجان في نشاطه وقدرته الحربية بينما نعلم انه لم يزر ساحات القتال ولا وصل إلى الفرات الا مرة واحدة وذلك بناء على اصرار أركان حربه . وفي هذه الحال يحق لنا ان نصدق هجاء السوريين اكثر من تملق فرونتو .

اما بشأن قضية الامبراطور يوليانوس وسكان انطاكية فمن الضروري معرفة ظروف هذه القضية نظراً للصدى السيء الذي اوجده كتاب يوليانوس عن الانطاكيين . فقد اتى هذا الامبراطور الى انطاكية في ٣٦٢ م واقام فيها بضعة شهور يتأهب لمحاربة الفرس . ويحدثنا المؤرخون انه عندما اقترب من المدينة استقبله سكانها بالاحتفالات والصلوات . غير انهم لم يلبثوا بعد ذلك ان سخروا به وبمظهره الخارجي وبتصرفاته واطلقوا عليه الالقاب المضحكة . وبدلاً من ان يعاقب الانطاكيين على تصرفهم فانه هجاهم بكتاب سماه « عدو اللحى » ويقصد بذلك سكان انطاكية نظراً لاستهزاء الناس بلحيته . ومن هذا الكتاب استقى مؤرخونا المعاصرون كثيراً من معلوماتهم عن اخلاق سكان انطاكية . وبالواقع فان الامبراطور يهجي نفسه في هذا الكتاب كما انه يوبخ سكان المدينة اذ يصف كيف اهانوه وسخروا به وباظافره وشعره المسترسل ، وباصابعه السوداء من الحبر . ويذكر يوليانوس في كتابه انه تحمل استياء السكان ونقمتهم بسبب لحيته وشعره

غير الممشط وعدم ذهابه الى المسارح ، وبسبب حضوره في المحاكم ، ومحاولة ابعاد الطمع عن الاسواق بتخفيض الاسعار ، على اننا نعلم ان اسباب نقمة الانطاكيين كانت اكثر من ذلك . ولابد لفهم هذا الكره المتبادل بين الانطاكيين وامبراطورهم الروماني من ان نذكر بان يوليانوس قد ارتد الى الوثنية بعد ان اعتنق اباطرة الرومان النصرانية منذ عهد قسطنطين ، وانه في الوقت الذي كانت فيه اكثرية سكان انطاكية في ذلك العهد من النصارى فان يوليانوس ما كان ينفك عن زيارة المعابد الوثنية وتقديم الضحايا كما انه كان يضحي مائة ثور دفعة واحدة في بعض الأحيان. ويشهد « اميانوس مرسلينوس » المؤرخ الذي عاصره — وكان من عائلة وثنية محترمة في انطاكية — ان الجنود كانوا يلتهمون لحوم الحيوانات المضحاة ويشربون ويسكرون في المعابد حيث كانوا يقيمون المآدب الصاخبة التي تستحق العقاب بدلاً من التساهل ثم يحملون على اكتاف المارة الى منازلهم وثكناتهم . وعندما كان يوليانوس يحضر المحاكمات للاطلاع على سير العدل كان كثيراً ما يستجوب المتقاضين عن دينهم بدون موجب كما شهد اميانوس نفسه . وعندما احترق معبد ابولون في دفنة فيما بعد اتهم النصارى باحراقه .

وسبب آخر لنقمة الانطاكيين هو انه امر بتحديد اسعار الحاجيات وخفضها الى درجة اضطرت الباعة ان يغادروا المدينة بحيث عجز الناس عن شراء مايلزمهم ولاموا الامبراطور على ذلك . ويقول في هذا مؤرخ معاصر اسمه سقراط ان يوليانوس لم يأخذ بعين الاعتبار حين خفض الاسعار وجود الجيش في انطاكية وما ينتج عنه من ازدياد في الطلب وقلة في المواد. ويؤكد اميانوس ان هذا التدبير لم يكن ضرورياً وانه صدر عن رغبة الامبراطور في الدعاية لنفسه فكان التأثير عكس ما انتظر . ويضيف هذا المؤرخ بان الحملة على يوليانوس كانت في محلها وان حملة يوليانوس على الانطاكيين في كتابه « عدو اللحى » كتبت بروح الانتقام واحتوت اكثر مما يبرره الواقع .

هذه بعض الحالات الذي اظهر فيها الانطاكيون روحهم الانتقادية التهكمية واعتبرت من البراهين على سوء سلوكهم وانحطاط اخلاقهم وقد كانت لها اسباب تبررها فضلاً عن ان الانطاكيين تناولوا فيها حكاماً غرباء عنهم . واذا قارنا بين ما فعلوه وبين ما فعله سكان رومة بدون، بربرباباطرتهم فاننا نرى ان الانطاكيين كانوا معتدلين بالنسبة لغيرهم . فقد اخبرنا سويتونيوس احد مؤرخي الرومان انه لما مات فسباسيان — وكان هذا الامبراطور من افضل اباطرة الرومان ولم يكن له عيب سوى البخل — قام احد كبار الممثلين على المسرح في رومه يقلد اعمال الامبراطور الراحل وكلماته فسأل القائمين على شؤون الدفن كم تكون كلفة موكب جنازته فلما اجابوه عشرة ملايين اجاب اعطوني مائة الف فقط واتركوني بدون دفن واطرحوني في نهر التيبر . لهذه الدرجة بلغ هزء الرومان بامبراطور يعتبر من اعظم اباطرتهم.

على ان الانطاكيين لم يكتفوا دائماً بالتعبير عن نقمتهم بالنقد والتهكم والهزل ، ففي بعض الاحيان كانوا يتمردون ويثورون . وقد ذكرنا ثورتهم ضد ديمتريوس الثاني في العصر السلوقي وكيف قمعت بالحديد والنار ، ففي تلك الثورة كما في غيرها يجب ان نلتمس الاسباب في فساد الادارة وضغط الحكام والملوك . وكان الحكام احياناً يتبعون ما تمليه مصلحتهم وانانيتهم ويشجعون وقوع الاضطراب بدلاً من ان يتجنبوه . وضغط الحكام وتصرفاتهم كان يشجعها ان مدة حكمهم كانت قصيرة من جهة وانهم كانوا يعتمدون على رضى الامبراطور عنهم اكثر من اعتمادهم على سكان الولايات وقد كانوا جشعين لاهم لهم سوى الحصول على الثروة في اقصر مدة ممكنة مثل الحاكم المسمى فاروس (Varus)قبيل زمن الميلاد حيث قال فيه احد مؤرخي الرومان واسمه باتركولوس (Paterculus) : « لقد كانت سورية غنية عندما وصلها فقيراً واصبحت فقيرة عندما غادرها غنياً ». وحكيم انطاكية « ليبانيوس » كان مطلعاً على ما اوجده حكام زمانه من فساد لانهم لم يكتفوا بعقد الاتفاقات مع صنائعهم لكي يغتنوا ويثروا ، بل كانوا يفسدون الناس ويشترون

خدماتهم لاجل منازعاتهم الخاصة . وهـذا ما فعله مثلا حاكم سورية واسمـه لوكيانوس في القرن الرابع اذ استأجر بعض الناس في انطاكية ليهتفوا له وليشتموا تاتيانوس الذي حاول ان ينتزع الحكم منه . وقد يلجأ اتباع الحاكم المنقول الى احداث الشغب فيعطون الاموال لزعماء العامـة ولسائر المأجورين حتى يحدثوا فتنة لاقل الاسباب وغرضهم في ذلك ان يخلقوا المشاكل للحاكم الجديد . وكان للحاكم طريقة في اكتساب الشهرة والشعبية وهي ان يرشوا زعماء الرعاع والممثلين ليهتفوا لهم في المسارح واماكن اللهو حيث يحتشد الناس . وهكذا نلاحظ ان كثيراً من الاضطرابات التي كان يحدثها الانطاكيون كانت بالحقيقة من عمل حكامهم وصنائعهم . وكانت النتيجة ان الرعاع الذين كانوا يستأجرون لتنفيذ رغباتهم فقدوا احترامهم للحكام واصبحوا عنصراً من عناصر الشغب . وصار الوسطاء والمستثمرون يضايقون الحكام بما يقدمونه من عرائض ومطالب ويهددونهم بفضح امورهم اذا هم رفضوا الموافقة على ما يطلبون .

وكان من أسباب الاضطرابات الاجتماعية في انطـاكية مشكلة القمح وسائر المواد الغذائية وخطر المجاعة الذي كان يتهدد السكان بسبب سوء تصرف حكامهم . والمؤسف في هـذه القضية ان الحكام كانوا يغتنمون فرصة نقمة الشعب ليكيدوا بعضهم لبعض . من ذلك أنه كان في انطـاكية في منتصف القرن الرابع حاكم عام للشرق اسمه غالوس وحاكم لسورية اسمه تيوفيلوس . فلما أتى الشعب إلى الحاكم العام يطلبون منه انقاذهم من المجاعة أجابهم انه لا يمكن أن يجوع إنسان إلا إذا رغب حاكمه في ذلك وكان يقصد تيوفيلوس حاكم سورية . فما كان من عامة الشعب إلا أن هاجموا تيوفيلوس بدافع الجوع والنقمة ومزقوا جسده والحاكم العـام يتفرج . واذا كانت رواية اميانوس صادقة فان في هذا الحادث مثلاً لحركة تمرد حصلت بتشجيع حاكم أعلى ضد حاكم أدنى .

ويتساءل الانسان تجاه هذه الحوادث إذا كان المؤرخون المعـاصرون الذين كتبوا عن وقاحة الانطاكيين وميلهم إلى الشغب والتمرد قد أخذوا هذه الامور

بعين الاعتبار وقدروا درجة مسؤوليتهم ودرجة مسؤولية أصحاب الشأن فيهم أم أنهم خلطوا الحكام وأفراد الرعية في صورة واحدة ونسبوا إلى الرعية أموراً كان يجب أن تنسب إلى السلطات الحاكمة .

وقد وصف لنا ليبانيوس زيادة على ذلك ظلم القضاء وشدة التعذيب وسوء حالة السجون ، كما وصف اميانوس سوء أخلاق القضاة وجهل المحامين الذين كان همهم زرع الحقد واستثمار المتقاضين . ويجب أن لا ننسى أثر الجنود والضباط المقيمين حول انطاكية وما كانوا عليه من غطرسة وعدم تقيد بالقانون . فقد وصف يوحنا فم الذهب في القرن الرابع كيف كانوا يرتكبون المعاصي في كل يوم إذ يقول انهم كانوا يهينون الناس ويحقرونهم « ولا تخلو تصرفاتهم من الآثام إلا إذا أمكن أن يخلو البحر من الأمواج » . وكما كان الجنود الرومان ينهبون المواشي والرقيق من المزارع ويستبدلونها عند الباعة بأنفس الخمور فان الجنود الذين أقاموا حول انطاكية كانوا يسرقون ويروعون أصحاب الحوانيت ويقيمون الولائم على حساب باعة الخمور . وكان ضباطهم يساعدون الفلاحين ومستأجري الأراضي ضد محاولات جمع الضرائب لقاء أجر يتقاضونه ، كما انهم كانوا يستعملون نفوذهم لدى كبار القضاة لكي لا يتمكن الملاكون من تناول أجور أراضيهم .

أما ما ذكره بعض الكتاب عن حب الانطاكيين للولائم وميلهم إلى الترف فقد وردت بشأنه بعض إشارات في ما تركه لنا كتاب ذلك العهد فقد وصف لنا « بوليبيوس » مأدبة كبرى أقامها انطيوخس الرابع ابيفانس في القرن الثاني ق.م . ووصف غيره مآدب أقامها سائر ملوك السلوقيين .

وروى لنا يوحنا فم الذهب تفاصيل عن ترف بعض بيوت انطاكية حيث ذكر الطهاة وصانعي المرق والطيور المحشوة بالسمك والقوانين عن ترتيب ألوان الطعام، كما أنه أفاض في ذكر الخدم والطفيليين والمتملقين في الحفلات ، وأشار إلى الاثاث النفيس والرخام والأعمدة المغشاة بالذهب في القصور ، وتكلم عن النساء فأشار إلى الحلي والعطور والمساحيق « وإلى الشفاه المصبوغة بالاحمر والحواجب المخططة

بالسواد مثل آنية الطبخ والحدود المطلية بالأبيض مثل جدران القبور » .

ولكن يوحنا فم الذهب يا سادة كاهن مهمته أن يحبب الناس بحياة البساطة وأن يضخم مظاهر الترف لكي يبتعد الناس عن مساوئها كما فعل عندما ضخم شرور الذهاب إلى دور التمثيل وحفلات السباق . ثم أن هذه المظاهر لا تنطبق إلا على الطبقة الغنية التي ذكر أنها لا تزيد عن عشر سكان المدينة وليس فيها شيء مستغرب في مدينة عظيمة مزدهرة تحوي جماعة من كبار الموظفين والتجار . ثم أن معظم الولائم الكبرى كان يقيمها ملوك السلوقيين وحكام الرومان ويدعون الناس إلى الاشتراك فيها دعاية لأنفسهم ، وأنطاكية لم تنفرد بمثل هذه الولائم التي عرفت في جميع المدن الكبرى في ذلك العهد كالاسكندرية وأثينا وروما . كما يتضح من كتاب وضعه رجل معاصر اسمه « اثيناوس » عن الولائم وسائر نواحي حياة المجتمع في ذلك العصر .

هذا ولا يتسع الوقت لشرح سائر مظاهر سلوك الانطاكيين وأخلاقهم وخاصة ما قيل عن ميلهم إلى الملذات وارتياد أماكن اللهو . غير أنه يتضح في هذه الامور كما في الامور الاخرى أن الانطاكيين كانوا يقتدون بحكامهم من جهة ، ومن جهة أخرى كان هؤلاء الحكام يتنافسون في تسهيل ارتياد الناس لهذه الأماكن إذ أن الاهتمام بأماكن اللهو كان في أنطاكية كما كان في روما العاصمة دعامة من دعائم سياسة الحكومة لارضاء الشعب .

وفي هذه الناحية كما في سائر النواحي نلاحظ أحكاماً جائرة يستنتجها مؤرخو العصر الحديث من حوادث رواها مؤرخو ذلك العصر بدون أن يعلقوا عليها ويستنتجوا منها ما استنتجه مؤرخو عصرنا الحاضر . مثال ذلك ما رواه اميانوس أنه عندما هاجم الفرس مدينة أنطاكية في عام ٢٦٠ م كان الانطاكيون يشهدون حفلة تمثيلية في مسرح المدينة . هذه العبارة التي ليس فيها دس على الانطاكيين علق عليها مؤرخ الألمان مومسن فقال « إن شغف الانطاكيين بالملذات وميلهم إلى اللهو يظهر في الحادث التالي وهو أنه عندما فتح الفرس انطاكية في عام ٢٦٠ م فوجىء

الانطاكيون وهم في المسرح » . فالفرس يا سادة كانوا خطراً يهـدد حدود الدولة الرومانية من جهة الشرق بصورة دائمة فاذا ذهب الانطاكيون إلى المسرح وهاجم الفرس مدينتهم أثناء وجودهم هناك — والمفروض أن تكون هناك حكومة تسهر على الدفاع عن مدينتهم — فهل نستنتج من ذلك أن الانطاكيين يتهالكون على الملذات وعلى حضور حفلات التمثيل أم أن الادارة الرومانية كانت في حالة انحلال وضعف فلم يبلغها نبأ زحف الفرس على انطاكية إلا عندما أصبحوا على ابوابهـا حيث اتفق أن الناس كانوا يشاهدون رواية تمثيلية . ومع ذلك فأقوال المؤرخين القدماء تشهد أن الانطاكيين كانوا يدافعون عن مدينتهم في مثل هـذه الاحوال دفاع المستميت وينازلون الفرس في شوارع المدينة وساحاتها العـامة بينما جنود الرومان يتهافتون على مغادرة المدينة وتزدحم خيولهم قرب أبوابها فتدهس السكان المدنيين وهي تلوذ بالفرار .

هذه يا سادة خلاصة بعض الدراسات عن أخلاق الانطاكيين في ذلك العصر الهلنستي الروماني وعن العوامل التي تفسرهـا وتشرحها . وقد قصدت أن أعطي نموذجا محسوساً مأخوذاً من حياة سكان إحدى المنـاطق السورية يظهر ما يصيب بعض الشعوب من سمعة سيئة يلصقها بهم التاريخ بسبب مبالغة المؤرخين والكتاب وقلة تدقيقهم والاسراف في تأويلهم ومن جهة أخرى أردت أن أبين كيف ساعد أصحاب الشأن أحياناً في التأثير على أخلاق رعيتهم وفي الاساءة إلى سمعتها مع العلم أن هذا المثل الذي أوردته لا ينطبق على حكام البلاد في جميع العصور لأن إثبـات ذلك يحتاج إلى دراسة أوسع وأتم تتناول مختلف الشعوب في مختلف عصور التاريخ .

ثورة في الاعمال الجغرافية والمساحة [1]

المساحة التصويرية المجسمة

La photogrammétrie

للدكتور حبيب صوايا

ان الغاية من المساحة بصورة عامة هي وضع رسم على ورقة وبمقياس معين عن قطعة أرض بطريقة يكون لدينا على هذه الورقة جميع تفاصيل بقعة الارض ومقاييس ابعادها وارتفاع أي نقطة كانت منها — وللحصول على هذا كنا ولم نزل ولم يزل الكثيرون ايضاً نستعين في الاعمال الطوبوغرافية — فنقيس بواسطة جهاز من مركز معين المسافة بين هذا المركز ونقط الارض وتفاصيلها ثم ارتفاع هذه النقط بالنسبه لارتفاع هذا الجهاز في المركز المعين . ثم الزوايا بين هذه المسافات واتجاه معين . وكثيراً ما كان عدد كبير من النقط لم يظهر لنا من المركز الاول فكنا ننتقل الى مركز ثان وثالث ورابع... وعاشر الخ فنربطها مع المركز الاول اتجاهاً ومسافة وارتفاعاً ونتابع نفس الاعمال . وفي كل مركز كان يجب علينا أن نركز الجهاز الطوبوغرافي ونجعله أفقياً ونجعل الفقاعة بين حديها ونقيس ارتفاعه عن الارض ونجري القراءة على ميرا (شاخص) كان يحملها شخص آخر ويضعها على نقطة واحدة من الارض وكثيراً لم تكن هذه الميرا شاقولية أو تكون موضوعة على حجرة اوفي وكر — هذا اذا كان الطقس مناسباً لهذه الاعمال واذا كان بامكاننا الوصول الى جميع نقط الارض واذا كنا لم نرتكب اخطاء — او أغلاطاً — فبعد اجراء جميع

---

(١) القيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ٢١/٢/٥١ .

هذه القياسات والحسابات الدقيقة يحصل شخصان في نهار واحد على رسم شكل بقعة أرض لا تزيد مساحتها عن هكتار أو هكتارين اذا كانت الارض مبسطة وذات تفاصيل قليلة واللذان قد اجريا هذه الاعمال هما فقط يعرفان الصعوبات في مثل هذا العمل ولذلك فقد أحدث علم لم يطبق الا في المدة الاخيرة عام (١٩٣٢) ثورة في الاعمال الجغرافية وفي المساحة ، وهذا العلم هو علم المساحة التصويرية المجسمة ويعبر عنه بالفوتوغراميتري —

وسنقتصر في هذه الفترة على بحث مايلي :

١ — غاية هذا العلم وتاريخه .

٢ — نظريته .

٣ — الاعمال التدريجية في تطبيقه، كالاعمال التحضيرية على الارض ، الاعمال التصويرية ، التوجيه النسبي ، الاظهار والرسم .

٤ — دقته في التوجيه النسبي ، في قياس المسطحات ، في قياس الارتفاعات ، في التوقيع او اندماج الصور .

٥ — انتاجه في الاعمال التحضيرية ، في الاظهار والرسم .

٦ — تطبيقاته في أعمال الكدسترو وتجميل المدن .

٧ — تطبيقاته في بقية العلوم .

٨ — احتياجات سوريا اليه .

١ — غاية الفوتوغراميتري ولمحة تاريخية عنها :

ان التطبيق المباشر والرئيسي للفوتوغراميتري هو وضع الخرائط والمصورات ولكنها لاتقتصر على ذلك بل أن غايتها هي اعطاء شكل أي جسم كان ، انساناً أو حيواناً او مادة ، واعطاء ابعاده ودراسة حركاته ولذلك فانها تطبق في علوم كثيرة نراها فيما بعد — وعلى هذه العلوم تطبق الفوتوغراميتري الارضية وعلى المساحة ووضع الخرائط تطبق الفوتوغراميتري الجوية .

التصوير الارضي

أول من فكر في الاستفادة من الصور الفوتوغرافية لعمل المصورات الطوبوغرافية هو مهندس في الجيش الفرنسي لوسدا ولم يكن يومئذ يأخذ صورتين مزدوجتين بل صورة واحدة ، ثم تبعه تلميذه جافاري الذي صور بهذا الجهاز ٧٢٠٠ هيكتاراً ما بين عام ١٨٦٣ وعام ١٨٧١ .

وتبعهما ميدنبور في المانيا في عام ١٨٦٦ ، ثم هنري وجوزيف فالو في ١٨٩٢ اللذان أنجزا خريطة الجبل الابيض بواسطة جهاز لوسدا .

ثم شاعت هذه الطريقة في المانيا وايطاليا وكندا وادخل عليها بعض التعديلات . غير أن الاكتفاء ، بصورة واحدة للارض كان يجعل الشكل الظاهري للاشياء مختلفا عن الحقيقة بحيث لا يمكن معه معرفة النقاط الهامة وخاصة اذا أريد الحصول على منحنيات التسوية .

في ذلك الحين اخترع الافرنسي دوفيل طريقة للاظهار تستند على فحص زوج من الصور في آن واحد ولهذه الطريقة فائدتان أساسيتان .

اولا — لقد أصبح بالامكان تقدير أشكال الارض من الوجهة الكيفية وقياس السطوح التي ليس لها تفاصيل .

ثانياً — فيما يتعلق بالقياسات فقد أصبح من الممكن الاستفادة من النتوء الظاهري (le relief) الذي يريك الصورة نافرة مجسمة كما تتمثل في العين المجردة واجراء قياسين بدلاً من واحد — فكان هذا مبعثاً لعلم الفوتوغراميتري .

التصوير الجوي

بدأ التصوير الجوي الى جانب التصوير الارضي بفضل الطيار الافرنسي (نادار) في عام ١٨٥٨ وكان يأخذ صورة واحدة ثم تبعه المهندس المائي الافرنسي روسيل وغيره ولكن كما قد اشرنا سابقاً ان الاكتفاء بصورة واحدة لم يكن ليحل المسألة من جميع نواحيها . ولذلك فان الباحثين في فرنسا وايطاليا والمانيا بدأوا في عام ١٩٢٠

بالسعي في صنع أجهزة تحل المسألة من الناحية العامة. وقضية الاظهار والرسم بواسطة زوج من الصور الجوية المأخوذة في شروط مجهولة. وكان جميع هؤلاء الباحثين يتبعون بدون علم منهم طرقاً متشابهة ادت بهم الى الاستنتاج الآتي: وضع الصورتين في آلة الاظهار في نفس التوجيه النسبي الذي كانتا عليه عندما أخذتا من الطائرة.

فاذا كانوا قد اتفقوا في الفكرة فقد اختلفوا في الحلول، وتلخص حلولهم على الآلات التالية:

١ — آلات ذات نظرية ضوئية فقط واكثرها الآلات الايطالية.

٢ — آلات ذات نظرية آلية فقط واكثرها الآلات السويسرية.

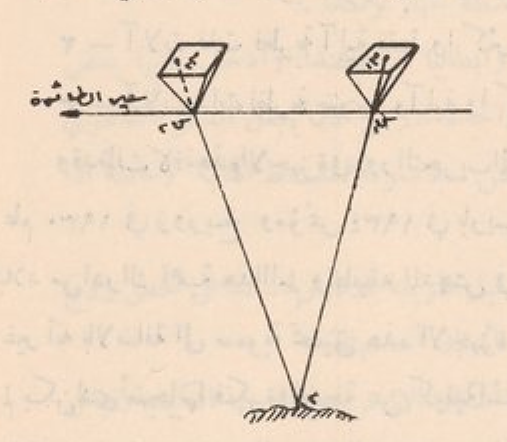
٣ — آلات ذات نظرية ضوئية وآلية واكثرها الآلات الافرنسية والالمانية.

وقد ظلت كافة هذه الاجهزة في دور التجريب الى حين انعقاد المؤتمر الفوتوغراميتري عام ١٩٣٠ في زوريخ ومؤتمر ١٩٣٤ في باريس اللذين مكنا حكومات مختلف البلاد من ادراك اهمية هذا العلم وتطبيقه المدهش في أخذ الخرائط والشئون العسكرية غير أنه بالاضافة الى صعوبة تحقيق هذه الاجهزة من الجهتين الميكانيكية والضوئية لم يكن لدى أصحابها فكرة واضحة عن كيفية استعمالها عملياً لان المسألتين الاساسيتين للفوتوغراميتري وهما — التوجيه النسبي للحصول على الصورة المجسمة ومقدار الدقة والانتاج لم تكونا محلولتين بعد وقد جرت عدة تجارب لم تأت بنتيجة — فاكتفى المهندسون بطريقة التقريبات المتتابعة (approximations successives) والتحسس المحكم (tâtonnement raisonné) الى غاية عام ١٩٤٨ الذي نرى فيما بعد ماذا حصل له.

٢ — نظرية هذا العلم

تستند نظرية هذا العلم على رؤية الشيء مجسما (en relief) لنفرض أنه لدينا جسم ما، بناية أو تمثال او جبل أو بقعة من الارض، ولنفرض اننا أخذنا صورتين لهذه البقعة من نقطتين مختلفتين، مثلا طائرة محلقة فوق البقعة ومجهزة بآلة تصويرية خاصة

تأخذصورةأولى(م١)لهذهالبقعةمن النقطة(س١)وصورة ثانية(م٢) من النقطة (س٢) نأخذ هاتين الصورتين ونضعهما ضمن كرتي آلة اظهار بصورة يكون لهما نفس التوجيه النسبي الذي كانتابه عندالتقاطهما من الطائرة . وسنرى فيما بعد كيفية هذا التوجيه النسبي . فاذا نظرنا في آن واحد ، خلال نظارتين موجهتين على هاتين الصورتين، نرى انهما تندمجان منطبقتين الواحدة على الاخرى بصورة تؤلفان معهما صورة مجسمة واحدة وعندئذ ، نرى الجسم المصور كالو كنا ننظر اليه عن كثب وبالعين المجردة اي أنه يظهر لنا بابعاده الثلاثة (3 dimensions) فيكفي ان نربط كلاً من هذه الابعاد بمحور آلي



ونرسم هذهالابعاد علىلوحة بمقياس معين . وهذه هي نظرية التصور المجسم.ونظراً لما قدمناه فان هذا العلم قدادخلت تطبيقاته على المساحة ووضع الخرائط . ونجملها فيما يلي :

الاعمال التحضيريةعلى الارض.

الاعمال التصويرية .

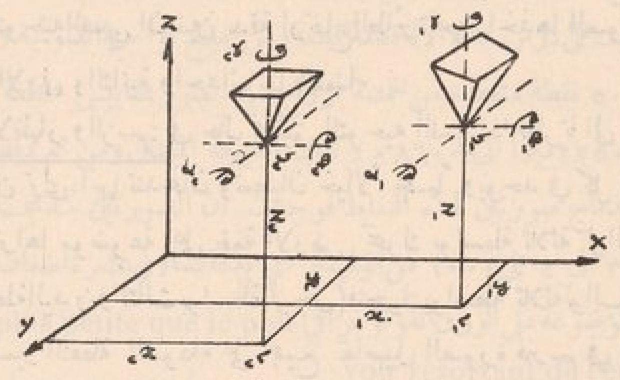
اعمال الاظهار والرسم .

أ_الاعمال التحضيرية:لنفرض ان الارض المرادتصويرهاتساوي مساحتها ٢٠٠٠٠ هيكتار وأن الطائرة مجهزة بآلة تصويرية آلية (اوتوماتيكية) تحتوي على كليشة ذات مقياس ١٨×١٨سم وعدسة بعدها المحرقي ٢٠٠مم، ولنفرض ان ارتفاع الطائرة بالنسبة للارض هو ٢٢٠٠ متراً وهذاممكن لأنه أخذنا في بعض المرات صوراً من ارتفاع ٨٦٠٠ م . وهكذا تكون المساحة المحصورة ضمن صورة واحدة، تساوي ٤٠٠ هكتار تقريباً. ونظراً لتقاطع الصور المرتبطة مع بعضها البعض نعتبر المساحة لكل زوج من الصور تساوي ٢٠٠ هكتاراً اذاً لن نأخذ مئة زوج من الصور، وبما أنه يجب أن يكون لدينا في كل زوج من الصور ثلاث نقاط معينة فنحتاج إذاً

الى ٣٠٠ نقطة طوبوغرافية (أي نقطة معينة سطحاً وارتفاعاً) فتقوم فرقة مؤلفة من ستة أشخاص بهذا العمل التحضيري وتجزه بمدة خمسة أسابيع. فتكون المرحلة الاولى اذا وضع النقاط الطوبوغرافية على الارض لكي تكون مرجعاً في أعمال الاظهار وحيث أن في سوريا يوجد كثير من هذه النقاط فيكفي ان يشار عليهم بالاشارة العادية، أي لوحة مستطيلة وفي وسطها نقطة حمراء .

ب — التصوير . — تؤخذ الصور من طائرة ذات محركين او ثلاث محركات، يكون سيرها ثابتاً وسرعتها ٢٠٠ كيلو متراً في الساعة مجهزة بآلة تصويرية آلية (اتوماتيكية) ذات لوحات اوفيلم وتميز اللوحات على الفلم لعدم تقلصها وتمددها وتكون اللوحات ضمن علبة ذات سعة تستوعب مئة لوحة تعطي ٥٠ زوجاً من الصور في الحالة اعلاه صورة قطعة أرض ذات طول قدره ١٠٠ كيلو مترا وعرضا قدره ٤ كيلو مترات فتؤخذ هذه الصورة بمدة نصف ساعة .

ج — التوجيه النسبي . قد أشرنا فيما سبق انه لكي نرى الشيء او الجسم مجسماً يجب ان يكون للصورتين الموضوعتين في كوتي آلة الاظهار نفس التوجيه النسبي الذي كانتا به حينما أخذتا من الطائرة فاذا اعتبرنا أحدى الصور في أخذها من الطائرة فتكون هذه الصورة معينة في الفضاء بواسطة ٦ عوامل ثلاثة منها متعلقة في احداثيات منتصف الصورة او مركز العدسة الجسمية (x,y,z) وثلاثة



عوامل متعلقة بميل هذه الصورة على ثلاثة محاور موازية لمحاور (x,y,z) وحينما تؤخذ الصورة الثانية يكون قد تغير مركز الطائرة بالفضاء ويكون إذاً للصورة الثانية

٦ عوامل أخرى ولـكي نضع الصورتين في كوتي آلة الاظهار بشكل أن يكون لهما نفس التوجيه النسبي يجب علينا معرفة هذه العوامل بالضبط وهذا من المستحيل، اذ اننا لا نعرف ارتفاع الطائرة والمسافة بين الصورتين وميلها الا بصورة تقريبية واذا لم تعتبر العوامل الستة للصورة الاولى فتبقى العوامل الستة للصورة الثانية مجهولة ويجب أن نضع ست معادلات لنحصل على هذه العوامل وذلك يؤدي الى حسابات طويلة ومعقدة جداً ولغاية سنة ١٩٤٨ كان المساحون يرجعون الى طريقة التقريبات المتتابعة والتحسيس المحكم لحل هذه المسألة ويحصلون على التوجيه النسبي بشكل مرضي ولكن أكان هذا التوجيه يعبر عن الحقيقة ؟

وقد جربت أنا بدوري في سويسرة في ربيع ١٩٤٨ ان أجد حلاً رياضياً مختصراً للتوجيه النسبي وحصلت على طريقة موجزة ولكن كان حلها يستغرق أربع ساعات من الشغل المستمر وحصل في صيف عام ١٩٤٨ المؤتمر الدولي للفوتوغروميتري في (لاهي) ووقف العلامة الفرنسي جورج بوافيية يشرح طريقته البيانية للتوجيه النسبي وكانت طريقة مختصرة بسيطة لا تتطلب اكثر من عشرين دقيقة من الوقت وميزتها العظمى هي انها كانت تعطي الخيال المجسم الحقيقي وكانت القنبلة الاولى في هذا المؤتمر وتبعتها القنبلة الثانية وهي دقة القياسات التي نراها فيما بعد ويمكننا حينما نحصل على التوجيه النسبي ان نبين بدقة ارتفاع الطائرة حين اخذها الصورة والمسافة بين الصورة الاولى والثانية واحداثياتها بالفضاء.

د — الاظهار والرسم: في حال تحقيق التوجيه النسبي اذا نظرنا الى الصورتين خلال نظارتين نرى انهما تندمجان وتعطيان خيالاً مجسماً ويوجد في كل نظارة نقطة سوداء ثابتة نراها موضوعة على بقعة الارض تحرك بواسطة ثلاثة لوالب (اثنان تحركان بواسطة اليدين والثالث بواسطة الرجل) فنحرك بواسطة ثلاثة لوالب الصورتين بطريقة ان تسير النقطة السوداء على جميع تفاصيل الصورة فنرسم في ذلك الحين الاشجار والنهر والبيوت والطريق الخ ... اذ أن اللوالب مرتبطة مع محاور آلية مرتبطة هي نفسها مع قلم، وحينما نريد ان نرسم منحنيات التسوية فلدينا عداد نوقعه على خمسة او

عشرة او خمسة عشر أو عشرين متراً الخ ... حسب المسافة التي نريد أن نجعلها بين هذه المنحنيات ومن ثم نضع النقطة السوداء على أعلى نقطة من الارض ونضغط على لولب فيرسم القلم نقطة على الورقة ثم ندير العداد لغاية خمسة امتار مثلاً ونشتغل بلولبي اليدين بطريقة أن تكون النقطة السوداء دوماً على الارض فيرسم القلم أول منحن للتسوية ثم يدار العداد الى عشرة امتار ثم الى ١٥ متراً ثم الى عشرين متراً الخ.. فنرسم هكذا منحنيات التسوية كل خمسة أمتار .

هـ — الدقة : ان لدقة في مقاييس المسطحات هي ٢/١٠ من المليمتر اي ثخانة الخط المرسوم بالقلم وهذه الدقة قد حصلت عليها الاكثرية من الآلات الموضوعة .

اما دقة مقاييس الارتفاعات او منحنيات التسوية فهي متعلقة بآلة معينة في ارتفاع الطائرة حين أخذها الصورة وكانت هذه الدقة تبلغ ٣ قوة ـ ٤ /١٠٠٠٠ من ارتفاع الطائره أي حينما تكون الطائرة على ارتفاع ١٠٠٠ متر يكون الارتفاع مغلوطاً بـ ٣٠ او ٤٠ سم وفي مؤتمر (لاهي برهن الاستاذ جورج بوافييه ان بطريقته للتوجيه النسبي وآلة الاظهار التي وضعها وحققتها شركة الاعمال الميكانيكية والضوئية ذات الدقة العليا (Sté d'Optique et de Mécanique de Haute précision) في باريس بلغت دقة مقاييس الارتفاعات من ١/٢ الى ١/٢ ١ /١٠٠٠٠ من ارتفاع الطائرة أي على ارتفاع الف متر تكون المقاييس مغلوطة من ٥ الى ١٥ سم وهذه كانت القنبلة الثانية فانكبيت على درس هذه الآلة قطعة قطعة ومن جميع نواحيها الضوئية والميكانيكية ودرست ٥٠٠٠ نقطة متخذة من خمسة أزواج من الصور بمقاييس مختلفة وارتفاعات تتراوح بين ٢٢٥٠ متراً الى ٨٦٠٠ م وكانت النتيجة المبينة .ومن ثم دققت التوجيه النسبي اي اندماج صورتين لهذه النقاط فوجدت أن الصورتين تندمجان مع فرق يتراوح من ٣ الى ٤ على ١٠٠٠ من المليمتر اي بدقة تساوي عشرة أضعاف دقة المادة الكيمياوية الموضوعة على الورق الفوتوغرافي (10 fois plus petite que le pouvoir résolvant de l'émulsion)

و — الانتاج آ — في الاعمال التحضيرية بتناسب عكساً مع كثرة تفاصيل

الارض في أرض معتدلة تنجز فرقة مؤلفة من ٦ اشخاص وفي مدة ستة اشهر ورقتين بمقياس ١/٥٠٠٠٠ اي مايعادل ١٠٠٠٠٠ هيكتار .

ب — في الاظهار والرسم : لوضع خريطة بمقياس ١/٢٠٠٠٠ من بقعة أرض معتدلة التفاصيل والصعوبات ينجز شخص واحد بظرف ساعة من الزمن ٢٥ هيكتاراً أوالخريطة بمقياس ١/٥٠٠٠٠ ينجز ما بين ٤٥ إلى ٥٠ هيكتاراً .

والانتاج العام لجهازواحد وبمدة سنة واحدة هو :

١ — في المناطق الكثيرة التفاصيل

مقياس	مقياس
١/٢٠٠٠٠ : ٦٠٠ كيلومتراً مربعاً	١/٥٠٠٠٠ : ١٥٠٠ كيلومتراً مربعاً
أي ٦٠٠٠٠ هيكتار	أي ١٥٠٠٠٠ هيكتار

٢ — في المناطق المعتدلة

١٨٠٠ كيلو متراً مربعاً	٦٠٠٠ كيلو متراً مربعاً
١٨٠٠٠٠ هيكتار	٦٠٠٠٠٠ هيكتار

٣ — في الصحراء

٢٠٠٠٠ كيلو متراً مربعاً	٨٠٠٠٠ كيلو متراً مربعاً
٢٠٠٠٠٠٠ هيكتار	٨٠٠٠٠٠٠ هيكتار

٦ — الفوتوغروميتري في أعمال الكدسترو وتجميل المدن

قد شرعت فرنسا منذ عام ١٩٤٤ بوضع خرائط مدنها بواسطة الفوتوغروميتري وكانت تحصل على نتائج مدهشة فيما يتعلق بالدقة والتفاصيل وخاصة للمقاييس ١/١٠٠٠ وأن ١٨٠٠ بلدة افرنسية التي دمرت بهذه الحرب الأخيرة وضعت خرائطها بهذه الطريقة بمدة ٤ سنوات .

كما وأن جميع القرى السويسرية مسحت بهذه الطريقة .

٧ — الفوتوغروميتري وبقية العلوم

١ — في فن البناء : فقدقام المهندسان السيدان بوافييه وجانيكو بناء على طلب مديرية الفنون الجميلة بتصوير كنيسة (La s^te Chapelle) التي هي في القصر

العدلي في باريس فمكنت أعمالهم من تعيين شكل القباب والصلة التي بين المدار الداخلي والمدار الخارجي للقباب وخاصة إظهار ميلاً عاماً في البنايات بالاتجاه الطولاني لم يلحظه المهندسون واستنسخوا كذلك تفاصيل الزخارف التي في الواجهة وقد كان هذا العمل الأخير مستحيلاً إلا بهذه الواسطة .

٢ — في فن النقش والنحت والحفر : إذ تمكن من رسم منحنيات التسوية بشكل نافر .

٣ — في دراسة الحركات :

أمواج البحر والخطوط التي تتركها السفن خلفها وحركات السوائل ومسارات القذائف وقنابل الطائرة الخ ...

٤ — في علم الأحوال الجوية :

شكل الغيوم وأوضاعها .

٥ — في علم الفلك : حركات النجوم ومصور السماء .

٦ — في علم الطب : التصوير المزدوج بالأشعة الذي يمكن من تعيين شكل وموضع جسم ما غريباً اخترق الجسم البشري .

٧ — في شؤون الشرطة : لتصوير أماكن الجرائم والحوادث .

٨ — وخاصة في الاشغال العامة . دراسة المشاريع الاولية للسدود وسكك الحديد الخ ...

قد أعطينا فيما تقدم لمحة عن الأهمية الأساسية للفوتوغروميتري وعن تطبيقاتها المباشرة في الدفاع الوطني والمصالح العقارية والأشغال العامة.

وقد شرعت فرنسا في اعادة رسم خريطة بلادها من جديد بواسطة هذا العلم

كما وامريكا اللاتينية وكندا قد عقدتا طلبية في الحصول على هـذه الأجهزة فعلى البلاد العربية أن تحزو حزوها .

إن لسوريا من تطبيق هذا العلم أعمال لا عديدة :

الحدود — الجزيرة — المناطق والقرى غير الممسوحة — الخط الحديدي حلب اللاذقية — الغاب — الدفاع الوطني .

فقد خصصت في القسم الاخير من أطروحتي فصلاً خاصاً لمشروع تأسيس دائرة للفوترغراميتري في سوريا وقد قبلته وزارة الدفاع .

فعلى البلاد العربية عامة وسوريا خاصة إن لم تكن في طليعة المشتغلين في هذا الاختراع أن تكون على الأقل في أول المهتمين به .

❀ ❀ ❀

الاجرام السياسي [1]

للدكتور عبد الوهاب حومد

سيداتي وسادتي :

إن الحديث عن المجرمين والاجرام ليس ، عادةً ، بالحديث المحبب إلى نفوس الذين لايمارسون علوم الحقوق ، ولكن الحديث عن المجرمين السياسيين ، يثير في كل نفس شغفاً ، وفي كل قلب هزة ، لأنه حديث أشبه ما يكون بالحديث عن العشاق المعاميد ، والشعراء المدلهين ... ولا تفزعنكم المقارنة بين ضحايا الهوى وضحايا السياسة ، لأن الشاعر المدله يجود بأصفى ما في نفسه ، ويضع قلبه قلائد من الشعر على القرطاس ، فتهتزلها النفوس نشوة ، ويخفق لها القلب طرباً ، حين يحدثنا عن دموعه وأشجانه ، وعن سبقه في الهوى قيساً وليلى ؛ وكذلك المجرم السياسي ، حين يكون مجرماً سياسياً حقاً ، يذهب في تفانيه في سبيل معشوقته الحرية ومعبوده الصالح العام إلى أبعد مما يذهب إليه العاشق ، فيضحي بماله ، ويتخلى عن حريته ، ويخاطر بدمه .

ولكن الشاعر قد يشهّر بالمرأة التي أحب ، وينغص على ذويها عيشهم ، ويلحق بسمعتهم الأذى . والمجرم السياسي أيضاً قد يسيء إلى المثل الأعلى الذي أحبه ، والقوم الذين خاطر بنفسه لينشر فيهم الرغد والرخاء ، وينقذهم من وضع يعتقده معوجاً لاتستقيم معه حال المجتمع .

وأداةُ الشاعر قد تكون ريشة ، جرتها لوحة فنية ، جالت في عواطفه على

---

(١) القيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ٧/٣/٥١

أبواب الفجر ، وقد تكون غير بريئة قادها الأعراض عنه والتبرم به . وأداة مجرم السياسة قد تكون أيضاً بريئة يجرها نبل القصد ، الممتزج بخطأ التفكير وخطل الاسلوب . ولكنها قد تكون غير بريئة ، يدفع اليها روح إجرامي ، انحرف ، لأمر ما عن طريق الاجرام العادي ، إلى جادة الاجرام السياسي ، وفي هذه الحال يكون هذا المجرم متصفاً بالحقد ، وصادراً عن أنانية ، ودوافع غير نبيلة .

إن الاجرام السياسي قديم في البشرية ، ولد مع الخلية الأولى للحياة الاجتماعية ولن يموت إلا بانقراض العرق البشري على الأرض وليس الجديد في هذه التسمية ، إلا لفظ « السياسي » فقط .

فقد ولد الاجرام السياسي ، يوم تشكلت الأسرة الثانية على الأرض ، وراحت تفكر في سلامتها وفي الدفاع عن نفسها ، من تعدي الاسرة الأولى التي سبقتها في التكون ، وفكرت في الاعتداء على الاسرة المنشقة عنها ....

كان هم كل من الأسرتين منصباً على الظفر والغزو ، ولذلك كان كل من يجامل الاسرة المعادية « مجرماً سياسياً » وكان كل من يفر من المعركة « مجرماً سياسياً » أيضاً ، لأن الأول والثاني كانا يعرضان سلامة « مجتمعهما » الصغير ، إلى خطر جسيم ..

في تلك الايام ، لم تكن العملة من ذهب وفضة ، معروفة ، ولذلك لم يكن تقليد العملة معاقباً ، والوثائق الخطية كانت مجهولة أيضاً ، لجهل الناس بالكتابة وعدم الحاجة إلى الورق ، لذلك لم يكن التزوير معاقباً .... ونظراً لأن الملكية كانت مشاعة ، إذ كان الناس في حالة شيوعية فعلية ، بهذا المعنى الذي يعطونه للشيوعية اليوم ، في أشد مراحلها تطرفاً ، لم يكن الناس يعرفون السرقة ولا الاحتيال ولا سوء الائتمان ....

ومن يدري فربما كانت الجرائم الأخلاقية نفسها بمفهومها الحديث مجهولة عندهم أيضاً ... ومن يتتبع تطور التاريخ القديم للاجرام ، يجد ، أنه في الوقت الذي كانت تتكون فيه الجرائم العادية رويداً رويداً ، كانت الجمعيات البشرية التي أخذت في التوسع والانتظام ، تتفنن في تنظيم معاقبة الاجرام السياسي ...

كان المجرم السياسي إذ ذاك ، الخائن ، وكان الجاسوس ... لذلك لم تكن الرحمة لتجد سبيلاً إلى قلوب قضاته وأمرائه .

ففي أثينا ، كانت عقوبة الخيانة الموت ، ومصادرة أملاك الخائن عامة ، ولم تكن أسرة الجاني في منجى عن أثر العقوبة ، لأنها كانت تعاقب بعقوبة « العار الابدي أيضاً » . والفقهاء متفقون على أن اثينا لم تكن تنتظر دخول المجرم في صفحة التنفيذ الجرمي ، حتى تعاقبه كما تفعل في الجرائم العادية ، بل كانت تسارع الى صب جام غضبها عليه ، إذا ارتابت في ولائه للحكم القائم .

فقد كانت الريبة ، غير المدعمة بدليل ، كافيةً لتطبيق العقاب العنيف عليه .

وفي أسبارطة ، كانوا يضحون بكل من يصوت في المجالس الشعبية ، إلى جانب مصلحته الشخصية ، ويضرب عرض الحائط بالمصلحة العامة ... وكانوا يقولون إن آلهة الجحيم لا ترضى إلا بازهاق ارواحهم .

ولم يكن نظر الرومان القدماء ، إلى المجرمين السياسيين ، أفضل من نظر الآخرين اليهم ، حتى أن الرومان ، كانوا يرفضون أن يعتبروهم مجرمين عاديين ، خاضعين للعدالة الرومانية ، وإنما كانوا يعتبرونهم أعداء الأمة ، ويعاملونهم المعاملة التي تتبع حيال هؤلاء . ويذكر بعض فقهاء الحقوق الرومانية [كالاستاذ (Mellor) في كتابه مفهوم الجريمة السياسية في الجمهورية الرومانية ص ٢٤) والاستاذ (Pella) في كتابه (معاقبة الجرائم الموجهة ضد شخصية الدولة ص ٦٨٩)] ، أن الرمان كانوا يرمزون للحرب بالاله (Janus) ، وقد كان لهذا الاله وجهان ، وجه يتجه نحو الحدود ، مشيراً إلى العدو الخارجي وهو الـ (Hostis) ، ووجه يتجه إلى عدو الداخل وهو الـ (Perduellis) . وقد كانوا يعاقبون المجرم بقتله ظمئاً ، ولكنهم عدلوا هذه الطريقة ، وراحوا يحرقونه في النار ، أو يلقونه إلى الحيوانات المفترسة تقطعه بمخالبها وانيابها ، والقوم يقهقهون .

والغريب أن موت المجرم لم يكن يسقط الدعوى العامة عليه ، فقد كانوا يقيمونها عليه بعد موته ، ويصدرون عليه الاحكام القاسية ....

ولم يتغير الوضع ، حين أصبحت روما ملكية ، وبقي الوضع على حاله ، حين

أصبحت روما جمهورية . وليس من شك في أن الجريمة المعروفة باسم (Crimen Magestatis) الرومانية انتقلت إلى تشريع القرون الوسطى ،ودعاها الفرنسيون (Le crime de lèse-majesté) أي جرائم الجلالة .

ومما يلفت النظر أن جريمة الجلالة هذه ، ظلت معاقبة بقسوة زائدة ، واضاف التشريع فيما بعد ، معاقبة وضع الخطة لارتكابها ، وذهبوا إلى أبعد من ذلك فعاقبوا مجرد التفكير فيها .

وحينما انتقلت البشرية إلى مرحلة القرون الوسطى ، دخل مفهوم جديد في هذه المادة هو (الولاء الاقطاعي Allégeance féodale) .

وكانوا يقصدون بهذا الولاء ، إرتباط كل فرد بقسم ضمني ، يتضمن الولاء للأمير ، ويكون الاجرام السياسي إذن فصم عرى هذا الولاء المجيب .... وبما أن الدولة لم تكن منفصلة عن الحكومة ، فقد كان عدو الأمير عدواً للدولة ... وكلما كان هذا العدو محبباً إلى الناس ، أثيراً إلى قلوبهم ، كان خطره أشد ، وبالتالي وجب أن يكون عقابه أعنف . وفي ظل مفهوم كهذا ، لم يكن للدافع ، الذي يختلج في صدر المجرم ، أية قيمة مخففة لأن العبرة للفعل المادي وحده ، مجرداً عن كل ظرف مخفف .

وقد احتفظ الجرمان بمفهوم جريمة الجلالة الرومانية ، وتفننوا فيها ، يدل على ذلك القانون المعروف باسم « طابة الذهب » المنشور عام ١٣٥٦ الف وثلاثمئة وستة وخمسين ، والذي كان لم يغير الكارولينا ، وهو القانون الشهير الذي نشره شارل كانت بعد قرنين ، أي نص من نصوصه .

والانكليز أيضاً كانوا يعتنقون هذه المفاهيم ذاتها ، وقد كان الملك يستخدم تعبير الخيانة في كفاحه ضد أعدائه المخيفين ، رجال الدين وامراء الأمصار .

وقد يستغرب الناس ، كثرة الاحكام الصادرة في مادة الاجرام السياسي في انكلترا وخاصة ضد السادة الاقطاعيين ، ولكن العجب يزول إذا عرفنا أن الحكم بالاعدام أو بما يشبهه في ظل مفهوم الخيانة المذكورة ، كان يستتبع حكماً مصادرة أموال

المحكوم عليهم كافة ، الأمر الذي كان يدر أوسع الارزاق على التاج . ، وربما كان هذا المفهوم سبباً من الاسباب التي أوجدت الامبراطورية الكبرى . . . أن الاقطاعيين في كل زمان ومكان ، هم العقبات الكأداء في سبيل وحدة البلاد ، ورفع شأن الوطن ....

وقد كان الملك الانكليزي ، الخصم والحكم في دعواه ضد أعدائه ، ولم يحدد نوع الجرائم السياسية المعاقبة تحت اسم الخيانة العظمى إلا في عام ١٣٥١ الف وثلاثمئة وواحد وخمسين وقد ذكرها (Kenny) في الصفحة ٣٣٦ ثلاثمئة وست وثلاثون من كتابه المشهور « الحقوق الجزائية الانكليزية » . والطريف في هذا التحديد ، أن الاعتداء على عفاف زوجة الملك أو إبنته البكر ، دون البنات الأخريات ، أو زوجة ولي العهد ، كانت معتبرة من جرائم الخيانة العظمى .

ولم تكن الحال ، في ظل الملكية الفرنسية ، خيراً منها عند الانكليز والجرمان المعاصرين لهم ، وخاصة حين عمت ، في الأزمنة المعاصرة ، الحروب المدنية والدينية فيها ، وخاصة بين الكاثوليك والهغنوت (Huguenots) .

وقد كان للقسوة ، ضد الخصوم السياسيين ، في عهد ريشليو ، (Richelieu) صاحب كتاب (Maximes d'Etat) أثر كبير في تهيئة التربية الصالحة ، لظهور تيار فلسفي ، معاكس لما هو متبع في معاقبة الجرائم السياسية . . . . وريشليو هو القائل « في الجرائم الموجهة ضد الدولة ، يجب إغلاق باب الرحمة » ...

ومما يزيد في مصائب المجرمين السياسيين ، ان نظام الاثبات كان أوسع مدى في جرائمهم منه في الجرائم العادية ، وكان التقادم لايسري عليها ايضاً ، ولو مرت عليها السنون الطويلة ونسيها الناس ، واخيراً كان معاقباً بقسوة زائدة ، كل من ترامى إلى سمعه نبأ عن تهيئة جريمة سياسية ، ولم يخبر عنها السلطات المختصة في وقت مفيد ....

سيداتي سادتي :

كانت هذه السؤات من الأسلحة الماضية في يد فلاسفة الثورة الفرنسية ورجالها

فلما قيض لهم أن يقضوا على الملك والملكية ، أعلنوا حقوق الانسان، وزالت جرائم الجلالة ، بزوال الشخص والنظام الموجهة ضدهما ...

ولكن الحقيقة المرة ، هي أن النظام الثوري الجديد اشتد اكثر من النظام السابق في معاقبة الاجرام السياسي ... وان القوانين التي سنت لمكافحة هجرة الاشراف ورجال الدين ، تدل بجلاء على ان ال (Convention) كانت عازمة على الحفاظ على نظامها السياسي ، حتى الاستماتة ..وموت الخصوم أهون شراً من الانتحار. لذلك كانت «الحمامات الوطنية» الوسيلة المألوفة للتخلص من ألوف الخصوم، باغراقهم في الأنهر الكبرى في غسق الليل ...

وقد كتب الأستاذ(Vaccaro)الايطالي عام ١٨٨٩ الف وثمانمئة وتسعة وثمانين يقول «ان مهمة القوانين الجزائية لم تكن حماية المجتمع كله ، بل حماية منافع الذين كانوا يحكمون فعلاً ... حماية النظام السياسي القائم ... وان الحكمة الرائعة ، التي تقول إن الذي يملك جزءً من النفوذ الحكومي ، يتصرف به لمصلحته اولا ، لحكمة مكتوبة بأحرف من الدماء في كل صفحات التاريخ،وفي كل القوانين العالمية».

وان القانون الجزائي الذي وضع في عهد الأمبراطور نابليون عام ١٨١٠ الف وثمانمئة وعشرة، ينحو نفس المنحى القديم لانه قانون لم يوضع الالحماية النظام الامبراطوري الجديد . واذا وجدنا في هذا القانون مبدأ التفريق القانوني بين الجرائم السياسية والجرائم العادية ، فذلك لكي تعاقب الأولى بأشد العقوبات . وهذا هو القانون الذي أعجب به السلطان العثماني،حين أحرج غداة حرب القرم، لادخال التشريعات الغربية ، مقابل احتلال مقعد في حظيرة الدول الغربية ، التي لم تكن راضيـة عن التشريع الراهن في البلاد العثمانية . وتذكرون حضراتكم ان قانون الجزاء العثماني ، هو القانون الفرنسي المشار اليه ، ولكن بصورة مشوهة ، فقد أسقط الشارع العثماني منه مثلاً ، الجنايات الموجهة ضد الدستور ، لعدم وجود دستور لدى العثمانيين ، الذين كانوا خاضعين لحكم استبدادي مطلق ، والذين كانوا لا يريدون ان تعلم رعيتهم ان في الدنيا شيئاً اسمه دستور ...

في هذا البحران المظلم من تاريخ الفكر البشري ، وبينما كان العالم يقف على

عتبة العام ١٨٢٢ الف وثمانمئة واثنين وعشرين اصدر فرانسوا غيزو ، الفقيه الفرنسي ، كتابين شهيرين في تاريخ هذه المادة ، الاول عقوبة الموت في الاجرام السياسي(La peine de mort en matière politique)والثاني—المؤامرات والعدالة السياسية (Des conspirations et de la justice politique .)

وهذان الكتابان يعتبران فاتحة عهد جديد ، في تاريخ الاجرام السياسي ، لانهما مهدا السبيل الى بزوغ شمس النظرية الجديدة ، ومن الانصاف للتاريخ ان نشير الى حادثة (James Hadfild) الذي أطلق النار على الملك جورج الثالث الانكليزي في دار التمثيل الملكية ، فقد كانت الضمانات التي قدمت للمتهم ،واختيار محام من أكبر محامي الامبراطورية للدفاع عنه ، هو اللورد(Erskine) ، ومنع المحكمة من الاجتماع لمحاكمته قبل مرور خمسة عشر يوما ، حتى لايكون القضاة والمحلفون تحت ضغط الشارع والهياج الشعبي ، بادرةً جديدةً استقى منها غيزو مادةً خصبة لكتابيه ....

كانت فلسفة غيزو قائمةً على مهاجمة الاعدام في الجرائم السياسية ، وحجته في ذلك انها عقوبة غير ناجعة ، لأن المتحكم الظالم ، لايستطيع أن يبيد شعباً بأسره ، اذا كان هذا الشعب كله عدواً لنظامه القائم .

وانها عقوبة ليست بذات تأثير معنوي ، وربما كان رد الفعل يأخذ الطريق المعاكس ، حينما يكون للمقتول أنصار ومتحزبون أوفياء لمبدئه وعقيدته .

وانها عقوبة ليس لها قيمة اجتماعية كبرى ، لأن غيزو يعتقد أن الاضطهاد السياسي فاتحة انحلال الحكم القائم .

وقد كان لهذه الفلسفة أثر في تشريع حكومة لويس فيليب عام ١٨٣٠ الف وثمانمئة وثلاثين ، التي أدخلت في قانون العقوبات الفرنسي سلمي العقوبات السياسية والعادية . وفي عام ١٨٤٨ اقترح الشاعر الملهم لامارتين ، الذي أصبح عضواً في مجلس الأمة ، الغاء عقوبة الاعدام السياسية . ولكن هوغو كان أشد تطرفاً منه فاقترح الغاء هذه العقوبة نهائياً .. ومما قاله هوغو في تبرير موقف نظرته .. «انكم

تضعون في مقدمة الدستور هذه الجملة : في حضرة الله ، ولكنكم تعمدون الى تجريده من حق لا يملكه سواه ، هو حق الحياة والموت .. لقد حطمتم العرش بدستوركم الجديد ، ومن واجبكم أن تحطموا المقصلة ايضاً » .

وقد رافق هذا التطور في فرنسا تطور مشابه في ايطاليا ، حيث نشر قانون العقوبات عام ١٨٧٩ الف وثمانمئة وتسعة وسبعين ، وهو المعروف بقانون (Zanardelli) وقد كتب الفقيه الكبير (Carraro) بمناسبة الفصل الخاص بالجرائم السياسية مايلي :

« انكم تصمون المجرم السياسي بالعار من جهة ، فتضطهدونه حتى في اشخاص أولاده، ولكنكم تنثرون الزهور والأكاليل على قبره بعد موته، وتخلدون ذكراه في التاريخ والأناشيد الشعبية من جهة ثانية . اني أعتبر أن السياسة وعلم القانون لم يخلقا أخوين ، وأن الجرائم السياسية الموجهة ضد سلامة الدولة الخارجية والداخلية لا تخضع في الواقع لحقوق جزائية ذات أسس فلسفية » .

وكذلك ألغيت عقوبة الموت في الاجرام السياسي في ألمانيا في هذه المرحلة ، باستثناء حالة واحدة هي قتل الملك . وفي هذا منتهى الانصاف ، لأن الملك انسان ومواطن قبل أن يكون ملكاً ، ومن واجب القانون أن يحمي حياته ..

هذه المرحلة التي تمتع فيها المجرمون السياسيون بكل عطف ورعاية امتدت ، نوعاً ما ، حتى ظهور الدكتاتوريات الجديدة : الدكتاتورية السوفياتية ، والدكتاتورية الفاشستية ، والدكتاتورية الالمانية ... أقول نوعاً ما لأنها في البلاد الغربيـة ، كانت مرحلة متأرجحة ، مرحلة تردد لأنها لم تتبنَّ أساليب الديكتاتوريات ولكنها أعادت النظر في موقفها من الاجرام السياسي .

في هـذه الفترة كتب لاسكي ولمبروزو ، في كتابهما « الجريمـة السياسية والثورات » فصلا عن شخصية المجرم السياسي ، الذي يعتبر أنه مجرماً كاذباً ، لأنه متطفل على الاجرام ، ولم يخلق له ، ولا يوجد أي دليل في جسده أو نفسيته ، يدل على أستعداده للجريمة ، فليست جبهته ضيقةً ، وليس شعره كثيفاً ، ولا فكه

ضخماً ، ولا نظره حاداً ، ولا معاملته قاسية . إنه كما يقولون عنه « جميل الروح ، جميل الجسم ... إنه يمثل القداسة الحقيقية والنبل البشري .. ولو أردنا دراسته من جهة الأمراض العقلية نكون كمن يدرس الخطوط الجميلة لتمثال فينوس دي ميديس (Venus de Medicis) ، بواسطة الآلات الهندسية ، دون النظر إلى تناسق المجموع ... » .

والواقع أن شارلوت كوردي ، كانت ذات جمال رائع ، وحين قتلت (Marat) قالت لقضاتها « لقد تملك الغيظ قلبي فدلني على طريق قلبه » ، وكان أورسيني الايطالي ذا مظهر ، يمكن ان يقال فيه إنه عدو للمجرمين . ومع ذلك حاول أن يغتال الأمبراطور نابليون الثالث ، الذي لم يساعد الشعب الايطالي في معركة التحرر . وأما من الناحية النفسية ، فأنهم يتصفون بحسن الطوية ، ونبل الغاية ، والبعد عن الأثرة ، والقرب من الايثار ..

إنهم يعتبرون أنفسهم أصحاب رسالة ، يندفعون في سبيل تحقيقها . وأصحاب الرسالة الحقوقيون ضرب من الصوفيين الذين لايجدون لذة العيش في غير الفناء الروحي .

وأما من ناحية الشروط الشخصية للمجرمين السياسيين ، فاننا نلاحظ من حيث الجنس أن المجرمين السياسيين يكونون عادةً من الرجال ، ولكن المجرمات السياسيات لسن نادرات .. ويعلل لمبروزو ذلك بفقدان التطور العبقري عند النساء ، ويرى أن النساء العبقريات قليلات في تاريخ البشرية ، إذا قسن بعدد العباقرة من الرجال . ويرى (Spencer) أن مرد ذلك احترام المرأة للسلطة المفروضة عليها ، مدنية كانت أو دينية . ويذهب في زعمه إلى أبعد من ذلك ، فيقول إن المرأة لاتقدر لذة الحرية ، حتى تدافع عنها ، انها تحب الحرية الاسمية ، وتنفر من الحرية الحقيقية ... واللواتي اشتركن في جرائم سياسية ، كن مدفوعات إلى ذلك بشتى الاعتبارات ، حتى لقد زعموا أن شارلوت كوردي لم تقتل مارا ، إلا لأنه كان يكيد لشاب جيروندي ، كانت واقعةً في أحابيل غرامه . ونذكر بهذه

المناسبة سيدةً معاصرة لشارلوت هي مدام رولان ، التي كانت تعبد الجمهورية ، وتعبد الجيرونديين انصارها ، ولكن الحقد الذي كان يغلي في قلوب الجبليين ضدها ، دفع بها إلى الموت . وكلمتها ، وهي تصعد درج المقصلة ، مشهورة ، « أيتها الحرية ، كم من الجرائم ترتكب باسمك » ... وقد بلغ من حب زوجها لها ، لجمالها وحسن أخلاقها ، أن انتحر حين بلغه نبأ إعدامها .

وإن الذي نعتقده شخصياً ، أن ندرة المجرمات السياسيات ، ليس مرده نضوب العبقرية عند النساء وإنما مرده قلة اختلاطهن في الحياة العامة ، وانخفاض الخط البياني لأجرامهن العام ، إذا قيس بأجرام الرجال .

وأما من حيث السن فان الشباب هو أرض الاجرام السياسي الخصبة . ويبدأ الشباب بحادثة الصغير (Valda) الذي أنقض على الملكيين ، في صفوف الثائرين الجمهوريين في ليون ، فأصابته رصاصة عدوة ، فقال وهو يجود بروحه « لم يخطئني الأشقياء ، ولكني سعيد بأن أموت في سبيل الحرية » ، مات وعمره ثلاثة عشر عاماً .

وللأديب الفرنسي (Montaigne) كلمة جميلة في هذا المعنى ، قال : « ان أكثر الأعمال الانسانية الرائعة التي عرفتها ، مهما كان نوعها ، قام بها شباب لم يبلغوا الثلاثين من عمرهم » ... والسبب في ذلك ان الشباب يتصف بالايثار ، وحب ماهو جديد ، وبالاندفاع ، وهذه في الواقع مقومات الأجرام السياسي .

سيداتي سادتي :

كان رد الفعل ضد المجرمين السياسيين عنيفاً لدى الدكتاتوريات ، ولكن الانصاف العلمي يتقاضاني أن أقرر بأن بوادر رد الفعل إنما بدأت لدى الدول الغربية . ففي فرنسا مثلا صدرت القوانين المسماة « بقوانين الشقاوة » عام ١٨٩٣ و ١٨٩٤ ، وهي القوانين الموجهة ضد الفوضويين ... والواقع أن بعض الناس خرجوا على المفهوم المنطقي للأجرام السياسي ، هذا المفهوم الموجه ضد حكم قائم ، لا ضد مجتمع قائم ، وتذكرون حضراتكم أن المذهب الفوضوي ، الذي أعطاه باكونين الروسي ، شكلاً عصرياً ، يرمي إلى تقويض

دعائم الحكم والمجتمع من أساسه ، فهو لا يقبل حكومة ولا دولة ، وإنما يطالب بشيوع كل شيء عن طريق القوة ، انه يعتبر الدولة عدوة الحرية ، وإنها لم توجد إلا لحماية الأغنياء واليكم مقطعاً مما كتبه أحد الفوضويين ، لتتبينوا مرامي الفوضوية ، وتروا لماذا درجنا بداهة ، على إخراجها من حظيرة الأجرام السياسي :

« أحرقوا دور الحكومة ، والثكنات والمصارف ، وسجلات الأحوال المدنية ، والكنائس ، واستولوا على القصور ، واقذفوا من شبابيكها الأغنياء السمان ، وهاجموا المخازن الممتلئة مؤناً وطعاماً ، ليشبع الجائع ، وأقمشة ليكتسي العاري ، واقطعوا أسلاك الهاتف ، وانسفوا الخطوط الحديدية ، واذبحوا واحرقوا في كل مكان تجدون ظلماً أجتماعياً لازالته » .

وليست فكرة الكفاح ضد الدولة خاصة بهؤلاء الفوضويين ، فقد قال بنظريتهم نيتشه وتولستوي ، ولكن هؤلاء يهاجمون الدولة ، ويكتفون بهذا الهجوم ، ولا يذهبون إلى حدود العنف ، أما الفوضويون فان دعايتهم الفعالة لمذهبهم ، كما يقول أحد فلاسفتهم (Sorel) تقوم على الفعل العنيف ، لا على الكلام ... وحين حوكم المجرم المشهور (Ravachol) لمقتله رئيس محكمة جنايات باريس قال ، « إني آسف لموته كل الأسف ، فأنا لم أشأ قتله لحرمانه من الحياة ، وإنما لكي أوقع الرعب في المجتمع وأرغمه على أن ينظر إلى حالة الذين يتألمون . اننا غير مجرمين ولكننا أنصار المظلومين » .

وقال المجرم الكبير (Vaillant) الذي القى قنبلة على مجلس النواب « إنني لم أرد القتل ولو أردته لاحضرت معي قنبلتين أشد فتكاً من هذه ، ولكني أردت فقط أن أنبه النواب إلى واجبهم حيال المجتمع » . وحين قتل الايطالي (Caserio) رئيس الجمهورية الفرنسية المسيو (Carnot) عام ١٨٩٤ ، سئل المجرم هل بينك وبين الرئيس عداوة ، فقال لا ، فقال لماذا قتلته إذاً . ؟ قال . لان المسيو كارنو يذهب إلى الأوبرة في عربة فخمة ، وأنا لا أستطيع الذهاب اليها ولو مشياً على الأقدام ...

وجاءت حادثة (Dreyfus) هذا الضابط الفرنسي اليهودي ، الذي سلم الألمان

وثائق سرية ، جاءت حادثته ضغثاً على ابالة ، فأحنقت الناس على الخونة والجواسيس وطالبوا باخراجهم من حظيرة المجرمين السياسيين ...

ولكن رد الفعل ضد مفهوم القرن التاسع عشر ، قد بدأ في أعقاب الحرب العالمية الأولى وخاصة منذ ثورة أكتوبر الشيوعية .. ويؤسفني أن لا أتمكن من شرح فلسفة الدكتاتوريات الحديثة ، بصورة مفصلة ، ولكني ملق عليها مع ذلك نظرةً عجلى .. فروسيا الشيوعية ، نصت في المادة الأولى من قانون عقوباتها بأن مهمة التشريع الجزائي هي حماية الدولة الاشتراكية التي أسسها العمال والفلاحون ، وحماية النظام الحقوقي القائم ضد الأفعال الخطرة اجتماعياً ، وهذا النظام القائم هو ديكتاتورية البروليتاريا » ولكن هذه الديكتاتورية الراهنة لاتعدو أن تكون مرحلة انتقالية إلى الشيوعية الصحيحة ، التي بشر بها ماركس ، وباكوتين ، شيوعية لاتكون فيها دولة ولا متمولون ، ولا فقراء ، فيطلب من كل إنسان حسب طاقته ويعطى لكل إنسان حسب حاجته » ..

وما دام الوضع الانتقالي راهناً ، فمن الضروري حمايته ولو تطلب ذلك استخدام أقسى الأساليب ويرى لينين ني الشيوعية ، أنه حين يتحرر الناس من ربقة الجوع والرأسمالية التي هي مصدره، يعيش الناس عيشة عفوية ، في ظل قواعد مدنية لافي ظل قواعد جزائية ، حيث لاتوجد حكومة ولامحاكم ، لأن الاجرام يتلاشى لعدم الحاجة اليه ، ويحل الشعب بمجموعه محل الدولة ومحاكمها ، فاذا وجد مع ذلك من يشذ،فأن الأمر يحل من قبل المواطنين ، كما تحل قضيةاعتداء يقع على امرأة في الطريق ، إذ ينجدها أصحاب المروءة من المارة .

ولكن هذا هو الهدف النهائي ، أما اليوم فان المجرم السياسي هو عدو النظام القائم ، هو العدو الداخلي بتعبير أصح ، وهذا العدو معاقب بصورة عنيفة ، حتى ليكادون يحصون عليه أنفاسه ، فالقسم الخاص من قانون العقوبات السوفيتي يخصص لجميع الجرائم العادية ثلاثاً وأربعين مادة قصيرة فقط ، ويخصص للجرائم السياسية وحدها مئة مادة وخمساً ، فيها كل التفصيل ... هذا من جهة ،ومن جهة

ثانية ، فان القانون لم يحدد في العقوبات العادية إلا الحد الأعلى الذي لايستطيع القاضي تجاوزه ، في حين أنه في الجرائم السياسية يكتفي بتحديد الحد الأدنى ، الذي لايستطيع القاضي أن ينزل عنه ، ويترك له حرية مطلقة في اختيار الحد الأعلى وهو يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيعاقب في المادة السابعة كل شخص لم يرتكب فعلا مادياً ، وإنما يشتبه فيه بأنه يتصل بوسط خطر ، او لأن ماضيه غير مضمون وجريمة القتل العمد لاتعاقب إلا بالاعتقال عشرة أعوام ، في حين أن عشرين جريمة سياسية أو إقتصادية ، تعاقب بالاعدام ، ومصادرة الثروة والحرمان من الجنسية الروسية ...

واليكم ما جاء في المادة ٥٨ الثامنة والخمسين ف ١ —

« يعتبر فعلاً موجهاًضدالثورة ، كل فعل يهدف إلىقلب سلطة مجالس السوفييت والعمال والفلاحين ، والحكومات المؤتلفة أويضعفهااو يزعزعها ، وكذلك كل فعل يضعف او يزعزع سلامة روسيا الخارجية ، ... والمؤسسات الاقتصادية والوطنية والسياسية التي حققتها ثورة البروليتاريا » .

وفي كل هذه الجرائم لاينظر مطلقاً إلى الدافع الذي دفع الفاعل إلى الجريمة ، بل ينظر إلى الخطر الذي لحق بهذه المؤسسات ....

ويحاكم المجرمون السياسيون امام محاكم خاصة ، تراعي في اصول المحاكمة لديها السرعة التامة والتنفيذ السريع ، ... ويزعم اخصام روسيا ان اساليب الاستجواب قاسية ايضاً ، وقد قالوا الكثير عن استجواب الكاردينال مندزنتي المتهم بالعمل لحساب الجاسوسية الغربية .

واما إيطاليا الفاشستية . فانها ألّهت الدولة وجعلتها مصدر كل شيء ، وسخّرت لها الافراد والجماعات ...وقد كتب موسوليني نفسه يقول : « ان الفرد لا يوجد الاضمن الدولة ، والا اذا كان مرتبطاً بضروراتها .. وكلما تقدمت المدنية وتشابكت الاوضاع ، وجب ان تقيد حرية الافراد بهذه النسبة .. ان الدولة ليست الحاضر ، ولكنها الماضي ايضاً ،

والمستقبل بصورة خاصة، انها هي التي تمثل ضمير الامة وخلودها ، لان الافراد زائلون» .

لذلك كان كل اعتداء على مفهوم الدولة ومؤسساتها معاقباً بقسوة .. وتعريف الجرم السياسي ، الذي تضمنته المادة الثامنة من قانون العقوبات الفاشستي يترجم هذه الرغبة في صيانة الدولة وحفظ هيبتها في الداخل والخارج .حتى لقد قال وزير العدل الايطالي ، الفريد روكو ، « إن قانوننا قانون سياسي » .

اما من حيث المعاقبة ، فالاسباب المخففة ، التي يمنحها القاضي في بعض الحالات ، ممنوعة ، في الجرائم السياسية ، وكذلك منع سريان التقادم عليها . وأما من حيث اصول المحاكمة فانها اصول سريعة ، امام محاكم خاصة ليس فيها ضمانات للمتهم ، لان المحامي لا يقبل في مرحلة التحقيق الابتدائي ، ولا يجوز في التحقيق النهائي حضور اكثر من محام واحد . والشيء الغريب ان ايطاليا الفاشستية ، ألغت حق الملجأ السياسي — وهو عادة دولية راسخة ، ووافقت على تسليم اللاجئين السياسيين لمن يطلبهم ، شريطة المقابلة بالمثل .

واذا امتنعت عن تسليم قاتلي المسيو بارتو ، الوزير الفرنسي ، والملك اسكندر اليوغسلافي فذلك — لان فرنسا لا تقبل مبدأ تسليم اللاجئين السياسيين ...

واخيراً نرى المانيا النازية ، على غرار زميلتها ، تغترف بسخاء من فلسفة فيخت و(Hegel) ونيتشه ، التي واتتها خير مواتاة . فهيكل يطمح الى امبراطورية قوية ، ويعرف الدولة بانها الروح المعنوية والارادة الملهمة الجوهرية التي تعرف نفسها ، وتفكر بنفسها ، وتعمل ما تعرف لانها تعرف ما تعمل . ونيتشه بعده بقليل يبشر بنظريته الشهيرة في الرجل الاكمل او الرجل فوق الرجال ، (Le surhomme) انه ينكر المساواة بين الرجال ، ويرى انه يوجد رجل عظيم ، سيد ، يجب ان يفرض نفسه بقوته على الناس على الرغم منهم . وهو القائل في كتابه « ارادة القوة » : « لو كان ظهور العظماء متوقفاً على ارادة الجماهير لما ظهر في التاريخ عظيم واحد » . فالهدف العام هو الرجل الاكمل وليست البشرية ... وحين يفرض العظيم نفسه يبدأ الكفاح بينه وبين العظماء الآخرين ، الذين يرفعهم نيتشه الى مصاف الآلهة ، ويقول فيهم « ليس أفظع على الارض من

المداوة بين الآلهة » . ويصبح الاجرام السياسي هجوماً على الحكم القائم ، ويمسي الدفاع عن هذا الحكم القائم ، دفاعا عن النفس والسلطة ... والعنف وحده هو الذي يقرر المصير ...

ان فلسفة كهذه تنسف الأسس الرئيسية لهذا النظام الرائع الذي نسميه اليوم ديموقراطية ...

في جمعية كهذه الجمعية ، يعاقب الاجرام السياسي بلا رحمة ولا انسانية ، ولذلك اعجب النظام النازي بهذه الأفكار واعلن هتلر نفسه ، بعد حوادث حزيران ١٩٣٣ الف وتسعمائة وثلاثة وثلاثين « سيد العدالة الالمانية الاعظم » .

وتذكرون حضراتكم ، ان فلسفة المانيا الهتلرية ، كانت قائمة على العرق وصفائه ، فالدم الآري هو الدم النقي الطاهر ، وانقى واطهر ما فيه ، هو الدم الجرماني . ولذلك كان من الطبيعي ان يحل مفهوم الشعب محل الدولة ، ويصبح الاجرام السياسي كل ما يمس مصالح الشعب ورئيسه . وقد بلغ بهم التطرف ان عاقبوا ما نسميه اليوم بلغتنا الجزائية ، الجريمة المستحيلة ، وهي وجود علاقات جنسية بين الماني وبين يهودية او المانية حسبها خطأ يهودية ....

والفهرر هو رئيس الشعب وسيده ، ويرى الاستاذ فرانك « ان ارادة الفهرر دعامة النظام ، فهي التي تحدد لكل مؤسسة واجباتها وحقوقها ، وسلطته مفروضة على المشرع والقاضي على السواء » ، وهكذا يكون مفهوم الدولة ، التي قدسها الطليان قد سقط سقوطا مخيفاً في المفهوم النازي ، الذي بني على « انقاذ القيم الحيوية للعرق الالماني » .

ولكي يتضح لكم كيف ينظر النازيون الى المجرم السياسي اتلو عليكم هذه الكلمة ، من مقال لفقيه الماني كبير ، هو الاستاذ (Dahm) : « ان الخيانة افظع من الجريمة ، انها افظع منها لدرجة يستحيل معها ان يبقى لهذا المجرم شرف ، لان الشرف ليس شيئاً خاصاً بالرجل الشريف ، وانما هو ملك مشترك بين افراد الشعب ، يناله المرء بوصفه عضو في الامة » .

ونلاحظ ان البوليس السري المعروف بالغستابو ، كان يلعب نفس الدور الذي يلعبه البوليس السري الروسي ، المسمى بالـ (G.P.ou) في مقاومة الاجرام السياسي ...

هذه لمحة موجزة عن فلسفة البلاد الاجتماعية حيال الاجرام السياسي . ولكن هذا التطور لم يعد قاصراً على هذه البلاد وحدها . فالبلاد الديموقراطية ، كما تسمي نفسها اليوم ، ونحن لانقرها على هذه التسمية ، اصابها رشاش العدوى ، ولكن بصورة اهدأ ..

ففي فرنسا صدرت ، في عام ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ، وفي خلال الحرب الثانية ، عدة قوانين ، انتهت الى تقسيم الجرائم السياسية الى زمرتين — زمرة « موجهة » ضد سلامة الدولة الخارجية ؛ « كالخيانة والتجسس وقد نزعت عنها الصفة السياسية وعوقب فاعلها ، بعقوبات عادية ، منها الاعدام ، وزمرة « موجهة ضد سلامة الدولة الداخلية ، وقد بقي لهذه طابعها السياسي ، واحتفظ لها بالمعاملة الرحيمة ، التي بشرت بها فلسفة القرن التاسع عشر .

اما عندنا فان العثمانيين رفضوا قبول المفهوم السياسي ، ونصوا عن جرائم هي عند غيرهم سياسة ، ولكن ليعاقبوها بشدة زائدة ، حتى أنهم حين كانوا يمنحون العفو في بعض المناسبات ، كانوا يستثنون المجرمين السياسيين دوماً ، وحين وقعت سوريا تحت الانتداب الافرنسي ، بقي مفهوم الاجرام السياسي غريباً عنها ، عدا ثلاثة نصوص وردت في ثلاث معاهدات عقدت بين سوريا وفلسطين ، وسوريا وشرق الاردن ، وسوريا والعراق ، اذ نص فيها جميعاً على عدم جواز تسليم المجرمين السياسيين ...

وجاء قانون العقوبات السوري عام ١٩٤٩ ، فاصبح لدينا مفهوم قانوني للاجرام السياسي ، وحين وضع الدستور السوري الجديد ، دخل هذا المفهوم في صلب قانوننا الاساسي ، اذ نصت المادة العشرون منه « لايسلم اللاجئون بسبب مبادئهم السياسية او دفاعهم عن الحرية » .

سيداتي وسادتي .

تحدثنا كثيراً عن الاجرام السياسي ، ولكننا لم نعرف بعدماهو هذا الاجرام السياسي ، الذي عامله قانوننا برفق فالغى عقوبةالاعدام من اجله،وحرم تسليم اللاجئين الى من يطالبونهم ، واوجد لهم عقوبات خاصة بهم ، وخفف عليهم في سجونهم .

في عالم الفقه . توجد عدة طرق لتعريفه ، نشير إلى أربع منها :

الاولى — تنظر إلى الدافع الذي دفع المجرم إلى جريمته ، فان كان هذا الدافع سياسياً ، كان الجرم سياسياً ، دون النظر إلى الحق الذي وقع عليه الاعتداء .

الثانية — تنظر إلى الحق الذي وقع عليه الاعتداء،فان كان هذا الحق سياسياً كان الجرم سياسياً ، دون النظر إلى الدافع .

الثالثة — تقرر المبدأ الأول أو الثاني ، ثم تستثني منه بعض الافعال الخطيرة .

الرابعة — تنفر من التعريف وتقول إنه مستحيل ، وترجح اختيار بعض القواعد العامة ، وتعطي أمثلة واقعية لها ، وتقول هذه وأمثالها سياسية فقط .

لذلك كان من الطبيعي أن يختلف التعريف باختلاف الطريقة المتبعة ، وكان من العسير جداً أن نعطي تعريفاً جامعاً مانعاً للاجرام السياسي ، يوفق بين مختلف النزعات . ولكن حين يقرر القانون طريقة ما ، وجب البقاء ضمن الاطار الذي رسمه القانون .

وقد عرف قانون العقوبات السوري الجريمة السياسية في المادة المئة والخامسة والتسعين وما يليها هكذا :

١ً — « الجرائم المقصودة التي أقدم عليها الفاعل بدافع سياسي » .

٢ً — الجرائم الواقعة على الحقوق السياسية العامة والفردية ، مالم يكن الفاعل قد انقاد لدافع أناني دنيء .

٣ً — تعتبر جرائم سياسية ، الجرائم المركبة أو الملازمة لجرائم سياسية ، ما لم تكن من أشد الجنايات خطورة من حيث الاخلاق والحق العام ، كالقتل والجرح الجسيم ، والاعتداء على الأملاك إحراقاً أو نسفاً أو إغراقاً ، والسرقات

الجسيمة ولا سيما ما ارتكب منها بالسلاح والعنف، وكذلك الشروع في تلك الجنايات ...

أما في الحرب الأهلية والعصيان، فلا تعد الجرائم المركبة أو الملازمة سياسية إلا إذا كانت عادات الحرب لا تمنعها، ولم تكن من أعمال البربرية والتخريب.

من هذا يتضح أن قانوننا دمج الطريقتين : الاولى التي تأخذ الدافع دعامة لها (وهي النظرية الشخصية) والثانية التي تنظر إلى الحق المعتدى عليه (وهي النظرية الموضوعية) ... وأضاف إليها الجرائم المركبة والجرائم الملازمة، مالم تكن من أشد الحالات خطورة. فبالاستناد إلى النظرية الاولى، يعتبر جرما سياسياً، كل جرم أقدم عليه الفاعل بدافع سياسي، وليس أصعب من تحديد صفة «السياسي» هذه فهذا اللفظ يضعنا امام مشكلة كبرى، وهي اننا نعرف الجرم السياسي، بالجرم المرتكب بدافع سياسي ... وهذا معناه تفسير الماء بالماء، ولعل أصح تحديد لهذه الزمرة من الجرائم، بهذا المفهوم الواسع، أن نستعير التحديد الذي جاء في الأعمال التحضيرية لقانون ١٩٢٧ الفرنسي، الخاص بالاسترداد وهذا نصه : « المجرم السياسي هو الذي دفعه حماسه وعاطفته العامة، دون سواهما، الى انتهاك حرمة القانون ». ويدخل في هذه الزمرة مثلاً، تحطيم تمثال أقيم لتخليد ذكرى شخصية سامية سياسية، من قبل أحد أخصامه الذين لايرون له أي فضل على البلاد ..

ان هذا الدافع يجب أن يكون شريفاً، ومتصلاً بالمصلحة العامة، لا بمصلحة الفاعل نفسه ... وبالاستناد الى النظرية الثانية، تكون الجرائم سياسية اذا وقعت على حق سياسي عام أو فردي. وقد أجمل الاستاذ (Roux) الفرنسي هذه الفكرة، (وهذا التعريف مستعار من الفقيه الألماني فون ليست)، بقوله ان هذه الجرائم تقع على المجتمع، لا بوصفه متمتعاً بحقوق أو أموال، ولا على أحد افراده، ولو كان قائماً بوظيفة عامة. وانما تقع على المجتمع بوصفه أمة، وتقع على الشكل الدستوري القائم، والمؤسسات العامة المنبثقة عنه .. وعلى هذا تكون جرائم سياسية، الجرائم الواقعة على شكل الحكومة، وتنظيم السلطات العامة وعلاقاتها بعضاً ببعض

والمؤسسات الدستورية ، وحقوق المواطنين السياسية . كحق الانتخاب وحق الترشيح ، وكذلك الجرائم الواقعة على استقلال الدولة ، وسلامة أرضها ، وعلاقتها مع الدول الاجنبية .

غير أن الشارع الفرنسي عاقب الجرائم السياسية الموجهة ضد سلامة الدولة الخارجية بعقوبات عادية عام ١٩٣٨ ، ومعنى هذا انه أخرجها ، عملياً من حظيرة الاجرام السياسي .

ولكن الشارع السوري اشترط ان لاتكون جرائم الزمرة الثانية ، مرتكبة بدافع اناني دنيء ، كأن يعمل هذا الفاعل لارضاء شهوات شخصية، او لاعتبارات وضيعة ، ككسب المال والبحث عن منصب ...

وبالاستناد الى الفكرة الثالثة . تعتبر جرائم سياسية الجرائم المركبة والجرائم الملازمة ، فالجرائم المركبة هي الجرائم الواقعة على حق شخصي يحميه القانون ، لتحقيق غاية سياسية ، كتحقير شخصية سياسية اثناء مظاهرة عامة، وكتاب مقال فيه طعن لايسمح به القانون في حق أحد الخصوم السياسيين . والجرائم الملازمة هي جرائم عادية ترتكب بمناسبة جريمة سياسية ، كسرقة الأسلحة من مخزن تاجر، لارهاب السلطة القائمة ، أما اذا كانت السرقة للتصرف بالأسلحة ، فالفاعل مجرم عادي ...

ولكن اذا كانت هذه الجرائم المركبة أو الملازمة ، التي يمتزج فيها حق شخصي وقصد سياسي ، من أكثر الجرائم خطورة كما يقول القانون ، فانها تخرج عن كونها جرائم سياسية ... فمن يقتل رئيس الدولة لغاية سياسية ، لايعتبر مجرماً سياسياً ، لأن رئيس الدولة ، أو رئيس الوزراء ، أو الوزراء ... أشخاص عاديون لهم حق في الحياة وفي حماية القانون ... وقد تقرر هذا المبدأ منذ المعاهدة المعقودة بين فرنسا وبلجيكا عام ١٨٥٦ ، حيث نص فيها ، على أن الملجأ السياسي لايمنح لمن يقتل الملك أو أحد الوزراء أو الأمراء . وقد قال تعالى « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق » ، أي عندما ينص القانون على اجازة هذا القتل ، كاعدام المجرم مثلاً ...

سيداتي وسادتي :

كان حديثي حتى الآن عن الاجرام السياسي ، حديث من يتكلم لغة القرن التاسع عشر ، يوم لم يكن للاجرام السياسي ، هذا الخطر الذي له اليوم . . . ومها تلطفنا بالحديث ، وعمدنا الى التشابيه والكنايات والاستعارات ، فان الاجرام السياسي ، هو اجرام قبل كل شيء ، ثم اتصف بانه سياسي . واذا كان قتل انسان ييتم أسرة واحدة ، اذا كان للمقتول أسرة ، فان خطر الاجرام السياسي ، أشد وأعنف ، لأنه يشمل الأمة كلها ، فيهز كيانها هزاً ، ويفتح عليها أبواب صعوبات ومشاكل قد تعرف أولها ، ولكنها على التأكيد تجهل آخرها ... ومن هنا كان بعض الاجرام السياسي ، ضرباً من الخيانة ، ان لم يكن في نظر القانون ففي نظر المجتمع على الأقل ...

والاجرام السياسي كالمرض المعدي ، ينتقل من المريض الى الصحيح ، ويخصب وينمو في البلاد القلقة سياسياً ، والمضطربة اجتماعياً .. لأن الدم يتطلب الدم ، ولا توجد وسيلة للقضاء عليه ، غير احترام ارادة الأمة . وازالة أسباب التبرم . فالبلاد التي رسخت فيها مباديء الحكم الدمقراطي ، لا تعرف الهزات السياسية ، الناجمة عن الجرائم السياسية ، والبلاد التي لم يتكامل نضجها السياسي ، هي التربة الخصبة للقلاقل والمشاكل ... وكم من شعوب فقدت حريتها بسبب وضعها الداخلي قبل أن يغزوها الغزاة الخارجيون . لذلك كان الرأي العام أسبق في الحكم على المجرم السياسي ، من المحاكم التي تحاكمه لأن المجتمع لا يعدل شيئاً بالسكينة والهدوء . واذا كان المجرم السياسي يبحث عن اصلاح الوضع ، فهناك وسائل أخرى غير الجريمة . وقد قلت في مطلع هذه المحاضرة ، ان المجرم السياسي في عواطفه السياسية ، كالشاعر الملهم في عواطفه الغزلية ، واذا كان من حق الشاعر ان يتغنى بليلاه ، فليس له أن يشوه سمعتها ، ويؤذي كرامتها ، وكرامة ذويها . . وانه لمن حق كل من يفكر تفكيراً سياسياً صحيحاً ، أن ينشد الاصلاح ، ومن الخير له وللمجتمع ان ينشده عن غير طريق الجريمة . والسلام عليكم .

اصلاح نظام التعليم (١)

للدكتور فاخر عاقل

يحار الناظر في امر هذه الامة ، المعدد لمشاكلها، في قدر هذه المشاكل وتقديم بعضها على الآخر . والحق أن المشاكل كثيرة مختلفة ، والحق ان من المستحيل نسبة الاهمية لواحدة منها دون الاخرى ،والحق أنها كل لا يتجزأ . ولا بد لمن يتصدى للكلام عن واحدة منها من ان يذكر دوماً ان من العبث ان ينسى اهمية المشاكل الباقية ، ومن الحمق ان يحاول حل احداها على حساب الاخرى .

واذا كانت هذه المشاكل قد لخصت بالفقر والمرض والجهل ، فالفقر والمرض والجهل أصناء متلازمة لا نستطيع ان نعرض لواحد منها دون التعرض للصنوين الآخرين. واذا كان هذا الحديث يتناول الجهل ووسائل القضاء عليه بالشرح والنقد والاقتراح ، فلا معدى لنا عن التعرض للفقر والمرض بيسير من الكلام والايضاح .

اما الفقر فأمره واضح لكل ذي عينين،مرده الى التقصير في استغلال ثروات البلاد والتفريط في حقوقها في هذا الاستغلال ، وهو مردود بعد ذلك الى التوزيع السيء لما بين يديها من ثروة ـ على قلة هذا الذي بين يديها من هذه الثروة ـ وتجميعه في أيد قليلة . الفقر أم الخبائث ، ولا خلاص هذه الامة من واقعها الاليم ولا حل لمشاكلها الا بتخليص المواطنين من الفقر وتحريرهم من العوز وتمكينهم من حياة تليق بالانسان وكرامته .

واما المرض الذي يهد جسوم المواطنين العرب ويجعل منهم شعباً عاجزاً كليلاً

---

(١) القيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ٥١/٣/٢١

فسببه الفقر أولاً وآخراً .. واذا كان صحيحاً ان البداوى والفلاح والعامل لا يعرفون قيمة الصحة وأساليب العناية بها ولا يحرصون على الوقاية والشفاء، فانه صحيح أيضاً أنهم كانوا يكونون قادرين على ذلك كله لو مكنوا منه وليس لاحد في رأينا ان يطالب الجائع العريان والمحروم المظلوم بالحرص على حياة الموت خير منها وعبودية لا أول لها ولا آخر .

وأما الجهل، ذلك العار الذي تتصم به غالبية الامة العربية والذي يحول بيننا وبين اللحاق بموكب الانسانية والمساهمة في تراثها وتبوء مكان محترم فيها فالاصل فيه الفقر ايضاً ، فقر الفرد الذي يمتنع عن ارسال ابنه الى المدرسة ـ اذا وجدت ـ بغية الاستعانة بأجر هذا الابن او عمله ، وفقر البلاد التي تتمنى ان توفر لابنائها العلم فلا تستطيع ذلك لما يقتضي من نفقات وتكاليف . ولابد لنا هنا من أن نسجل ـ فخورين ـ رغبة المواطنين العرب، على اختلاف طبقاتهم ،في تعليم أبنائهم واقبالهم على المؤسسات التعليمية اقبالاً يدل على مدى الامكانات العربية الكامنة المكبوتة ، وغنى الآمال العربية المتطلعة الى حياة حرة سعيدة ، ولكننا لانستطيع الا أن نسجل الى جانب ذلك ارتداد هؤلاء المواطنين خائبين متألمين لقلة المدارس وعدم كفايتها لمواجهة حاجة البلاد .

أيها السادة !

لعل أثمن ما في حضارة اليوم هو فكرة الكرامة الفردية ، كرامة الانسان لأنه انسان ، وبقطع النظر عن محتده ومكانته الاجتماعية وعرقه وجنسه ولونه وغير ذلك من اعتبارات . ولعل اجمل ما في الاشتراكية ايمانها بان الانسان أثمن رأس مال، ولعل جوهر الديموقراطية احترامها المواطن وتوفرها على تهيئة الفرص له لكي يعبر عن ذاته ويحقق امكاناته ويندفع في خدمة بلاده وانسانيته من خلال خدمته لذاته ، ولعل حقيقة المساواة التي جعلها الانسان الحديث مطلباً له وشعاراً هو المساواة في الفرص المتاحة. ولعل الذي ينقصنا في بلادنا العربية هو احترام الكرامة الفردية واعتبار المواطن أثمن رأس مال ، وتوفير الفرص للمواطنين لكي يعبروا عن

امكاناتهم ويستثمروا مواهبهم ، والتسوية بين هذه الفرص لافرق في ذلك بين غني وفقير او حاكم ومحكوم .

ومهمة التربية الحديثة مستوحاة من فكرة الديموقراطية ، قائمة على فكرة الكرامة الشخصية من جهة وفكرة تساوي الفرص المهيئة للمواطنين من جهة ثانية ، وفكرة تمكين الفرد من التعبير عن قدراته ومواهبه وامكاناته من جهة ثالثة ، والتربية الحديثة انما تستمد اهميتها من هذه المهمة ومن ايمان العلم ايماناً متزايداً بأهمية المحيط وقيمة التربية .

ولو نظرنا في واقعنا لراعنا منه ، في جملة ماقد يروعنا ، أمران خطيران هما : الامية المتفشية والتعليم المخفق . أما عن الامية فحسبنا أن نذكر أن اكثر من خمسة وسبعين بالمائة من مجموع العرب اميون . ومن المعلوم ان هذه النسبة ترتفع في بعض الاقطار العربية الى اكثر من ٩٥٪ ولا نظننا بحاجة للتذكير بمعنى هذه الحقيقة ، ولكننا نحب أن ننبه الى أن ضررها لايقتصر على الناحية العلمية الثقافية وانما يتجاوزها الى النواحي الاقتصادية والصحية والاجتماعية والقومية والانسانية . فالعامل او الفلاح المتعلم اقدر على الانتاج والعناية بصحته ، والمواطن المتعلم أقدر على فهم حقوقه وواجباته وهو لذلك اكثر تعلقاً ببلاده واخلاصاً لقوميته وفهماً لانسانيته ، انه ضمان لحرية بلاده واستقلالها ورفاهها وسعادتها ، وهو لذلك ضمان للسلام العالمي والانسانية السعيدة .

ولو تركنا الاميين جانباً لننظر في أمر المتعلمين فان الصورة لاتحسن كثيراً ، ذلك ان المنصف لايستطيع ان يصف متعلمينا الا بالاخفاق .

ان من عمل التعليم والتربية ان يساعد المتعلم في ميادين ثلاث هي : العلم والعمل والخلق . اما علمنا فسطحي اجوف يكتفي بالعرض ولا يصل الجوهر ، يقنع بالاسماء والتعاريف ولا يعرف الحقائق والفحاوى ، واما أعمالنا فمترددة متعثرة مخفقة ، واما اخلاقنا فعلمها عندكم ... واذا كان المقام ليس مقام هجاء فانه بالتأكيد مقام تعيين مسؤوليات ومسؤولين ، واذا كنا لانحب ان نخوض في أمر هذه المسؤوليات والمسؤولين ، فاننا نحب أن نسجل أن من جملة المسؤولين عن هذا الاخفاق هو نظامنا التعليمي الفاسد

ولعل أول ما يدهش الملاحظ من هذا النظام التعليمي أنه نظام لاغاية له ولا هدف ، وأغلب الظن أنه لو كلف واحد من المسؤولين نفسه مشقة السؤال عن هدف التعليم في بلادنا لما استطاع ان يجد له هدفاً واضحاً وغاية معقولة ، ولا كتفى باصطناع بعض الاهداف العامة الغامضة التي لاتدل على شيء كثير . وغني عن البيان ان الغاية تعين الواسطة وان الوسائل لاتتضح الا بالاهداف ، وغني عن البيان ايضاً ان الذي يخبط في الظلام الى غير ما غاية لاينتهي الا الى الفوضى والتقصير .

وعدم وجود هدف للتعليم يحتم عدم وجود سياسة تعليمية للبلاد وعدم وجود مشاريع تربوية فيها . إن سياسة التعليم في بلادنا ارتجال يتغير بتغير المسؤولين ويتبدل بتبدل أهوائهم وأمزجتهم . فاذا أضفنا إلى ذلك عدم الاستقرار الذي ابتلت به البلاد منذ مطلع هذا القرن والنتائج التي جرها عدم الاستقرار هذا وفي مقدمتها تبديل الموظفين الدائم أدركنا السبب في التخبط والفوضى اللذين يسودان سياستنا التعليمية .

وأظن أن الوقت قد حان لكي يحزم أهل الربط والحل في الدولة أمرهم على أن المصلحة العامة تقضي بجعل الموظفين بمنجاة من السياسة والأهواء الحزبية واعتبارهم اخصائيين لا يتبدلون بتبدل الوزراء أو بتبدل أهوائهم وأن هذا هو السبيل الوحيد إلى خلق سياسات للبلاد تعليمية واقتصادية وصحية وغير ذلك .

والتعليم في بلادنا شأنه في ذلك شأن غيره ، ارتجال تمليه الحاجة وتحتمه الظروف ، والارتجال موصوف دوماً بالقصور ، رغم كل الذكاء الذي قد يتصف به المرتجل ، والارتجال عيب رغم كل ماقد يسد من حاجة أو يقضي من غرض . إن العصر عصر مشاريع مدروسة معين وقتها ، وأنه لخير لنا أن ننشىء مدرسة صالحة واحدة في السنة من أن ننشىء مدارس كثيرة فاسدة . وإذا كانت الحجة التي تتخذ عادة هي إلحاح المواطنين وإقبالهم الشديد فان الرد بسيط ميسور ألا وهو وجوب إعداد وزارة المعارف العدة قبل حين وتهيئتها كل شيء قبل ابتداء العام المدرسي على الأقل . ثم إذا كانت هناك حجة لافتتاح المدارس دون تهيئة أو

استمداد فما الحجة في الانخفاض المستمر لمستوى التعليم والكتب التعليمية مثلاً ؟!

وما تعليمنا إلا كلاماً كثيراً ونظريات أكثر، وعملاً قليلاً وانتاجاً أقل.

وإذا كان صحيحاً اننا قوم نظريون ميالون إلى الكلام الكثير نزاعون إلى القول أكثر من العمل، وإذا كان صحيحاً أن نظام التعليم العثماني ومن بعده نظام التعليم الافرنسي اللذين سادا البلاد مدة طويلة قد قويا هذه النزعة الكلامية عندنا، فانه صحيح أيضاً أن من واجب المدرسة أن تعمل على محاربة هذه النزعة وأن تبحث عن الوسائل العملية التي تخفف منها وتستغلها في الخير. ولعله من نافلة القول أن نذكر بان العصر عصر عمل وأن الآلة، سيدة هذا الزمن، لم تعد تسمح للكلام المنمق المذوق بالسيادة، بل هي خصت بالسيادة من يعرفها ويعرف الاستفادة منها. إن من عمل المدرسة أن تحبب الناس في العمل المجدي المثمر، وإن من واجباتها أن تعمل على تغيير العقلية التي مازالت تعتبر الوظيفة الحكومية شرفاً، والعمل الكتابي وجاهة، وتنظر إلى العمل اليدوي على أنه أقل مكانة وأحط منزلة من العمل (الرسمي)، وانها لبادرة حسنة، وإنه لفأل خير أن نرى أن الحال بدأ يتغير بعض التغير في البلد أو في العقول على الأقل وأن نلحظ شيئاً من الانصراف عن الوظائف بعد ما أنس الناس قلة واردها وشدة أسرها وقساوة قيودها وصعوبة الاثراء من ورائها كما كان الحال فيما سبق. ولكن من الحق علينا أن نسجل أن الفضل في هذا ليس للتوجيه التربوي أو العمل المدرسي، إنما هو فضل الحال الاقتصادي في البلد الذي أظهر للناس أن هكتاراً من الارض يزرع قطناً خير من كرسي في الجامعة وأن آلة نسيج صغيرة خير من أمانة عامة في الدولة. ولقد آن لنظامنا التربوي أن يوجه الناس نحو العمل وأن ييسره لهم بأن ينشيء مدارس عملية محترمة وإمكانات عملية تسمح بالعيش اللائق بالانسان.

وهذا الذي قلناه يشير إلى النقص الفاضح في نظامنا التربوي حين خلا من كل توجيه مهني فقضى على كثير من المواهب وحكم على كثير من متعلمينا بالعذاب الدائم والفشل السرمدي.

إن مقاييسنا لتوجيه المتعلم السوري نحو المدرسة الثانوية العامة او مدرسة الصناعة او الزراعة او التجارة هي الصدفة او الواسطة أو الحالة المادية أو العلامات التي نالها المتعلم في فحص الشهادة ، وهي مقاييس ناقصة ما في ذلك من شك . ولقد آن للمسؤولين أن يقرروا معنا أن الناس يولدون بقدرات مختلفة ومواهب متباينة وأن فيهم من يتمتع بمواهب عملية كما ان فيهم من يولد مزوداً بقدرات نظرية لغوية او رياضية او غيرها وان من الظلم للبلاد والعباد أن يوجه الذي يتمتع بمواهب عملية نحو المدرسة الثانوية العامة ، كما أن من الاجحاف أن يساق الذي يتمتع بمقدرات نظرية إلى المدارس الصناعية مثلاً . ولقد آن للمسؤولين أن يعترفوا ان الطبيعة حين منحت القدرات للناس لم تأخذ بعين الاعتبار فقرهم ولا غناهم ونبل محتدهم أو عدمه . أما القول بأن المسؤولين لا يجهلون هذه الحقائق ولكنهم لا يملكون وسائل تحقيقها فجواب غير مقنع . إن البلاد لا تستطيع أن تنتظر أكثر مما انتظرت ، فالعالم يسير ونحن واقفون . والخصوم أقوياء بعلمهم وعملهم ونحن ضعاف بجهلنا وكلامنا الكثير .

ولو تركنا هذا كله إلى مدرستنا لراعنا منها بعدها عن الحياة والمحيط . إنها تعيش في واد والعالم من حولها يعيش في آخر ، ولقد أصبح من النكات الشائعة وصف بعض الاقوال الخيالية بأنها (كلام مدارس) و (حديث كتب) .

ولبعد المدرسة عن الحياة والمحيط أسباب في جملتها : مركزية التعليم وحرمان السلطات المحلية من المشاركة فيه ، وسلب المعلم حرية التصرف لتلبية الحاجات المحلية . إن المدرسة مخلوق حي يجب أن يكون له ما للأحياء من حيوية ونشاط وقدرة على التطور والتكيف وفق حاجات الزمان والمكان ، وهي ككل مخلوق حي تعيش في مكان معين يتميز بميزات خاصة فلا بد لها إذا أرادت أن تدلل على حيويتها ونشاطها من أن تتعامل مع هذا المحيط ، تتكيف معه وتكيفه ، لا سيما وأن لها صفة القيادة والتوجيه ، وإن من واجباتها أن تكون مركز إشعاع ومصدر نور . والمدرسة لا تستطيع أن تعيش — مثلها في ذلك كمثل كل الاحياء —

إلا إذا أخذت من محيطها وأعطته وعملت على الاستفادة منه وأفادته . وهذا لايكون إلا إذا كانت لها حرية التصرف وتحمل المسؤوليات .

ومعنى هذا أن تقوم بين السلطات المدرسية من جهة والسلطات المحلية من جهة أخرى علاقة وثيقة مبنية على التفاهم والتعاون .

وقد يقول محتج انا قوم فرديون لانعرف التعاون ولا نميل اليه ولذلك فلا بد لنا من المركزية ولاغنى لنا عن ارجاع الأمور الى اوليائها في مراكز المحافظات والعاصمة . والجواب على ذلك ان ما من انسان يولد فردياً بحتاً او تعاونياً محضاً . ان في الطبيعة البشرية ميلاً الى التعاون كما فيها ميل الى الانانية والفردية ، وان من عمل التربية والمحيط ان يعلما الانسان التعاون والغيرية ، فاذا ثابرنا على عدم التعاون لاننا انانيون ، وابقينا على الانانية لاننا لانعرف التعاون حكمنا مع انفسنا بالدوران في هذه الحلقة المفرغة الى ما شاء الله ، ان من عمل المدرسة ان تربي في المتعلم روح التعاون والتآلف والتآزر ، وهي لهذا مضطرة للتعاون مع الاهل والمواطنين والبلديات كما انها ملزمة بتلبية حاجات المحيط والنهوض به . ولا يكون هذا الا اذا اعطيت المدرسة حريتها وترك لها — مع مقدار مناسب من التوجيه والارشاد — ان تأخذ من المحيط وتعطيه وتتعاون معه في اداء رسالتها .

ثم ان النظام التعليمي المخفق الذي وصفنا هو السبب في اخفاق متعلمينا واليه يرد ما مانجد في طلابنا من تميع وتمرد وجهل . ان مدرستنا الدائبة على حشو اذهان طلابنا بما لا يمت الى حياتهم بصلة ، الجاهدة في اشغالهم بما لا يتصل بميولهم ورغباتهم ولا يناسب اعمارهم وهواياتهم هي السبب في جهل طلابنا واضراباتهم واستهتارهم بالقوانين والنظم . ولا احب ان يفهم من قولي هذا اني القي المسؤولية على المعلم وحده او على نظامنا التعليمي بمفرده فأنا اعرف — كما يعرف غيري — ان هناك اسباباً عديدة مختلفة ، ولكنني اعرف بعد ذلك ان قسط المدرسة والنظام التعليمي من هذه المسؤولية كبير .

ان في اصلاح نظام التعليم عوناً كبيراً على اصلاح وجوه الحياة الاخرى في البلاد

ولو استطاعت المدرسة ان تنهض بما يتوجب عليها،واخرجت للبلاد اجيالاً صالحة موجهة توجيهاً حسناً ، ممكَّنة من الافادة من مواهبها وقدراتها ، واعية لواجباتها ومسؤولياتها ، لاستطاعت ان تساهم في حل مشا كل البلاد مساهمة مثمرة .

اما بعد فأنا اعلم ان العمل ضخم عظيم ، وانا اعلم انه يقتضي جهداً ومالاً ،وانا اعلم انه بحاجة لخبرة و كفاءة ، ولكنني ارى ان الوقت قد حان لكي يخص التعليم بميزانية كافية ، ويوفر له الخبراء المخلصون . ان التربية علم وخبرة واخلاص .

ايها السادة !

قلنا ان الأمية التي تصم اكثرية الشعب والاخفاق الذي يتصف به تعليمنا هما اخطر ادوائنا التربوية ولذلك كان لابد من العمل على مكافحة الأمية والنظر في امر تعليمنا ومحاولة اصلاحه .

اما مكافحة الأمية فتكون عن طريق خلق دوائر خاصة في وزارة المعارف تضع الخطط والمشاريع وتنفذ هذه الخطط والمشاريع ، ومعنى ذلك جعل نظامنا التعليمي مكوناً من قسمين يعنى احدهما بتعليم الصغار بالوسائل المعروفة ، في حين يعنى الثاني بتعليم الراشدين فيحارب اميتهم ويعمل على ترغيب المتعلمين منهم في متابعة تثقيفهم والاستزادة من المعارف العلمية والعملية والفنية : وذلك عن طريق المعاهد التطبيقية والكليات الشعبية النهارية منها والليلية .

ولا تجدي الأساليب الحاضره ، اساليب التطوع والتبرع ، في مكافحة الأمية بل لابد لذلك من مشاريع مرسومة تحدد وقتاً للقضاء على الأمية وتوجد لذلك المؤسسات اللازمة ، كما تحضر له الاخصائيين وتوفر المال والعدة الكافية . ان من الواجب تجنيد الشباب المتعلم لهذا الغرض ،تجنيداً اجبارياًماجوراً ، ولابد من ايفاد بعض الشباب للتخصص في هذا الأمر ،واجبار شيوخ القبائل و كبار الملاكين واصحاب الاعمال على خلق مؤسسات في قبائلهم او قراهم او معاملهم تعمل لهذا الغرض بالتعاون مع الحكومة . ولا غنى بعد ذلك عن مساعدة القائمين على الجيش السوري في جهدهم لمحاربة الأمية ، بمعناها الواسع بين المجندين. ولا يكفي انْ نقضي

على الأمية بل لابد من ان تتابع دوائر تعليم الراشدين الواجب خلقها في وزارة المعارف الاهتمام بأمر هؤلاء الراشدين فتوجد لهم معاهد ومدارس تطبيقية تفتح ابوابها في المساء وفي ايام العطل ليتلقى فيها العامل والفلاح وصاحب العمل الصغير دروساً تثقيفية عامة تقضي على اميته بمعناها الواسع ، فتعلمه بسائط المعرفة وتشرح له اسرار الكون الذي يحيط به وتزوده باصول حفظ الصحة ومبادئ الصناعة او الزراعة او التجارة كما تمكنه من ثقافة قومية سياسية تعرفه على حقوقه وواجباته وتجعل منه مواطناً واعياً يحب بلاده حباً حقيقياً ويفهم مشاكلها فهماً صحيحاً .

ولابد بعد ذلك من كليات شعبية ومدارس تطبيقية عليا يدرس فيها الراشد دروساً تثقيفية عامة ودروساً علمية خاصة كما يدرس فيها دراسة تطبيقية عملية تمكنه من اتقان عمله والنبوغ فيه . وليس هذا الذي نطلب بدعة من عندنا بل هو امر اصبح شائعاً في كثير من البلاد الراقية ، وفيه تجارب للامم المختلفة نرى من المفيد ان نعرض لبعضها .

أما في الدانمارك فقد أنشىء ما يسمى بالمدارس الشعبية الراقية (١) (Folk-highschols) والمدارس الشعبية الراقية الدانماركية مدارس داخلية . وتنقسم الدراسة فيها الى فصلين : فصل الصيف ، ومدته ثلاثة أشهر ، غالباً للنساء ، وفصل الشتاء ، ويستغرق خمسة أشهر ، ويخصص عادة للرجال . وطلبتها أغلبهم فلاحون وملاكون صغار ، ويقصدها عدد قليل من العمال ، وجميع الطلبة فوق الثامنة عشرة من العمر اذ تصر هذه المدارس على ان لا يلتحق بها طلبة اصغر من هذا السن . وربع طلبتها فقط ممن احرزوا تعليماً أرقى من التعليم الاولي (٢) ، أما بقيتهم فممن

---

(١) انظر (صحيفة التربية) ـ السنة الثانية ـ العدد الرابع ـ ص ١٥ ـ ٢١ ـ مقال للدكتور عبد العزيز السيد ابراهيم .

(٢) يقصد الابتدائي .

قضوا السنين التي بين الرابعـــة عشرة والثامنة عشرة في فلاحة الارض أو غيرها من الاعمال .

ويبلغ عدد هذه المدارس في الدانمارك سبعاً وخمسين مدرسة ، تمنحها الحكومة اعانات مالية لمساعدتها على نفقاتها . ومع أن الطلاب يقومون بدفع الجزء الاكبر من النفقات فانه مما يثير الدهشة ان ٣٠ ٪ من طوائف المزارعين قد التحقوا بهذه المدارس بغية توسيع ثقافتهم وتلقي أنواع من الدراسة قد لا تبدو وثيقة الصلة بما يزاولون من مهن .

ومنهاج الدراسة في هذه المدارس لا يحوي تعليماً مهنياً . بل ان الموضوعين الرئيسيين في برنامجها هما الأدب والتاريخ ، ويضاف اليهما الانشاء واللغة والرياضة ومبادىء العلوم والرياضة البدنية والخياطة للسيدات . وليس معنى ذلك أن هناك برامج موضوعة ، فجو هذه المدارس خال من روح الالزام والامتحانات والشهادات . والتعليم فيها اجتماعي في صميمه ، وهو أثر للحياة المشتركة بين الطلاب والاساتذة . فبالعيش سوياً وبالاحتكاك والمحادثات الشخصية يتعلم الطلاب بعضهم من بعض ومن الاساتذة — وليست الغاية تلقين المعارف ، بل إيقاظ الذهن والشخوص الى المثل العليا .

ويقوم اكثر هذه المدارس خارج المدن وتتوافر فيها كل أسباب الراحة والبهجة والجمال ، فتحيط بها الحدائق ، وتزين جدرانهـا الصور ، وهناك عناية فائقة بالفن والموسيقى ، مما يجعل حياة الجماعة المشتركة ذات جاذبية تحببها الى القلوب .

وفي انكلترا كليات لتعليم الكبار سنعرض لها فيما بعد .

اما الاتحاد السوفيتي فقد كانت فيه مدارس لمكافحة الأمية تعلوها مدارس للراشدين من الدرجة الاولى (Adult schools of first grade) تتلوها كليات للعمال (Worker's faculties) ومدارس للراشدين من الدرجـة الثانية (Adult Schools of 2d grade) وهذان النوعان من المدارس يوصلان الى الجامعة شأنها في ذلك شأن المدارس العادية . كما كان في الاتحاد السوفياتي مدارس للثقافة

السياسية للراشدين من درجات مختلفة . وقد وصف كاندل(Kandel)[١] هذه المدارس كلها بما يلي : « تتلو مدارس مكافحة الأمية مدارس منظمة من أجل العمال والفلاحين الذين تجاوزوا السابعة عشرة من عمرهم . وتهدف هذه المدارس الى اعطاء طالبها نفس الثقافة التي يتلقاها طالب المدرسة الثانوية وذلك خلال ثلاث سنوات يتكون اسبوعها الدرسي من ٢٠ ساعة. وتشتمل الدراسة في هذه المدارس على أشغال عملية تتصل بعمل الطلاب ودراسات وثيقة الصلة بالحياة وموجهة نحو تقدير معنى العمل ، كما تشتمل على اعمال في المخابر والمكتبات وزيارات المزارع والمعامل والمتاحف . ويتلو هذه المرحلة نوع آخر من مدارس الراشدين وذلك في مدارس مسائية يرتادها الطلاب الذين تزيد أعمارهم على الثامنة عشرة . ومدة الدوام على هذه المدارس تتراوح بين ساعتين وأربع ساعات أسبوعية خلال عام أو عامين . والدراسة هنا عامة وخاصة ، سياسية وتعاونية ، زراعية وصناعية . ويتلو كل هذا (جامعات العمال المسائية) التي تقدم دراسة تدوم سنتين أو ثلاثة . ومستوى الدراسة في هذه الجامعات أعلى من مستوى المدارس السابقة كما أن الاهتمام بالسياسة فيها أشد وأعم » .

ويتصل بهذه المدارس وسائل كثيرة أخرى لتربية الراشدين منها النوادي وغرف القراءة ودور السينما والتمثيل والحفلات الموسيقية والمحاضرات وجرائد الحائط والرحلات والمكتبات المتنقلة وغيرها .

كان هذا كله قبل الحرب وسنعرض فيما بعد إلى ما في الاتحاد السوفياتي الآن من مؤسسات تعني بتربية الراشدين .

ولقد حاولت مصر أن تعمل على تثقيف الراشدين فيها فأنشأت ماسمته بالجامعة الشعبية التي تحاول تحقيق الاغراض التالية[٢] :

---

(1) Kandel, J. D — comparative Education. P. P. 182 — 83, Houghton Mifflin co. N. Y. 1933

(٢) انظر (دليل الجامعة الشعبية سنة ١٩٤٧)

(١) تنظيم دراسات عقلية وفنيـة لتكوين الشخصية وترقية الملكات ورفع المستوى الثقافي .

(٢) العمل على نشر الثقافه العامة بين طبقات الشعب على أساس من الرغبة الشخصية ودون اشتراط مؤهلات معينة .

(٣) المساهمة في ايقاظ الوعي القومي عن طريق العمل على رفع المستوى العام الفكري والاجتماعي .

(٤) العناية بنواحي النشاط الاجتماعي للطلبة المنتسبين للجامعة عن طريق تنظيم رحلات واقامة حفلات رياضية وترفيهية .

وقد جاء في دليل الجامعة الشعبية لعام ١٩٤٧ ما يلي :

« والجامعة الشعبية . . . يمتد نشاطها الى من كوفحت اميتهم لتزويدهم بقسط مناسب من الثقافة العامة بل ومن التوجيه المهني المثمر ، والى متوسطي الثقافـة لترفع من مستواهم وتجعلهم قادرين على مسايرة الحضارة فيستطيع من قعدت بـه ظروفه عن الاستزادة من العلم ان يجد مجالاً بعد اتصاله بالحياة للتزود من ألوان المعرفة بقسط أوفى » .

ولقد وزعت الجامعة الشعبية أعمالها على شعب مختلفة هي :

(١) الشعبة السياسية ، (٢) الشعبة التاريخية ، (٣) الشعبة الادبية ، (٤) الشعبة الطبية والصحية ، (٥) الشعبة الاجتماعية ، (٦) الشعبة الفنية (موسيقى وتصوير وزخرفة ونحت) ، (٧) الشعبة العلمية ، (٨) الشعبة التجارية ، (٩) الشعبة الصناعية الزخرفية ، (١٠) الشعبة النسوية ، (١١) الشعبة الصناعية الميكانيكيـة ، (١٢) الشعبة الزراعية .

وقد نظمت الجامعة محاضرات ثقافية عامة وأوجدت وحدات ثقافية ريفيـة متنقلة وحرصت على ايجاد قسم خاص للسينما الثقافية وآخر لتشجيع الموسيقى .

والانتساب للجامعة الشعبية مباح للجنسين ، ويشترط في المنتسب ، ان لا تقل سنه عن السادسة عشرة وان يكون ملماً بالقراءة والكتابة وان يدفع مائتي مليم

رسم قيد و ٥٠ قرشاً اذا انتمى للشعبة الصناعيـة او الشعبة النسوية للطهي ، ٢٥ قرشاً اذا انتمى للشعب الاخرى وذلك نظير استهلاك المواد الخام في الدروس العملية وفي الشعب التي تحتاج لمثل هذه الدروس فقط .

وقد نص نظام هذه الجامعة على ان تكون مدة الدراسة فيها مرنة جداً تبدأ من (أوائل الخريف) لتنتهي في (أوائل الصيف) على ان يستمر نشاط الجامعـة الثقافي طوال أشهر الصيف .

أما مناهج الدراسة فمرنة تتسع لأي تعديل أو تغيير جديد .

ولندع تعليم الراشدين لننتقل الى تعليم الأطفال محاولين النظر في نظامنـا الحاضر واكتشاف بعض ما فيه من أخطاء علنا نصل الى بعض الاقتراحات في الاصلاح

مما يسترعي الانتباه في تعليمنا الابتدائي قصر مدته ، واذا ذكرنا ان المدرسة الابتدائية هي مدرسة الشعب ، المدرسة التي يأمها القسم الأكبر من ابنائه ولا يتجاوزها الا القليلون منهم ، وأضفنا الى ذلك انها المدرسة الالزامية ـ ولو نظرياً ـ ظهر لنا بوضوح وجوب زيادة عدد سنيها . ولعلنا لانبالغ حين نقول ان مدة الدراسة الابتدائية في أكثر أنحاء العالم تزيد عن الخمس سنوات ولا تقل عن ذلك الا حين يكون التعليم الالزامي المنفذ يتجاوز في مدته سني هذه المدرسة .

ثم ان مدرستنا الابتدائية مأخوذة بشهادة التعليم الابتدائي لدرجة انها تهمل كل شيء في سبيل احراز تلاميذها على نسبة نجاح عالية في هذه الشهادة . ان هذا التسابق بين المدارس على نسبة النجاح من جملة المسؤولـين عن تقهقر المدرسة الابتدائية . ونحن لا نرى مبرراً لوجود فحص رسمي لهذه الشهـادة الا الاعتماد على العلامات التي ينالها الطالب فيها لادخاله المدرسة الثانوية . وهذا المقياس خاطيء ما في ذلك من ريب .

اذن فنحن نقترح أن تكون مدة الدراسة الابتدائية ست سنوات لا خمسة ، ونحن نقترح الغاء الشهادة الابتدائية وترك أمر امتحان طلاب السنة النهائية من هذه المدرسة للمدرسة نفسها زاعمين أن لاخوف على مستوى التعليم والشهادة من

أهواء المعلمين ورغباتهم اذ لامبرر لائتمان المعلم عدداً من السنين ثم تخوينه في الفحص الأخير ، ونحن نقترح بعد ذلك اعادة النظر في برامج هذه المدارس والتعليم فيها واعادة هذه البرامج وهذا التعليم الى الحياة ، واعادة الحياة اليها وجعلها مؤسسات مرنة تختلف باختلاف المكان وتتنوع بتنوع الحاجات.

وما دمنا في صدد الحديث عن التعليم الابتدائي فاننا نرى من واجبنا التحذير مما قالت الصحف ان وزارة المعارف تنوي فعله ، ونعني بذلك تدريس اللغات الأجنبية في المدرسة الابتدائية ، اننا نعتقد انه عمل خاطيء ، كما نعتقد انه لن يؤدي أبداً الى اتقان متعلمينا اللغات الأجنبية . وما من أمة حرة في وضع نظامها التربوي تسمح بتعليم اللغات الاجنبية في المدرسة الابتدائية التي تخصص لتدريس اللغة الام عادة . هذا على الرغم مما بين اللغات الاجنبية المتكلمة والمكتوبة من تقارب ، يقابله تباين كبير بين العربية الفصحى والعامية ، الامر الذي يحتم على طفلنا أن يتعلم لغة جديدة حين يدخل المدرسة . ان تقصير متعلمينا في اللغات الاجنبية ليس ناشئاً في الواقع عن قلة الزمن المخصص لها ولكنه ناشيء بالدرجة الاولى والاهم عن الطريقة المتبعة في تعليم هذه اللغات ، ذلك ان تعليم اللغات الحية انما يكون عن طريق تشجيع الطالب على تكلمها وكتابتها بوضعه في مواقف يضطر فيها لمثل هذا العمل ، ولا يكون عن طريق تعليمه قواعدها وشواذها . هذا ولابد قبل تركنا حديث التعليم الابتدائي ـ من التنبيه الى وجوب جعله الزامياً بالفعل وتيسيره لكل طفل في سن التعليم الالزامي الذي نقترح أن يكون بين السادسة والثانية عشرة .

واذا ترك الطفل الدراسة الابتدائية خرج منها الى الدراسة التكميلية والدراسة التوجيهية . أما الدراسة التكميلية فدراسة نقترح ان تتلو الدراسة الابتدائية وتمتد بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، وتشغل عدداً من الساعات الاسبوعية يمكن أن توزع على أمسيات الاسبوع اوتجمع في العطلة الاسبوعية . ونحن نقترح ان تكون هذه الدراسة اختيارية في البدء تتناول مواضيع ثقافية عامة ذات صلة

بحياة الطالب اليومية والمهنية والصحية ، كما نقترح أن يكون من عملها الاجابة على اسئلة الطلاب ومساعدتهم على حل مشاكلهم اليومية وتوسيع آفاقهم الثقافية. وبديهي أن يساهم اصحاب المعامل والملاكون الكبار في دفع نفقات هذه المؤسسات والتوفر على حسن سيرها .

ولقد سبقتنا جميع الامم الراقية الى مثل هذه المدارس التكميلية وها نحن نورد مثلين على ذلك يوضحان الفكرة ويشرحانها .

في انكلترا نوعان من معاهد تعليم الكبار هي الكليات الاقليمية (County colleges) والكليات القروية (Village colleges) . ويقول الدكتور عبد العزيز السيد ابراهيم في وصفها ما يلي[1]:

« الغرض الأساسي من الكليات الاقليمية هو توفير الدراسة التكميلية للمراهقين التي نص عليها قانون التعليم الجديد في انكلترا ، فقد قضى قانون اصلاح التعليم الذي صدر ١٩٤٤ بتنظيم دراسات اجبارية يوماً في الاسبوع للبنين وللبنات فيما بين سن الخامسة عشرة والثامنة عشرة الذين لم تتح لهم فرصة مواصلة التعليم . ومن الممكن ان يستعاض عن ذلك اليوم بنصف يومين في الاسبوع ، او ثمانية اسابيع كاملة في العام حسب الاحوال .

ان سن الالزام تمتد في انكلترا الآن الى الخامسة عشرة . وقد يصبح ستة عشرة في المستقبل . ولكن مما لا شك فيه أن انقطاع المراهقين عن التعليم المدرسي في هذا السن وانصرافهم كلية الى الكسب بالغ الخطر عليهم كافراد ومواطنين . فمهما تكن المهن التي يزاولونها أو الاعمال التي يقومون بها ، فهم في مسيس الحاجة الى التزود من الثقافة ومن التربية الاجتماعية في جو صالح تحت رعاية أساتذتهم وفي صحبة رفاقهم . وعلاوة عن ذلك فقد دلت التجارب على ان العمال الأوفر ثقافة أكثر انتاجاً وأكثر اتقاناً من زملائهم ، وأكثر شعوراً بمسؤولياتهم ، كما ان انقطاع

---

(١) صحيفة التربية ـ السنة الثالثة ـ العدد الأول ـ ص ٥٠ ـ ٥٥

المراهقين في هذه السن الباكرة عن التعليم المدرسي كلية يعرض كثيراً من الجهود التي بذلت في تعليمهم في المرحلة الأولى الى الضياع .

وتجري الدراسات التكميلية التي نص عليها القانون في الكليات الاقليمية التي تديرها وتشرف عليها السلطات التعليمية المحلية ، ولا تسير هذه الكليات على نمط واحد أو نظام مشترك .

ان الدراسة في هذه الكليات بطبيعة الحال تختلف عنها في المدارس الثانوية العادية وذلك لتباين قدرات الطلاب واستعدادهم وحاجاتهم ومطالبهم ، ولذلك فمن الضروري أن تكون مناهجها غنية ومتنوعة . وأن تكون معاملها وورشها كثيرة المعدات والأدوات كي تستطيع أن تسد حاجات هؤلاء الطلاب وأن تجتذبهم الى هذه الدراسة التكميلية ...

أما الكليات القروية (الريفية) فهي كما يبدو من اسمها كليات تنشأ في الريف الغرض منها أن تكون وسيلة للنهوض بالريف وأن تكون مركزاً لاصلاح شامل وهي لا تجمع فقط بين تعليم الصغار والكبار في مكان واحد وفي ادارة واحدة ولكنها تجمع بين هذا وبين المؤسسات الاجتماعية والصحية في المنطقة الواحدة . وتكون بذلك مركزاً للنشاط الاجتماعي والصحي والتعليمي ...

وتعتمد هذه الكليات بطبيعة الحال على اعانة السلطات المحلية . ولكنها تعتمد أيضاً على مساهمة الأفراد ، بالتطوع لأداء بعض الخدمات اللازمة في النوادي أو المقصف أو المكتبة أو في المستشفى أو رعاية الطفل ، وباشتراكات بسيطة يدفعها الأعضاء لبعض النوادي أو الحفلات » .

هذا في بريطانيا ، أما في الاتحاد السوفياتي فقد انشيء سنة ١٩٤٣ بقرار من الحكومة السوفياتية نوع جديد من المدارس العامة وهي (مدارس العمال الشباب) كما انشيء سنة ١٩٤٤ مدارس الفلاحين الشباب . ولقد انشئت هذه المدارس بسبب اضطرار عدد كبير من العمال والفلاحين والشباب إلى ترك المدرسة والالتحاق

بالمعامل والمنشآت والمزارع . ولذلك فان عمل هذه المدارس توفير الفرصة للشباب لاستكمال دراستهم الثانوية دون أن يضطروا إلى ترك عملهم الصناعي .

ومدارس العمال الشباب تقبل الشباب من الجنسين بين الرابعة عشرة والخامسة والعشرين ممن يعملون في المعامل والمؤسسات . وعدد الساعات الاسبوعية في هذه المدارس ستة عشرة يضاف إليها أربع ساعات — تؤخذ من وقت فراغ العامل — وتخصص للاجابة على استشاراته . وعلى الرغم من أن ساعات العمل المدرسي في هذه المدارس لا تزيد على ٦٦ ٪ من ساعات المدارس الثانوية العامة فان النتائج التي وصل إليها تلاميذ هذه المدارس كانت حسنة حين تقدموا للفحوص بغية الانتقال إلى الجامعة أو مدارس الاختصاص العالي ...

أما المدارس المسائية للفلاحين الشباب فتشبه إما المدارس الابتدائية أو المدارس الثانوية وتعطي الدروس لمدة أربع ساعات في خمسة أمسيات من أمسيات الاسبوع وذلك ابتداء من أول تشرين الثاني حتى أول نوار من كل عام[١] » .

وهذه المدارس التكميلية معمول بها في معظم بلاد العالم الراقية التي تحرص على أن يستمر عمالها وفلاحوها الشباب على الاتصال بالمؤسسات الثقافية التي تهيء لهم الاستمرار في التثقف من جهة وتمكن المتفوقين منهم من متابعة الدراسة من جهة أخرى بغية الالتحاق بالجامعة أو المعاهد العليا .

أما الطلاب الذين يتاح لهم الدخول إلى المدرسة الثانوية فلا بد من التفكير بمقياس صحيح عادل يساعد على توزيعهم على مختلف أنواع المدرسة الثانوية من عامة وزراعية وتجارية وصناعية وغير ذلك . ولا بد من التسليم بأن الصدفة والحظ والمحسوبية والغنى وحتى العلامات العالية في الشهادة الابتدائية غير كافية للحكم على طالب ما بالذهاب إلى المدرسة الثانوية العامة وعلى آخر بالالتحاق بالمدرسة الصناعية

---

(١) The year Book of Education (1948) p. p. 413-14
Evans Brothers . Ltd . - London

أو الزراعية أو غيرها . كما لا بد من التسليم مع الامم المتمدنة بأن التوجيه المهني هو الوسيلة العادلة الصحيحة للتفريق بين كفايات الناس وقابلياتهم وهو الواسطة المقبولة الوحيدة للحكم على الطفل بالالتحاق بهذا النوع أو ذاك من أنواع التعليم . ولذلك فنحن نقترح أن يسبق الدراسة الثانوية بأنواعها عامان (بين الثانية عشرة والرابعة عشرة) يقضيها الطالب تحت الاختبار والمشاهدة من قبل اخصائيين يساعدهم المعلمون العاديون ؛ ثم يوجه الطالب بعدهـا إلى النوع من التعليم الذي يوافق استعداده وقابلياته .

ونرجو أن لا يذهب الظن إلى أن هذين العامين يذهبان سدى ، انهما عامان يقضيها الطالب في الدراسة والتثقف والاستزادة من المعرفة والمهارة ، وهما في الوقت نفسه عامان يقضيها الاخصائيون في دراسة قابليات الأطفال وكفاءاتهم بغية توجيههم الوجهة التي يعتقد هؤلاء الاختصاصيون أنها توافق هذه القابليات والكفاءات مما ينفع الفرد والبلاد ويوفر كثيراً من المشاكل والمآسي التي يذهب الأطفال ضحيتها نتيجة لقسرهم على أعمال لم يخلقوا لها .

يقول الاستاذ (هنري فالون Henry Wallon [1]) ما يلي : « . . . هناك مرحلة يجب أن توحد فيها جميع المواد التي تدرس للاطفال ، وذلك لأن بعض هذه المواد ضروري باعتباره أداة لعمليات التعليم المثالية ، ولأن القوى العقلية لا تكاد تختلف من طفل إلى طفل في هذه المرحلة الدراسية المشتركة فيجب أن تنوع المناهج تنوعاً يتناسب مع تنوع الاعمال التي سيقوم بها الراشد في المجتمع بعد مغادرة المدرسة . ومن الواضح أنه في نهاية هـــذه المرحلة يجب توجيه ذوي القدرات الخاصة نحو العمل الذي يناسبهم . وبين أول هذه المرحلة التعليمية الطويلة وآخرها يجب أن تكون هناك مرحلة متوسطة تكتشف فيها الميول والقدرات الخاصة عند التلاميذ .

---

(١) صحيفة التربية ـ السنة الاولى ـ العدد الاول ـ ص ص ٢٩ ـ ٣٢

وهذه المرحلة المتوسطة يجب أن لا تكون طويلة ... وإلا احتجنا إلى وقت اطول لمرحلة التخصص حتى يتمكن المتعلم من إجادة المادة التي يدرسها . . . وعلى ذلك فاننا نواجه في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة أو نحوها صفوفاً (فصولاً) لا تشغل فيها المواد الدراسية العامة — أي المواد التي تتناول المعلومات التي لا غنى عنها — إلا جزءاً من اليوم المدرسي . أما بقية اليوم فانه ينفق في المواد الاختيارية التي تسمح للطفل في أن يعمل فيما يختاره ، وتسمح للمدرس في أن يلاحظ القدرات الخاصة عند كل طفل .. وتمتد هذه الفترة من التوجيه المدرسي من سن الثانية عشرة إلى السادسة عشرة ».

ولقد طبقت هذه الأفكار فعلاً وجاء في التقرير الذي قدمه الوفد الفرنسي إلى مؤتمر التعليم العام المنعقد في جنيف صيف سنة ١٩٤٩ مايلي (١) : « كانت مدارسنا الثانوية قد أخذت تتابع السير في تجربة (الصفوف الجديدة) . تلك التجربة الواسعة النطاق التي بدأت في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٤٥ . وقد اقتصرت هذه الصفوف في أول الأمر على المرحلة الأولى من المدرسة الثانوية أي المرحلة الخاصة بالاطفال فيما بين ١١ و ١٥ سنة . والغرض منها التمييز الدقيق بين قدرات الاطفال المختلفة وزيادة الملاءمة بين ظروف التعليم وبين أصول علم النفس ومقتضيات التربية الحديثة . وقد انشئت هذه الصفوف أول الامر لتلاميذ الفرقة الاولى من التعليم الثانوي ثم امتدت سنة فسنة لتشمل تلاميذ الفرقة الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة وبذلك اكتملت هذه الصفوف سنة ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، فشملت المرحلة الاولى من التعليم الثانوي بأكملها . وقد بلغ عدد تلك الصفوف الآن ٧٥٠ صفاً موزعة على ١٨٧ مدرسة وعدد تلاميذها لا يقل عن ٢٠٠٠٠ تلميذ ، كما تضم عدة آلاف من المدرسين للمواد المختلفة وهم جميعاً متطوعون من بين هيئات التدريس بالمدارس الثانوية العادية ، قبلوا المساهمة في الابحاث البسيكولوجية والبيداكوجية اللازمة ...

(١) صحيفة التربية ـ السنة الثانية ـ العدد الثاني ـ ص ص ٦٤ ـ ٧٥

ومنذ وقت قريب عقد المدرسون القائمون بالعمل اجتماعاً لمناقشة النتائج التي اسفر عنها استفتاء وجه الى مدارس الأمة باسرها ... ويبدو ان معظم التقارير تتفق على ان الطريقة الجديدة قد افضت الى نتائج حسنة من حيث تنمية نشاط التلاميذ الذاتي وتوسيع افقهم العقلي وشحذ رغبتهم في الاستزادة من العلم وزيادة استمتاعهم بعملهم ، وتنمية قدرتهم على التعبير عن انفسهم سواءً بالحديث اوبالكتابة وتقوية روح المبادأة والشعور بالمسؤولية فيهم .

وقد اتسع البحث في امكانيات دراسة البيئة المحلية وكيفية الانتفاع بها » .

اما في انكلترا فقد نص (تقرير نورwood Norwood report) المنشور سنة ١٩٤٣ على وجوب جعل اختيار الطلاب ذوي العمر ١١ سنة للتعليم الثانوي مبنياً على نتائج اختبارات الذكاء العادية والذكاء العملي (Performance Tests) كما نص على وجوب العناية بسجلات الطلاب بغية الانتفاع بها في توجيههم وقال بوجوب تمكين الطالب من الانتقال في سن الثالثة عشرة من نوع من المدارس الى آخر اذا تبين وجوب ذلك[١] .

ويقول الدكتور عبدالرزاق السنهوري باشا في مقال له عن (اصلاح نظام التعليم العام[٢]) ما يلي : « .... ان التعليم الثانوي لايقصد به التثقيف العام فحسب كما هو شأن التعليم الابتدائي ، بل يراد به ايضاً ان يكون معيناً للتلميذ على تفتح ملكاته وصقل مواهبه وتنمية استعداداته . فيجب ان يجاري هذا التعليم في التلاميذ ميولهم ، وهذه ولا شك متنوعة ، ولذلك يجب ان يتنوع التعليم الثانوي تبعاً لذلك . على انه يجب ان يستمر التثقيف العام في القسم الأول من هذه المرحلة الى نهاية السنة الرابعة عشرة من سن التلميذ . فيتلقى التلاميذ جميعاً في هذه المرحلة المتوسطة

---

(١) راجع The year Book of education 1948 p. p. 32-56

(٢) صحيفة التربية ـ السنة الأولى ـ العدد الأول ـ ص ص ٤ ـ ٦

قدراً مشتركاً من ثقافة تصطبغ بصبغة علمية عملية في وقت واحد ، يصل التلميذ في منتهاها ، وقد بلغ السن الذي يستطاع فيها تعرف ميوله واستعداداته ، الى ان يتحسس طريقه في الحياة فيتجه الى حيث يوجهه استعداده » .

هذا وقد جاء في توصيات (لجنة التعليم الثانوي والعالي) التابعة للمؤتمر الثقافي الثاني الذي عقدته جامعة الدول العربية صيف عام ١٩٥٠ ما يلي :

« يراعى في نظم ومناهج التعليم الثانوي بانواعه المختلفة . . . ان تبدأ بمرحلة عامة مشتركة قبل التوجيه الى الفروع » .

وجاء في توصية اخرى ما يلي : « توصي الحكومات العربية بان تعمل الهيئات التعليمية في كل منها على استنباط احسن الوسائل للكشف عن مقدرات التلاميذ واستعدادهم لحسن توجيههم الى انواع التعليم الثانوي التي تلائمهم » .

واذا انتهى الطالب من هذه المرحلة التوجيهية تكشفت مواهبه ونزعاته ، فاذا كان ذا نزعة عملية فانه يتجه الى تعليم ثانوي عام . واما اذا كان ذا نزعه تتراوح بين العملية والعلمية فيتجه الى نوع مرن من التعليم يكون عملياً ونظرياً في الوقت نفسه مجال الاختيار فيه واسع وتنوع المواد الدراسية كبير ويمكن ان ينتهي بالطالب اما الى الدراسة الجامعية او التعليم العملي العالي او الحياة العملية التي يدخلها وهو اشد اطمئناناً واحسن استعداداً لاسيما وقد جمع في دراسته الثانوية بين العلم والعمل. وهكذا تكون الصورة التي نقترح لنظامنا التعليمي قد اصبحت على الشكل المبين في المخطط [انظر الشكل في آخر المقال] .

ونحن نقترح ان تدوم هذه المرحلة اربع سنوات اي بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة وان تنتهي بشهادة اسمها شهادة التعليم الثانوي وهي على انواع ، منها : شهادة التعليم الثانوي العام (للتعليم الذي يؤدي الى الجامعة حتماً) وشهادة التعليم الثانوي الحديث (للنوع العملي النظري الذي اقترحناه) وشهادة التعليم الثانوي الصناعي والزراعي والتجاري .

وواضح ان شهادة الكفاءة لا ترد في النظام الذي نقترح ، والحق انها شهادة

لا نجد لها معنى ولا لزوماً واغلب الظن انها احدثت لتكون عقبة لا اكثر ولا أقل .

هذا ولا بد من التنبيه الى وجوب جعل انواع شهادة التعليم الثانوي متساوية من حيث القيمة المادية والمعنوية ، فيعطى خريجو المدارس العلمية الحقوق والواجبات نفسها التي لخريجي المدارس الثانوية العامة وفي هـذا تشجيع للتعليم العملي وحث للطلاب للاقبـال عليه لاسيما وان الناس في بلادنا مازالوا يعتبرون هـذا التعليم في مرتبة دون مرتبة التعليم العام . واذا كان للعقلية السائدة في البلاد نصيب في صرف الناس عن الدراسة العلمية ، واذا كان لعدم اهتمام المسؤولين بتوفر العمل لخريجي هذه المدارس نصيب آخر في ذلك ، فان لوزارة المعارف النصيب الاكبر من مسؤولية صرف الطلاب عن هذا التعليم وذلك لاهمالها اياه وجعله الامكانية الدنيا التي يحصل عليها الطالب في حال اخفاقـه في الحصول على الامكانية الأولى الا وهي التعليم الثانوي العام .

ونحن نقترح بعد ذلك العمل على جمع اكبر عدد ممكن من أنواع التعليم الثانوي في مدرسة واحدة ، كأن يكون في المدرسة الثانوية نفسها قسم للتعليم الصناعي وثالث للتعليم الثانوي الحديث وهكذا . وبديهي ان يختلف الامر باختلاف مكان المدرسة الثانوية ، ففي المدن الكبرى كحلب ودمشق تكون المدرسة الثانوية مشتملة على قسم صناعي او تجاري او كليهما الى جانب القسم العام والحديث ، اما في درعا وأدلب مثلاً فتكون المدرسة الثانوية مشتمله على قسم زراعي متخصص بزراعة المنطقة الى جانب القسم الثانوي العام .

وفي هذا الجمع بين أنواع التعليم الثانوي اشارة الى تساوي هذه الانواع من حيث القيمة .

ثم إننا نقترح ان يكون في كل هذه الاقسام الثانوية قدر مشترك من المعلومات النظرية والعملية العامة . وعمل هـــذا القدر المشترك التوحيد بين ثقافة الطلاب وتمكينهم من الحصول على مالا غنى عنه من المعلومات .

وغني عن البيان ان هذا القدر المشترك من المعلومات اذا أضيف اليه شيءمن المرونة يمكننا من إعادة النظر في توجيهنا السابق اذا تبين لنا خطأه .

ولابد قبل ترك هذه المرحلة من التعليم من الاشارة الى أن كثيراً من الامم قد اخذت بفكرة التعليم الثانوي الحديث الذي يمكن طالبه من الانتقال الى الجامعة والمدارس الفنية العليا او الخروج الى الحياة العلمية . ففي فرنسا انشئت البكالوريا التكنيكية (Baccalaureat Technique) وهي شهادة يتطلب الحصول عليها تأدية امتحان تحريري في اللغة الافرنسية وآدابها والرياضيات والعلوم والرسم الميكانيكي والتكنولوجيا ، كما يتطلب امتحاناً شفوياً يتضمن فيما يتضمنه لغة أجنبية حديثة. وأسئلة المواد التحريرية النظرية (أي اللغة الفرنسية والرياضيات والعلوم) لهذه الشهادة هي أسئلة البكالوريا الثانوية العامة نفسها [١] . وتعمل فرانسا الآن على انشاء بكالوريا اقتصادية واخرى في العلوم التجريبية يكون قوامها الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا .

وفي أمريكا يحرص القائمون على التعليم على جعل برامج المدارس الثانوية مشتملة على الدروس العملية الى جانب الدروس النظرية ويتركون للطالب الخيار في انتقاء الدروس التي يريد .

وفي انكلترا تحرص المدرسة الحديثة (Modern School) على الجمع بين النظري والعملي وترك الخيار للطالب ينتقي من هذه الدروس مايوافق هواه .

وكل هذه المدارس الافرنسية والاميركية والانكليزية الحديثة تمكن الطالب من متابعة دروسه في الجامعة أو الخروج الى الحياة العملية رأساً .

وقد جاء في توصيات المؤتمر الثقافي العربي الثاني مايلي :

« جميع أنواع التعليم الثانوي متكافئة من حيث القيمة المادية والادبية ومن حيث علاقتها بالتعليم العالي » .

---

١ ــ انظر (صحيفة التربية) ـ السنة الثانية ـ العدد الثاني ـ ص ٦٩ .

وجاء في توصية أخرى مايلي :

« يراعى في نظم ومناهج التعليم الثانوي بانواعه المختلفة :ان تكون المناهج من المرونة بحيث تسمح للتلميذ أن ينتقل من نوع الى آخر اكثر ملاءمة له » .

وجاء في توصية ثالثة :

« يكون اعداد البرامج لانواع التعليم الثانوي بحيث تنتهي بالتلميذ الى الا كتفاء بها اذا أراد او الى الاستمرار في الدراسة العليا » .

والنظام الذي نحاول ان نقترحه يحقق هذه التوصيات كما هو واضح .

وثمة امور لابد من التنويه بها قبل ترك الكلام في التعليم الثانوي : منها وجوب الحرص على تنفيذ ماجاء في الدستور من مجانية التعليم الثانوي ، ومنها تيسيره لكل راغب فيه . ومنها وجوب العناية بالنشاط المدرسي ومساعدة الطالب على صرف نشاطه واشغال وقت فراغه .

ونحن مؤمنون بان النشاط المدرسي الموجه والدراسة النشيطة المجدية التي تحقق رغبات الطالب وتوافق نزعاته هي العلاج الوحيد لمشكلة الاضرابات المستعصية في سورية التي تنشأ فيما نعتقد عن عدم اشغالنا الطالب بما يفيده وحمله على الاشتغال بما لايعود عليه وعلى البلاد بخير .

. . . .

اما عن التعليم الجامعي فنحن نقترح ان تبقى مدته أربع سنوات تكون الاولى منها تحضيرية ، يتابع التلميذ فيها زيادة ثقافته العامة وتوسيع آفاقه العلمية او الادبية او الاختصاصية من جهة ويتهيؤ اثناءها للدراسة الجامعية من جهة أخرى ، فيتعود استخدام المراجع ودراسة الوثائق والنصوص دراسة نقدية كما يعمل على الالمام بالعلوم المساعدة لدراسته والتزود بالاسس اللازمة لاختصاصه .

وهناك اصلاحات لاغنى عنها منها اكمال الدوائر الناقصة في الكليات الموجودة وانشاء كلية زراعية وأخرى تجارية وانشاء مدارس تكنيكية عليا للصناعات والفروع العلمية المختلفة ، ومعاهد فنية تعنى بالفنون الجميلة من رسم ونحت وموسيقى وغيرها

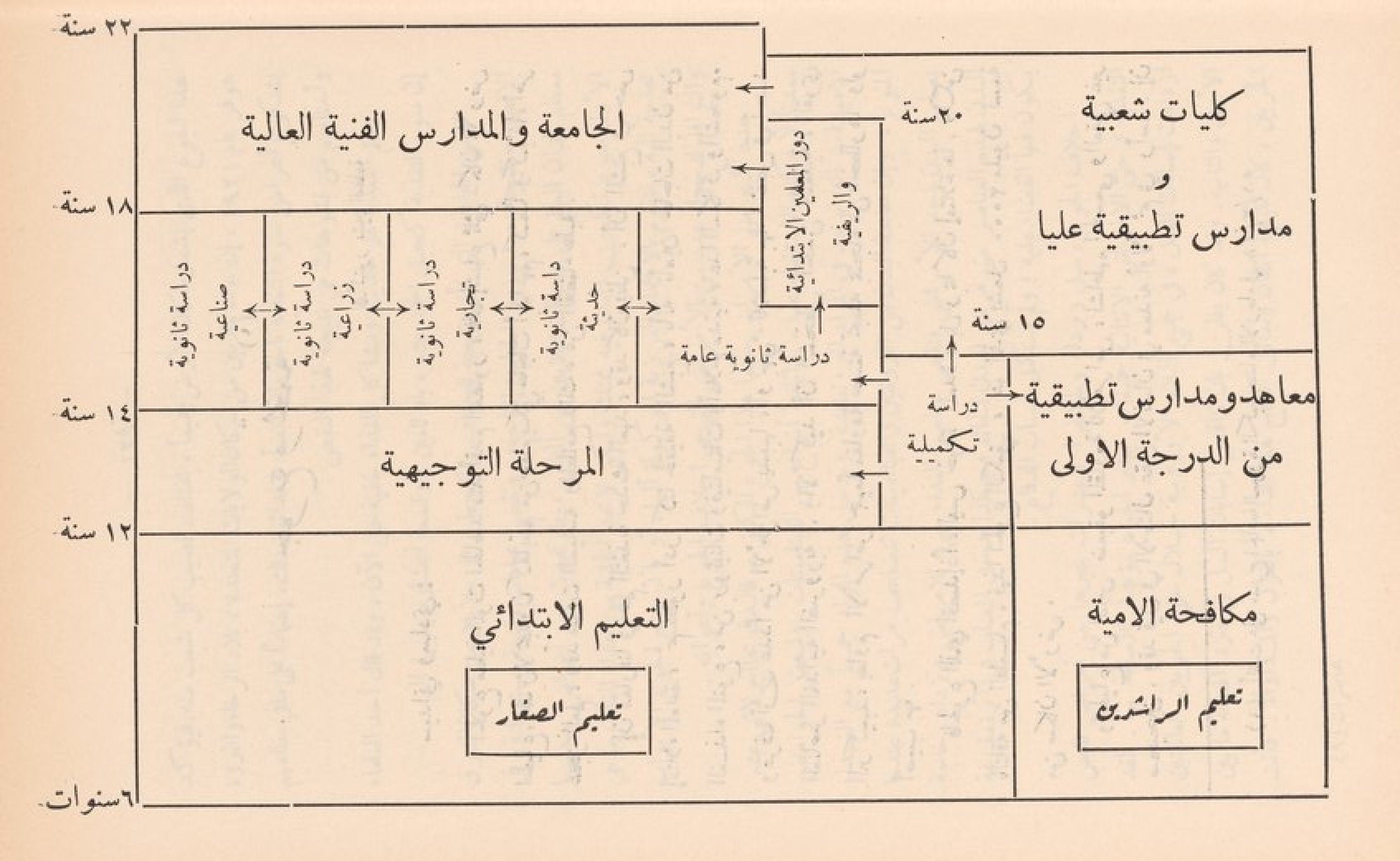
ومنها جعل التعليم الجامعي ديموقراطياً وتيسيره لكل راغب فيه وذلك بالغاء الدوام في بعض الكليات والغاء الرسوم الجامعية ومساعدة المحتاجين من الطلاب وانشاء مدينة جامعية ، ومنح الجامعة استقلالها التام عملياً وفقاً لنصوص الدستور وتمكين الاساتذة الجامعيين من الانقطاع للبحث والتفرغ للانتاج .

وأما عن دور المعلمين فنحن نقترح الغاء دور المعلمين الريفية وانتخاب طلاب دور المعلمين الابتدائية (ريفية أو غير ريفية) من بين الطلاب الذين أتموا المرحلة التوجيهية وقضوا سنتين في المدرسة الثانوية العامة أو الحديثة ، كما نقترح أن تكون فترة دور المعلمين الابتدائية أربع سنوات ، يكمل الطالب خلال السنتين الأوليتين منها دراسته الثانوية العامة ويدرس خلال السنتين الأخيرتين الدروس المسلكية البسيكولوجية والتربوية ، على أن تعتبر دراسته هذه معادلة لشهادتين عاليتين من شهادات الجامعة (Deux certificats) إحداهما في علم النفس والاخرى في التربية ، ونقترح بعد ذلك إشراك أساتذة اختصاصيين من أساتذة الجامعة في فحوص شهادتي علم النفس والتربية هاتين بغية قبولهما كشهادتين من شهادات الاجازة (الليسانس) . ونقترح أخيراً الاكثار من الدروس العملية والتكنيكية في دور المعلمين هذه ، ونعني بالدروس العملية والتكنيكية ، لادروس الاشغال اليدوية من ورقية وخشبية وما اليها ، بل أشغالاً وأعمالاً حقيقية تفيد الطالب في حياته اليومية وذلك كالنجارة والحدادة البسيطتين والاعمال الكهربائية وإصلاح الآلات البسيطة وما إلى ذلك . وبديهي أنه لابد لتحقيق هذه الاصلاحات من رفع مستوى المعلم وتمكينه من العيش اللائق بمهنته . ويبقى معهد المعلمين العالي في حضن الجامعة كما هو الآن كما تبقى الدراسة فيه بعد نوال الاجازة . ويساعد على النهوض بالمهمة التي استهدفها ولاسيما فيما يتعلق بكونه مؤسسة تعمل على ترقية فنون التربية في سوريا والمساهمة في دراسة مشاكلها التربوية وحلها . كما يساعد على إنشاء أقسام لتخريج أساتذة للرياضة البدنية والفنون الجميلة . هذا وقد آن لنا أن نفكر في إعداد معلمين للمدارس المهنية والدراسات التكنيكية وذلك في معهد المعلمين العالي ايضاً.

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذا الحديث أن نطالب بانشاء مؤسسات خاصة لضعاف العقول وعيادات نفسية للأطفال المشكلين ، وإذا كان من العسير البدء بشكل واسع فلا أقل من البدء بانشاء مؤسسة واحدة لضعاف العقول فيها عيادة للاطفال المشكلين في كل من دمشق وحلب .

أما بعد فهذا اقتراحات لاصلاح نظام التعليم في سورية لا ادعي لها الكمال ولا الصحة وإنما ابتغي من ورائها إثارة المشكلة في الأذهان وحمل المعنيين بالامور على النظر في نظامنا التعليمي على ضوء حاجات بلادنا وما يجري في البلاد الأخرى. وإني أول الذين يقدرون صعوبة المهمة وثقل التكاليف وكثرة العقبات ولكني أعتقد أن الساعة قد ازفت لمثل هذا الاصلاح وإنه لابد من تضحية وصبر كما أنه لابد من حزم وإخلاص وفهم للوصول إلى ما نبتغي من نهضة وتقدم .

❀❀❀



٢٢ سنة
١٨ سنة
١٤ سنة
١٢ سنة
٦سنوات
الجامعة والمدارس الفنية العالية
دراسة ثانوية صناعية
دراسة ثانوية زراعية
دراسة ثانوية تجارية
داسة ثانوية حديثة
دراسة ثانوية عامة
دور المعلمين الابتدائية والريفية
٢٠سنة
كليات شعبية
و
مدارس تطبيقية عليا
١٥ سنة
دراسة تكميلية
معاهد ومدارس تطبيقية من الدرجة الاولى
المرحلة التوجيهية
التعليم الابتدائي
تعليم الصغار
مكافحة الامية
تعليم الراشدين

جوع وتخمة (١)

للدكتور بشير العظمة

سيداتي وسادتي :

الجوع مطية الموت الحاصد منذ أقدم العصور ، فان إشباع ثلثي سكان الأرض الجياع ، الذين لايجدون كفايتهم من طعام يكفي حاجات أبدانهم ، كمّاً وكيفاً ، أمر عجز العلم ، وقد شاءت السياسة والمطامع ذلك ، عن القضاء عليه .

إن معارفنا في علم التغذية حديثة العهد ، وقد كان يظن ، أن الشبع في حس امتلاء المعدة ، ثم تطور أدراكنا لحقيقة الشبع ، بأنه تأمين حاجات البدن من الغذاء المنوع ، من بروتينات وفيتامينات وأملاح معدنية ، عدا السكاكر والشحوم. وعرف أن عدداً من الأمراض يسببها ، أو يهيئ للاصابة بها ، نقص في أحد العناصر الغذائية الضرورية . والأكيد أن الشخص الحسن التغذية ، القوي التركيب ، يقاوم الأمراض جميعاً مقاومة حسنة تجعله بمنجاة من أخطارها ولو أصيب بها .

فالجوع الذي أقصدإذاً ، ليس خواء المعدة ، بل ربما كان إمتلاءها ، ولكن بالتافه من الطعام . فهذا الجوع الكيفي ، هو الذي يشمل ٢٠٠٠ مليون نسمة من سكان الأرض .

والجياع من الناس ضعيفو المقاومة للأمراض ، نشاطهم الجسمي والعقلي غير صحيحين . وقد قيل في الأمثال عقل الانسان في معدته أولاً ثم في رأسه . إن

---

(١) ألقيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ٢٨/٣/٥١

هذا الجوع الذي يشمل سكان الأرض جميعاً ، يختلف نصيب كل شعب منه. فيؤكد هوفر عام ١٩٢١ ، إن عدة ملايين من سكان الولايات المتحدة ، بلاد الرخاء والثروة يشكون أعراض سوء التغذية بالحرمان أيضاً. وقد اثبت ذلك، إعتماداً على ما في عظامهم وأسنانهم من تشوهات هي نتيجة لهذا النقص.

وعلم التغذية علم حديث ومشاكل الغذاء خفية حتى الآن ، وقد قال أحد العلماء إن سوء التغذية كجبل الجمد عشره باد للعين ، وتسعة أعشاره يغيبها اليم .

تقضي المجاعات التي تأتي نتيجة للجفاف والقحط ، على ملايين من سكان الشرق الاقصى ، نتيجة سوء توزيع الطعام وإنتاجه . وتقضي مجاعات مقيمة مستوطنة ، في معظم بلدان العالم على عشرات الملايين من الناس ، بما تحدث من أمراض سببها الأول جوع تكون المعدة فيه ممتلئة ولكن لا تجد الخلية من هذا الغذاء ما هي بحاجة اليه ، لتقوم بالأعمال الغريزية الموكولة اليها. أو بأن يفتح الجوع الأبواب والنوافذ لدخول عدد من الأمراض التي هي احلاف الجوع وأعوانه .

عدد كبير من الأمراض سببها هذا الجوع الكيفي ، فالبدن يحتاج لاثني عشر معدناً لا يمكنه الاستغناء عنها ، ولثمانية أنواع من الفيتامينات ، ولبعض الحوامض الآمينية ، التي توجد في المواد البروتيئينية، وتدخل هذه المواد جميعاً مع الغذاء المنوع ، وإن حاجة البدن من البروتئين والفيتامينات تتضاعف مرات عديدة عندما يصاب البدن باحد الأمراض فنقص عناصر الغذاء يهيء للامراض وتزداد حاجة البدن لهذه العناصر متى مرض البدن الجائع وهكذا يدخل المصاب في دائرة مفرغة يكون فيها القضاء عليه ؛ ولم يستكمل أسباب الدفاع .

احلاف الجوع ، سل وبرداء وبللاغرا وعشرات غيرها من أمراض نقص التغذية ، حتى الامراض الانتانية جميعاً ، يعتبر الجوع مؤهباً للاصابة بها . اقد ازدادت إصابات السل ، في جميع البلاد الأوروبية خلال سني الحربين العالميتين الأولى والثانية. وقد كان يظن بان تناقص إصابات السل في فترة الهدنة ما بين الحربين ، كان نتيجة اتقان وسائل كفاح هذا الداء ، بالعزل والمداواة . فأتت

تجربة الحرب القاسية ، وزيادة إصاباته خلالها ، تؤكد ان نقص الراتب الغذائي هو السبب الأول في كثرة الاصابات بالطاعون الأبيض .

كما وتؤكد إحصاءآت جميع الامم أن إصابات السل بين الفقراء تبلغ خمسة أضعافها بين الاغنياء في مدينة فينا ، وأربعة أضعاف في مدينة باريز . وفلاحو إيطاليا والبلقان وجنوبي فرنسا ، وغذاؤهم الزيتون والفول والحمص والنشويات ، أكثر سكان هذه الأقطار إصابة بالسل .

وقد كانت زيادة انتشار إصابات السل ، متناسبة مع شدة الجوع الذي تعرض له السكان فكانت الوفيات مريعة بين أسرى الحرب ، بينما لم تزد نسبة الاصابات بين الأطفال ، رغم ضعف مقاومتهم تجاه السل ، عما كانت عليه قبل الحرب ، لأن راتبهم الغذائي لم ينقص عن ايام السلم . وأقفرت البيمارستانات من نزلائها ، بعد ازدحام ، فقد حصدهم وباء السل ، نتيجة نقص غذائهم الى ثلث الراتب الغذائي العادي ، ولم تزد نسبة إصابات جنود الاطفاء خلال هذه الفترة لبقاء غذائهم في حدوده الطبيعية .

وتراجع وفيات السل من ٢٠٠ وفاة لكل مئة الف من السكان الى ٧٥ وفاة لكل مئة الف منهم ، خلال الاربعين عاماً الماضية « في البلاد الغربية طبعاً » لم يكن هذا النصر على وباء عاث في الارض فسادا منذ الوف السنين ، إلا نتيجة مباشرة لتحسن السوية الصحية وخاصة التغذية .

فالسل حليف البؤس والفقر والجوع ، لا يقهر إلا إذا عم الرخاء أقطار العالم . أما البرداء وهي وباء يسيطر على معظم أرجاء الارض ، فقد جاء في كتب الطب منذ القديم ، أن دواءه في القدر .

ينتخب هذا الوباء ، ضحاياه بين الفلاحين في الأرياف الجياع المتعبين ، وهو يقضي سنوياً على عدة ملايين من سكان الارض .

وقد انتشرت البرداء إنتشاراً وبائياً استيلائياً مخيفاً عام ١٩٤٦ في صعيد مصر

وبلغت وفياتها عشرات الألوف من السكان الجياع ، وعجزت الأدوية والصدقات عن كبح جماحها فقد كان المرضى بحاجة إلى الغذاء قبل الدواء .

وأخيراً البلاغرا والاسهالات الطفيلية ، والاسهالات الطفلية وعشرات غيرها من أمراض التغذية ، المعروفة منها أو الخفية ، كلها أعوان للجوع ، في حصاد الموت ، الذي يلتهم سنوياً عشرات الملايين من النفوس البشرية البريئة .

وهناك تجارب علمية تؤكد بأن كل مرض تقريباً يمكن أن يهيء الاصابة به غذاء ناقص .

يحتاج حسن الانتفاع بالغذاء إلى انبوب هضمي جيد ، وغالبية سكان الاقطار المتأخرة عن ركب الحضارة مصابون بأدواء طفيلية ، ديدان وزحار وبلهارسيا وانكلوستوما وما إليها ، وهي جميعاً أمراض تجعل الغذاء على قلته ونقص عناصره ضئيل الفائدة أو معدومها أحياناً .

تبلغ وفيات الأطفال نتيجة الجهل في تغذية الطفل أو الفقر ، نسبة قد تبلغ فى بعض البلدان ٨٠ ٪ من المواليد . وقد يكون سبب هذه الوفيات الجوع عند الأمهات وفقر ألبانهن من الفيتامينات والمعادن الضرورية لنمو الابدان واكتمال قوة مقاومتها للأمراض .

وأجسامنا كما يقول البرخت ، أمماً وأفراداً ، بشراً وبهائم ، تكون كما نأكل ، ففي الولايات المتحدة الامريكية ، ينتج مربو الانعام في ميسورى ، بغالاً ضخمة قوية ، لأن التربة هناك غنية بالكلس الذي يشد العظام ، ومعدل المرض والوفيات في اليابان مرتفع ، لأن أكثر أراضي الجزر اليابانية فقير بالمعادن .

والنبات القوي في الحقل الزراعي يقاوم الأمراض والحشرات بعكس النبات الضعيف النابت في تربة فقيرة ، والارض الفقيرة لا تنبت إلا شعباً فقيراً .

وربما كان خير طرق الوقاية من الامراض وتقوية دفاع البدن ، تنظيم الغذاء وتنويعه .

ام المشاكل في الارض لقمة العيش يتنازع من اجلها الانسان مع الطبيعة

ومع الحيوان والحشرة ، ويقتتل الانسان مع اخيه الانسان ، قتالاً سافراً في الحروب والغزوات ، او يناضل جلوداً صابراً ، او حسوداً ناقماً ، ليسد الرمق احياناً ، او ليستزيد من بطنته وتخمته . هذا الجهاد بين الافراد والجماعات في سبيل البقاء يحتاج لاجسام قوية والى عقل نير واع .

كيان الجسم الانساني نتيجة تمثيل خمسين طناً من الغـذاء هي ما يدخل الفم وسطياً طيلة حياة المرء . فصحة الانسان وطباعه وخلقه ، نتيجة تفاعل العناصر المختلفة ، التي دخلت مع غذائه أثناء حياته .

وكل غذاء تنقصه الآحينات والفيتامينات والأملاح المعدنية ، غذاء ضار في عمل الغدد الصم « وهي قطع صغيرة مبعثرة في الجسم، تفرز الهرمونات وتتسلط على نمو الأجسام ، وأعمال الأعضاء الغريزية جميعاً ، كما وتركز النشاط الجسمي والفكري ، وتعطي للانسان طابعه الشخصي». تحتاج هذه الغدد للعناصر الضرورية، حتى تحسن ادارة اعمال البدن المختلفة .

وقد ذكر ثقاة علم الاجتماع ، أن الأطفال الذين ولدوا خـلال سني الحرب الأخيرة أيام الجوع والهلع ، قد تأثروا نتيجة نقص غذائهم ، في طور نمو أبدانهم وعقولهم . فهم دون أقرانهم في النشاط الفكري والجسمي ، ويقـدرون أنه لا بد من عشرات السنين ، حتى تزول آثار هذا النقص في التكوين . وإن الطبيعة الانسانيـة المرحة المستبشرة المتزنة إن هي إلا نتيجة لغذاء متوازن في عنـاصره الضرورية ، بينما يسبب نقص بعض العناصر اضطراب الأعصاب ووهنهـا ، وإلى شيخوخة باكرة ، وقد قيل قديماً في الأمثـال . كما تأكل تفكر وتعمل . وليس ضرورياً أن توزن الأطعمة بموازين دقيقـة ، حتى يعرف الانسان ما هو بحاجة إليه . فان تنويع الغذاء كاف لتأمين ضرورات البدن منه ، فنحن نستهلك الكثير من ماءات الفحم والادهان ، والقليل من البروتيئينات ، ويبدو هذا النقص فاضحاً في الأرياف .

ورب سائل يقول ، كيف كان أجدادنا ، ولا يزال سكان القرية بيننا أقوياء

البنية ، اصحاء الاجسام ، دون ان تكون لديهم فكرة عن ضرورة تنويع الغذاء .
سبب ذلك أن الحياة كانت ولاتزال حتى سن الشيخوخة ، وقفاً على عددضئيل من الناس ، ممن عجمهم الموت فعزوا عليه منالا ، بينما وارت القبور عشرات من اطفال ويفعان وشبان هم ضريبة اللحد يقضون ضحايا للعوز وضعف المقاومة ، قبل ان يعفي الموت عن هذا العدد القليل ، من الكهول والشيوخ الاقوياء .

وغذاء الأمس ، كان غنياً بالمعادن والفيتامينات اكثر من غذاء اليوم ، ونحن قد استنفدنا من رصيدارضنا ، اكثر مما اودعنا فيه ، زراعة رتيبة ، تتكرر على مر السنين ، واسمدة طبيعية ، تحرق بدل ان ترد الى الارض ، واجهاد الارض ، يجعل محاصيلها الغذائية ، فقيرة بالعناصر الضرورية .

كما وان البيض واللبن واللحوم ، في ايامهم ، كانت تحوي زيادة من هذه العناصر ، اذ كانت قطعان ماشيتهم ، تتغذى باعشاب ومراع مزدهرة .

وكان الناس يقضون زمناً طويلا في نور الشمس ، وفي الهواء الطلق ، اعصابهم غير مرهقة بطبيعة العمل الآلي ، والمدنية الغازية الصاخبة . كانوا يتناولون الخبز الاسمر ، ولم يعرفوا في حينه كيف يعرى من عناصره المفيدة ، ليصبح ابيض فتنة للناظرين ، بعد ان عرته الآلة من معادنه وفيتاميناته .

وفضل الرجل المدني ، السكر الابيض النقي على السكر الاحمر والدبس والعسل ، وقد جرد مواده السكرية من معادنها المفيدة وفيتاميناتها ايضا .

وغذاء معظم سكان الشرق الأقصى ، الرز المقشور ، وهو لآليء صافية من نشاء جرد من فيتامين (ب) الضروري ، ومن المعادن ، ومعظم سكان هذه الاقطار مصابون بالبريبري والبلاغرا والاسهالات .

وخلاصة القول ، فانني ادعو الى العودة للطبيعة في الغذاء ، فقد وفرت لنا حاجات ابداننا من العناصر الضرورية لبناء الجسم ليكافح عوامل تهدد الجنس البشري بالفناء . كما واني احذر ، من الفتن في اعداد اطباق الطعام والتهام المزيد منه ، فان التخمة واختزان الشحوم في الارداف والبطون لأشد ضرراً على البدن الانساني من الجوع .

ترفض شركات التأمين في العالم ، ضمان حياة البدينين الا بزيادة في الرسوم ، تزداد اطراداً ، مع عدد سانتمترات محيط بطونهم. والبدانة بلاء ينزل بجسم صاحبه، فيورثه الكسل والوهن ، ويورث اولاده من بعده، امراضاً تجعل اجل حياتهم قصيراً بعد ان ناءت الكلى والقلب والعضلات باثقالها من شحوم قتالة ، واللقمة التي لاضرورة لها ضارة حتما .

علة البدانة استحكام عادة الطعام الزائد عن الحاجة. ولذة الشبع اولى متع الحياة منذ الولادة . فاذا تقدمت بالانسان السنون والاعوام ، اكتشف ملاذ تفوق قوتها لذة اشباع رغبة الوعاء الذي لايمتليء . فاذا شاخ المرء ، وكثيراً ما يشيخ شابا ، خفت حدة رغبته في ملاذ الحياة الاخرى ، وزهد في مباهجها ، وقد تبلد نشاطه الفكري والجسمي ، عندئذ تستفيق غريزة الطفولة الاولى ، وحب البقاء ، وهي الغريزة الاصلية ، فاندفع يلتهم ويختزن الشحوم . فالأكولون النهمون هم اناس خائبون في الحياة ، يحاولون ان يجدوا في لذة التهام الطعام والشبع ، عزاء لهم عن خيبتهم في الحب والحركة والتسلية والمغامرة .

واذا رغب الانسان في حياة كلها شباب ونشاط وانتاج ، وجب أن يعتني بغذائه فيكثر من الحليب والخضار واللحوم ، ويقلل من الادهان والنشويات ، فتنويع الغذاء سر نفعه .

وليذكر النهمون أن مذاق اللقمة في الفم ، لن يمتد الا بضع دقائق تستقر بعدها في المعدة عدة ساعات ، ليستعينوا على صرفها عنها بالشاي الاخضر والمسهل والكازوز . تتكدس بعدها مع غيرهـا من اللقم شحوماً تحت الجلد ، تبقى طوال العمر فتساهم بنصيب في القضاء على نشاط حاملها وتقصير أجله .

وربما كان قصر أجل البدينين لحكمة في الحياة، غايتها تخفيف الضرر عن الآخرين.

سادتي :

عزمت على معالجة موضوع الجوع منذ فترة طويـلة من الزمن وكنت ألقي عنتاً واستنكاراً ، كلما ذكرت مؤكداً ، ان في بلادنا العربية ، جوعاً مقيماً ، وتخمة

قتالة ، وقد عجزت عن اقناع اهل التخمة ،ان هناك جوعاً مقيماً ، مزمناً ، كما عجزت عن افهام اهل الجوع ، حقيقة حالهم ، وهم قد عاشوا وترعرعوا ، في احضان الفاقة والحرمان . وعاش المتخمون ولايزالون ، تحت كابوس احلام صاعدتها ابخرة الطعام الى رؤوسهم .

يقال في الحكم السائرة ان لكل شعب نصيباً من طبيعة أرضه ، فالوطن السوري يتألف من وهاد ومرتفعات ، وهاد ترويها انهار عارمة تترك على جوانبها مستنقعات او تصب فيها ، ونجود صحراوية ، تؤلف ثلثي ارض سوريا الزراعية ، تشكو القحط والجفاف ، وتعتمد في سقياها على رحمة السماء . وكذلك سكان هذا الوطن ، متخمون يشكون العفن والتخمة والبطنة ، وجياعهم اكثرية السكان . لايجدون كفايتهم من طعام ، ويعتمدون في رزقهم على جود السماء ، فاذا جادت شبعوا بالتافه غير الكافي من الطعام . واذا امنعت صبروا على البلاء النازل والموت جوعا وعطشا .

ايها السادة لاتقاس مدنية الأمم وحضارتها ، بابنية مدنها وازدحام طرقها بالسيارات الفخمة والوجوه المشرقة . بل يقاس رقي الأمم بنسبة وفيات اطفالها ، وحال الطبقة العاملة المنتجة فيها . بلادنا زراعية ، وقريتنا عنوان رخاء البلد وتقدمه . واليكم صورة ملطفة تمثل مدى تدرجنا في مضمار الحضارة الحقيقي .

لقد اجرى الاستاذ (Dodd) استاذ علم الاجتماع في الجامعة الاميركية عام ١٩٣٦ دراسة عن الحالة الصحية في سوريا . فوجد في قرى البقاع والعلويين ، ان معدل الولادة ٤٧ بالألف ، ومعدل الوفيات ٥٣ بالالف ، وهذا انذار بانقراض سكان الريف بالامراض المستوطنة الملاريا والسل . ومعدل العمر في الريف السوري ، لايزيد عن ١٥ سنة وفي المدينة ٢٦ سنة فقط ، بينما يبلغ معدل العمر في بلاد البشر بين ٣٥ — ٥٦ سنة .

ومهما حاولنا ان نخفف من بلوانا ، بالامراض المستوطنة ، وبالجوع الذي يشمل معظم السكان في الريف ، فان نقص معدل الحياة تال لارتفاع نسبة وفيات المواليد ، حتى اصبح الاصل في الطفل القروي ، ان يموت والاستثناء ان يفلت من براثن الهلاك .

وفيات مواليد القرية تقدر بـ ٨٠٪ منهم . وكل شخص من سكان الجمهورية السعيدة يحتمل من الامراض عدداً لايقل عن الثلاثة امراض . فالزحار منتشر في المدن والارياف ، والملاريا تصيب معظم سكان الارض المرويّة ، والسل والديدان والحميات المختلفة وادواء سوء التغذية ، كلها أمراض مستوطنة ، متحالفة مع الجوع والجهل في عملها الهدام . والفلاح المسكين ، الذي يحتمل كل هـذه المصائب شبح فر من الموت ؛ بعد ان سجل الموت معالمه عليه بميسم الداء العضال ،وقد تهدم جسمه فوق عصا معقوفة ، يحرث بها الارض ، وقد ورثها عن آبائه وجدوده الصالحين ، تجرها بهيمة هزيلة واهنة . أرايت اليه وقد ألقى الى الارض ببذاره ، القاه لهوام الارض وطيور السماء ، وقبع في داره ينتظر الغيث ، يمتع الطرف بمرآى انهارعارمة تجتاز ارضه القاحلة ، شارد الفكر لايفكر في غده وقد ابتلاه أمسه ويومه بما فيه الكفاية . يتأمل الفرات والعاصي واليرموك تنساب مياهها ، هادئة مطمئنة لتنصب في البحار ، فتزيد من مائها .

ان هذا الشهيد التائه في الارض الفقيرة ، ان هذا الانسان الذي احتمل منذ اجيال ، وبصبر عجيب ، الفقر المدقع والمرض القتال ، وهو يقاوم عوادي الزمن ونوازل السماء ، كيف يعيش ، وكيف لم تقفر الارض منه ؟ وقداعجزها القضاء عليه ، ليس العجيب ان تكون القرية موئلا للفقر والمرض والجهل ، بل المعجزة ان يبقى الفلاح حياً في مهد الموت . ولعل نعمة الظلام من جهله المنطبق خير ما جادت به السماء عليه ، فهو متواكل مستسلم صابر .

تشمل الطبقة الفقيرة في بلادنا ، سكان القرى جميعا ،والعمال في المدن وعرب البادية الرحل . يقتات جميع هؤلاء ، وفي معظم ايام السنة ، من النباتات الحمقاء الشيطانية ، التي تنبتها الارض كالخبيز والحميض وما اليها ، او ببقايا الالبان ، وقد ازيلت منهاموادهاالدسمة . والبركة في خبز الذرا ، وهو خالمن العناصر الضرورية الغذائية ، فهو مسكت للمعدة اللجوجة ، ساعات طوال ، بينما خبز القمح فاكهة غير اقتصادية ، ينزلق بسرعة من المعدة ، فتطلب منه المزيد . ويأتدم الفلاح بالزيتون

والبصل واللفت بدون لحم ولا دسم، وبالحمص والفول والعدس في بعض المناطق، اما اللحم فلا يؤكل الا في المواسم والاعياد، او اذا نفقت دابة اولموا عليها للأهل والجيران.

اما البيض فهو عملة صعبة نادرة، وهو مورد لشراء الكساء للاطفال وفي تدبير امور البيت المعاشية الاخرى. والفاكهة بطيخ في مواسمه، او فاكهة تالفة اخرى، تجد طريقها الى القرية بعد ان اصبحت كاسدة رخيصة في المدن.

ان ما يصيبه الفلاح من ثياب وطعام ومسكن اسوأ بكثير مما نتصور، وهو يعيش في رعب مقيم، من الطبيعة، ومن المرابي، ومن السيد المالك.

ولا يعرف القروي الدولة التي هو من رعاياها، الابوجه الجابي الغضوب والدركي فوق ظهر جواده، يهوي عليه بالسوط، اذا تأخر عن تقديم الديوك والسجاير والحلوى، مما ادخر لقوت عياله لايام الضيق.

ايها السادة ربما ظن بعضكم ان صورتي المتواضعة تمثل ادباً عماده التهويل والاستثارة. وانكم ولاشك، تقولون بين انفسكم: انا نرى الفلاح قوي العضل، كبير الجثة، خشن العود في الغوطتين، مرحاً قوياً، واحياناً بديناً مشحماً.

ليس الفلاح الذي اصف فلاح قرى الغوطة، فانه غالباً مالك لارضه وقد فاضت عليه المدن برخائها. ثم ان ارضه غنية، سقايتها منظمة، فموارده تكفل له حياة فيها شيء من الكرامة الانسانية.

ان الفلاح الذي اقصد هو من سكن قرى حوران والمرج وحماة وحمص وبادية الفرات والجزيرة وحلب والعلويين. ومن شاء منكم التثبت مما ذكرت فليقصد قرى نائية عن الطرق العامة، ليرى بأم عينه أي بلاء مقيم، وأي شقاء يخيم على بيت القروي.

تلكم حال شعوب العروبة سادة وعبيد، تخمة وجوع، قصور وقبور. وعبثاً يحاول الأدباء والخطباء والكتاب في تذكير المترفين بأن لهم أخوة من خلق الله، يأكلون ما تعاف الكلاب، ويشربون ماء هو مستحلب للجراثيم والاقذار، جمعته الامطار في برك تستقي منها البهائم وتصلح لغسيل قدور الطعام واللباس، وشرب الآدميين ايضاً. فلن يؤثر ما يكتب إلا كما تؤثر النسمات اللينة في الصخر الأصم.

ذلك لأن حق الله وعباده في اموال الاغنياء ، قد وكل الى ضمائرهم . وبين غفوة الضمائر وقسوة العواطف ذهب وازع الدين .

ايها السادة : لقد انقضى زمن ، يجوز الاعتماد فيه على النبل والشهامة والنخوة ، ولم يعد في قواميس عصر المادة ، معنى لهذه الكلمات ، إلا بأنها استكانة ومذلة وانتظار لرحمة لن تأتي الا بعد خراب الدار ودماره ، والدولة مصدر السلطات ، نائمة تستجدي عطف القوي ، ولو على هامات الضعاف .

سنت قوانين للعمل ، تحمي عمال الصناعات في المدن وهم قادرون على الاضراب وعدتهم بضعة آلاف فقط ، وأهمل القروي في حقله وهو مصدر الثروة الحقيقية .

موارد موازنة الدولة ضرائب غير مباشرة : جمارك ورسوم سكر ومحروقات ودخان يدفعها الفقير قبل الغني ، وضريبة الدخل على الارباح تمثل رقماً هزيلا هو ١/٥٠ من موازنة الدولة السورية .

يجب ان تقر الدولة ، ان للفقير حقاً في مال الغني ؛ وللجائع حصة في مائدة المترف المتخوم . يجب ان تمحى كلمات الصدقة والرحمة من دستور العمل ؛ فانها لم تورث الشعب إلا البؤس والمذلة والموت ؛ وان تستبدل بكلمة الواجب والضريبة ؛ وويل لأمة رأت الطريق السوي فتنكبته .

ايها السادة ان فردوس الوفرة والاكتفاء لجميع الناس ليس خرافة ؛ ولكن الخرافة ان يدوم بؤس البشر ؛ وفي قدرتهم الخلاص منه .

نحن بين حجري الرحى . رأسماليه غربية جبارة وشيوعية شرقية غريبة ؛ تلوح الاولى بالذهب والدولار لفئة من النـــاس ؛ وتتحكم بمقدراتنا عن طريقهم وسلاح الجبهة الثانية ، رغيف يشبع الجائع ، وثروة مكدسة معطلة ، بشكل عقارات واموال . تهيب بالمحروم ان مد يدك اليها ، فان لك بها نصيب .

ايها السادة ان صوت المعدة اذا جاعت ، طغى على صوت الايمان ، والنفوس اذا ثارت على الظلم ، فلن تفرق بين الهدف والوسيلة .

في جوارنا دولة فتية ؛ تدبر امورها عقول جبارة واعية ؛ وتلقي اليها البحـار

بأمواج متصلة من شباب منظم ، مستعد للنضال ؛ وكثرة السكان مفتاح التوسع الاستعماري فقد كان يكرر موسوليني القول ، بأن على ايطاليا ان تتوسع والا انفجرت.

تجاور اراضي هذه الدولة اراضي محافظات حوران والجولان ، يطل الفلاح السوري من هضبته على الوادي الخصيب ؛ فيرى البشر كيف يسكنون ، وكيف يستثمرون الارض وينعمون بالحياة . ويلتفت الى واقعه فيرى قرية مقفرة وارضاً قاحلة اكثر ايام السنة ؛ ولن تحتاج المقارنة الى بصيرة وتبصر ، ولن يفهم معنى ولا طعماً الوطنية وقد صم اذانه صراخ معدته . اذا خوت البطون اختلت موازين الاخلاق ؛ وتبخرت المثل العليا وفقد الناس قدرتهم على مقاومة اغراء الشيطان .

العامل الاقتصادي ؛ هو الذي يقرر مصير الامم والحضارات والعوامل الاقتصادية كامنة وراء كل حادثة تاريخية . البعوضة قضت على امبراطورية روما عندما هجر الفلاح القرية الى المدينة ، وقد شدته اليها عفانتها ومغانيها ، فأهمل الري ، وانتشرت المستنقعات ، فتكاثر البعوض وانتشرت البرداء . كذلك تقلصت ظلال مدنيات عاشت في ربوع الجزيرة العربية ، بعد ان اهملت وسائل الري ، فانقلبت جناتها صحارى ، هجرها البشر فاصبحت موطن الظمأ والموت .

لقد آوت بلاد الشام في زمن الرومان ، في زمن الجاهلية التاريخية ، خمسة وعشرين مليونا من الانفس البشرية ، وآثار اقنيتهم للري ، وعواصم بلادهم التي طمرتها رمال الصحراء لا تزال ماثلة امام الأعين . لقد كانت بصرى عاصمة ملك واسع ، وكانت حوران اهراء روما ، وكانت تدمر عروسا للجنان فاصبحت عروس الصحراء لم تتغير الارض ولكن تغير ما في النفوس .

اذا فقدت العقيدة من شعب كان في ذلك هلاكه . حفنة من المكدونيين فتحوا العالم وبضعة آلاف من العرب فتحوا الدنيا من السند الى بحر الظلمات ، وبريطانيا لا تعد نفوس سكانها ، اكثر من اربعين مليونا ، تحكم خمس العالم . آية ذلك ايها السادة نفوس عامرة بالايمان تستعبد نفوساً خربة ، وعقول تفكر ، تخضع عقولا جامدة متواكلة خاملة ، تجتر امجاد الأمس ، وتغمض العين عن واقع اليوم واخطار الغد .

واقعنا الاقتصادي مؤلم ، وبجوارنا عدو ، يرنو بعين فاجرة نحو حدودنا ، نحو سهول واسعة مهملة ، وقد ضاقت ارضه ، باعداده المتزايدة ، وهو يتطلع الى المستقبل مطمئناً واثقاً أن الارض سيرثها عباد الله الصالحون لها .

ايها السادة اذا كنت ادرك كيف يعمل الاقطاعي المالك على ابقاء الفلاح عبداً للرغيف وللامراض ، عبداً لا يرغب في الحرية فهو يخشى النور ، همـه في الليل والنهار ، لقمة العيش ، يدفع بها غائلة الجوع ، والسيد المالك هو الذي يعطي ويمنع ، اذا كنت ادرك منطقه الأناني الجشع . فاني اربأ بكم أن تكونوا اعواناً له ، في مشروع افناء الاكثرية في سبيل تخمة المحظوظين ، أربأ بالعقول النيرة ، والاقـلام الحرة ، بالكتاب والمصلحين والمدرسين ، ان يغمضوا العين عن خطر داهم . فان ذلك خيانة للفكر الحر ، خيانة ستودي بالوطن الى الجحيم ، يوم يستفيق الفلاح فيرى الهوة السحيقة التي بين آدمي وآدمي ، لافرق بينهما الا بأن فلانا ولد وفي فمه ملعقة من الذهب ، وآخر ولد للشقاء والعذاب والموت .

انه علينا ونحن في حرم الجامعة مصدر الاشعاع الفكري في هذا البلد ، أن نساهم بنصيب في القول والعمل ايضا . فاذا لم تساهم الجامعة بنصيبها في ايقاظ النيام ، والسيل يجرفنا جميعاً نحو الهاوية ، اذا لم تصرخ الجامعة وتجأر بالقول الحق ، فـلا عاشت الجامعة ، ليست الجامعة ترفاً علمياً ، وفلسفة سفسطائية ، ليست مهمة الجامعة تخريج ممتهنين مرتزقين ، مهمة الجامعة تخريج اصحاب الفكر الحر ، الذي لايشترى بالمال ولا بالجاه ولا بالتهديد ، مهمة الجامعة التأثر بمشاكل المحيط الذي تعيش فيه ، وايجاد الحلول العلمية المنطقية ، للمشاكل القائمة ومشكلة البلاد السورية والعربية من بعدها التي تهددها في الصميم ، حال القرية السورية والعشائرية الحاكمة فيها . والانانية في اخلاقنا تستهين بالمجموع من اجل الفرد .

ولا تحل مشاكل الريف بأن يعطى الفلاح ارضاً طيبة وآلة لفلاحتها ، فان الفردوس الذي يترك تحت رحمة الجاهل ، ينقلب بعد ايام جحيماً تزدهر فيه نوادي الشيطان ، بالشراب والقمار .

لقد وزع الصابون في بعض القرى ، فبيع بالاسواق ، وغرست الاشجار فأخذت طريقها الى الموقد ، وهي خضراء،واعطي العلاج للوقاية من البرداء فتسرب عائداً الى المدينة . وامسك المتخمون بهذه الحجج ،ليحاربوا فكرة تحسين حال القريه والقرويين .

ايها السادة ، نعم لقد باع الفلاح صابونه ودواءه ، واقتلع غراسه ، وهو ايضاً يبيع ولده وارضه في سبيل لقمة العيش ، في سبيل مقومات الحياة الاولى ، وهو لن يرسل الولد الى المدرسة ليتعلم ،لا زهداً بالعلم بل ليبقيه معه في الحقل ، وليجد مع اهله قوت يومه .

ثروة البلاد زراعية وموطنها الحقل والقرية وصناعتنا زراعية ايضاً وليست التجارة الا عملا طفيلياً غير منتج ،يعيش على جهد الفلاح ، وينتزع من فمه اللقمة. اما سياستنا الاقتصادية فهي تهدف الى تنشيط التاجر،واهمال القروي . ام المشاكل في القرية توزيع الارض وتنظيم استثمارها . في الريف السوري ملكيات صغيرة يبلغ عرضها عدة امتار ، وطولها عشرات الكيلو مترات ،فلا يمكن استثمارها بالآلة، وملكيات واسعة مهملة ايضاً ، وقد اكتفى اصحابها بما تدر عليهم من مورد ضئيل يؤلف مع بعضه رقماً ضخماً كافياً لاشباع تخمتهم ، يقتطعونه من اتعاب الفلاح في الارض التي لايملك،والتي لايرغب المالك في تحسين حاله او حالها . وقد سكن المالك القصر في المدينة ، فلا ضير على الفلاح ان يسكن القبور .

وعلاج الملكيات الواسعة والصغيرة ايضاً ، النظام التعاوني الاشتراكي .

ايها السادة اذا لم تتضافر قوى الخير الواعية، تجاه طغيان اقطاعية عشائرية ذات سحر ونفوذ فان هذه القوى الطاغية ستئد كل اصلاح يحد من نفوذها ومن تخمتها .

وسلاح الاقطاعية في الشعب الجاهل ان تُطلق على كل اصلاح نعتَ الشيوعية، وتضمن هذه الكلمة معنى عدوة الاديان والقوميات والتقاليد الموروثة،وستهب قوى الاقطاعية الماكرة في جميع البلاد القريبة والبعيدة لتساند قوى الظلم والخداع للقضاء على كل اصلاح فيه خير للوطن والمواطنين جميعاً .

يحاربون هذه الفكر تارة تحت ستار الدين واخرى تحت ستار القومية ودائماً تحت لواء الكذب والخداع والدس والتضليل .

ما كان الدين الا سبيلاً للقوة ، وما كانت العقيدة، الا اداةً للحرية والتطلع الى مستقبل مشرف ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مات على الايمان من مات من التخمة وجاره مات من الجوع » .

ايها السادة: لن يقف في الصفوف الاولى للدفاع عن ارض الوطن المتخمون ولهم من المال في البنوك ومن الوسائل ما يكفل لهم العيش الرغيد خلف الحدود. سيدافع عن الوطن تجاه الاخطار التي تهدده من الشرق ومن الغرب. شعب واع مدرك يعرف ان في خلاص الوطن امناً وشبعاً وبيتاً و كرامة انسانية له ولأنساله من بعده.

يموت الفلاح مع الارض ويعيش من اجلها. هي مصدر سعادته، يعبدها بعد الله. اما المتخمون فان المال يفتح لهم الحدود وعبادته من دون الله تجعلهم يرون ارض الله اينما وقعت اوطاناً لهم مادامت تفتح لهم ابواب الربح والاكتناز ، انه لاوطن للبعوض الذي يعيش على امتصاص الدماء .

ان حملات الكذب والخداع والتضليل ، ورمي الناس بالمروق والفجور ، لن تحمي مصالح الوطن بل تحمي مصالح الافراد . فاذا صحا الجائع من حلمه ، ليعلم ان كلمات الصدق والشرف والحق المكتسب ، لم تكن الا احابيل لتكبيله في عبوديته ، عندئذ ويل لعروش اقيمت على جماجم بريئة ، ويل للوطن من انتفاضة لن تميز بين الخير والشر . ذلكم هو اليوم الذي ينتظره العدو ، ولن يدفع شرور طغيان طبقة على طبقة الا دولة يشعر بها المواطنون جميعاً ، بان الوطن لهم لا لافراد منهم .

اعداء الوطن الحقيقيون حلفاء الاستعمار من اي لون، الشرقي والغربي الاحمر والازرق هم الذين يقفون في سبيل عدالة اجتماعية اشتراكية .

ان من يحارب المبادىء الانسانية مبادىء المنطق السليم ، حليف لاعداء الوطن القريبين والبعيدين .

لا تقبل أمة واعية ، ان تكون الأرض إلا لمن حرثها وتعهدها ، تربطه بهـا صلة اللقمة والعيش ، أما ان يسكن المحظوظون المدينة وينعمون برفاهها ويملكون الأطيان وينعمون بخيراتها ايضاً ، فهم المتخمون الضالون المضلون،أفواههم مفتوحة للفري والبلع والهضم والاكتناز ، وفي آذانهم وقر وعلى عيونهم غـلالة ، فلا هم يفهمون ولا يرون ولا يبصرون .

وأهل الجوع من كثرة ما احتملوا وقاسوا ومن كثرة ما جاعوا وظمئوا على مر الاجيال جثث متحركة صدئت عقولها وضمرت معدهـا ، قنعوا بأنهم خلقوا عبيداً ليموتوا من أجل السادة عبيداً .

إن أعدى أعداء الرأسمالية والشيوعية على السواء الاشتراكية .

تحارب اميركا تأميم الصناعات القومية في انكلترا وتأميم الطب فيها وتدس على هذه المشاريع وتتمنى لها الفشل والخراب خشية ان تتسرب هـذه الفكر إلى بلاد يسيطر على سياستها ، حفنة من رجال المال والاقتصاد ، هم أصحاب شركات البترول والفولاذ والمطاط والصحافة والجامعات ايضاً .

لقد استباحوا لانفسهم كل شيء في سبيل سيطرة الدولار على العالم .

وتحارب روسيا السوفياتية اشتراكية انكلترا ايضاً وتتهكم عليهـا ، بأنها اشتراكية اللوردات . فان البؤس والجوع والمرض ، هي مبررات ولادة الشيوعية في روسيا والصين . فاذا ازالت الاشتراكية فوارق الطبقات ، وحدت من تكديس الارباح والمقامرة بأرواح البشر في ميدان المال ، حرمت الشيوعية من أقوى أسلحتها ، وعالجت أنانية الرأسمالية وطغيانها .

أما بعد فاني واثق من ان كلامي في هذه الامسية ، لن يؤثر في نفوسكم إلا كما تؤثر النسمات اللطيفه ايضا في الصخر الاصم ، ولكني واثق مع ذلك انه سيثير غباراً وسيثير نقاشاً ، وستقولون لقد بدأ غير الجياع ، يشعرون بعصبيـة الاكثرية في معدهم ، فاذا اثار هـذا الموضوع غباراً ودخاناً ، فان ذلك نذير انتفـاضه

وبشير صحوه ، من الاغفاءة العميقة ، لنفتح العيون عن واقع مفجع ، يجب ان يعالج بحزم وإقدام .

بشروا بالعدالة الاجتماعية ، بالاشتراكية الانسانية ، اعلموا المتخومين ان في البلد جياع ، فاذا اقام السادة ، موازين العقل والمنطق والانسانية حل السلام على ارض الوطن المهدد في كيانه ومستقبله ، ولكني واثق ايضاً انكم ولو فعلتم فلن يفعلوا .

❀ ❀ ❀

العوامل الوراثية[1]

للدكتور عبد الحليم سويدان

سيدي الرئيس ، ايها السيدات والسادة :

يتصدى للذين يعالجون احدى مسائل علم الحياة على هذا المنبر شيء من الصعوبة ، وليس مرد هذه الصعوبة الى ان علم الحياة فقير بالمواضيع التي تستحق ان تعالج هنا ، فمسائل علم الحياة بالنسبة الى العلماء الحيويين انفسهم هي على حد عظيم من الاهمية والروعة . وكذلك فكثير من مباحث علم الحياة تشكل الآن مرتكزات متينة لبعض مباحث التربية والفلسفة . واعتقادي ان الانسان يكون على حق اذا اهتم بمعرفة القوانين والآليات الحيوية الرئيسية التي يقوم عليها انتظام جسمه في اكثر نواحيه . واذا كان الامر كذلك فالى مَ يرتد هذا الحرج .

ان الذين يبحثون في المواضيع الاجتماعية او السياسية مثلاً يكفيهم في المستمعين اليهم صفاء الذهن وسلامة الذوق . فالافكار النيرة تستطيع ان تصغي الى الاحاديث الادبية والاجتماعية بكل سهولة ويسر ، وهي قادرة على ان تكون حكماً في المواضيع الخلقية ، وان الاذهان الصافية والافكار النيرة لقادرة كذلك على ان تكون موازين للحديث الفلسفي التربوي الرتيب .

اما في بحث من علم الحياة مثلاً فالفكر العلمية فيه مترابطة متلازمة آخذ بعضها برقاب بعض فلا يكون استماعنا اليه كاملاً الا اذا كانت اذهاننا تتكيء عند كل فكرة على مستندها التشريحي او النسيجي او الفيزيائي او الكيميائي . ومن هنا

---

(١) ألقيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ١٨/٤/٥١

كان انتخاب موضوع علمي ضيق التعمق فيه تعمق المختصين شيئاً غير مستحب في هذه الردهة الكبرى . وعلى هذا ايضاً آثرت ان يكون حديثي اليوم حديثاً وسطاً على شيء من الشمول حتى لا يكون بعيداً في ضيقه عن الذين ينأون عنه باختصاصهم وائلا يكون بعيداً في بساطته عن الذين يهمهم شيء دقيق منه .

نعلم ان الكائن الحي يتألف في مجموعه من وحدات تشريحيـة فيزيولوجية هي الخلايا، ونعلم ان الخلية تتألف من غشاء ومن ستيوبلاسما ومن نواة.ومن بنية الخلية كلها نوجه النظر في موضوعنا بصورة خاصة الى العناصر الكائنة في النواة والـتي تعرف بالصبغيات (كروموزوم) . ونذكر ان هذه الصبغيات انها موجودة في كل نواة وانها متميزة متفردة في اية مرحلة من مراحل حياة الخلية وانهـا ثابتة العدد في كل نوع حيواني او نباتي .

ويُنظر اليوم الى الصبغي وكأنه مؤلف من حزمة سلاسل بروتيئينية متعددة متوازية ترتكز عليها من مكان الى آخر مادة هـامة جداً تسمى الحمض النووي . وهذه النقاط التي تتم فيها هذه الارتباطات هي التي تكون أشد نقاط الصبغي قابلية للتلون ولذلك يطلق عليها اسم « الجزئيات المتلونة » .

ولنرجع البصر ثانية الى الصبغيات وهي في نواتها نجد بينها في الحالة العامة صبغيين (او صبغياً واحداً) لهما بنية وشكلية وسلوكية خاصة نسمها الصبغيين الجنسيين . واننا اذا اعتبرنا هذه النقطة بشكلها العام رأينا ان هذين الصبغيين قد يكونان مختلفين في الذكر فيرمز اليهما آنذاك بـ (X و Y) ويكونان متشابهين في الانثى ويكونان فيها (X X) . وقد يكون العكس. ولا يشترط ان يكون هذا التخالف بوجهه العام قائماً على وجود صبغيين غير متشابهين (X Y) فالتخـالف قد يكون أيضاً قائماً على وجود صبغي واحد (X) في أحد الجنسـين أما الجنس الآخر فيكون فيه آنذاك (X X) .

ففي الانسان مثـلاً يوجد في نوى خلايا المرأة ستة واربعون صبغيـاً عادياً وصبغيان جنسيان متشابهان يُرمز اليهما بـ (X X) والنساء جميعهن لهن هذه الصبغة .

ويوجد في نوى خلايا الرجل ستة وأربعون صبغياً عادياً وصبغيان جنسيان غير متشابهين هما (X و Y) والرجال جميعهم لهم كذلك هذه الصبغة. فالفرق في هذه الناحية بين المرأة والرجل هو أن الصبغيين الجنسيين متشابهان في المرأة وانهما متخالفان غير متشابهين في الرجل . فهل نستطيع القول من ذلك ان هذه الصيغة الصبغية او تلك هي التي جعلت المرأة إمرأة وجعلت الرجل رجلاً ؟ ان الجواب على ذلك ايجابي بشكله العام فاذا تشكلت الصيغة الصبغية الاولى (X X) في أول خلية بعد الالقاح أي في البيضة الملقحة كان المولود المنتظر بنتاً. واذا تشكلت الصيغة الصبغية الثانية (XY) في البيضة الملقحة كان المولود صبياً .

وهناك نقطة أخرى يجب أن نعطي عنها فكرة وجيزة وهي مهمة وكيف يتكون الفرد الحي ؟

نعلم أن الكائن الحي ينشأ في الحالة العامة من اتحاد خليتين تناسليتين تأتي احداهما من الكائن الذكر ونسميها النطفة الذكرية وتأتي الأخرى من الانثى وتسمى البييضية بصورة عامة . ومتى اتحدت هاتان الخليتان التناسليتان تكونت منهما خلية واحدة هي البيضة الملقحة وهذه البييضة الملقحة هي التي ستنقسم وتجزأ ثم تتكاثر خلاياها وتتميز حتى تشكل كائناً حياً معقداً رائعاً في نظامه وتركيبه .

ولكن من إين تأتي هذه الخلايا التناسلية وكيف تتكون وما هي خصائصها ؟

عندما نقول أن البيضة الملقحة ستعطي وحدها كائناً على حد رائع من الدقة والتعقد والنظام فهذا يعني ان الخلايا التناسلية تحتوي على كافة العوامل اللازمة لاعطاء كائن جديد من نفس نوع الابوين . هذا يعني أنها كما يقال ذات امكانيات شاملة كلية . فكيف بقيت الخلية التناسلية محتفظة بهذه الامكانية الكلية الشاملة ؟

ان « فايزمان » و « نوسباوم » و « بونور » وغيرهم يعتقدون ماملخصه في المجموع ان الخلايا التناسلية ترجع في أساسها الى سلالة خاصة من الخلايا قد تمتعت منذ المراحل الاولى من تقسيم البيضة الملقحة ببعض الخصائص التي تمنحها هذه الامكانية الكلية . فهنالك في نظام سلالة للخلايا التناسلية تصعد من الفرد الناضج

حتى المراحل الجنينية الاولى وهذه السلالة الجنسية ،هذا الاصل المنشيء هو مايعبر عنه بكلمة «جيرمن». وهو كأنه في نظرهم يقيم جنباً الى جنب مع بقية خلايا الجسم العادية التي اكتسبت كل خلية منها خصائصها الشكلية والوظيفية فأصبحت ذات امكانية محددة معينة. وهذه المجموعة الخلوية القاصرة المحدودة وظائفها وامكانيتها هي ما يطلق عليه اسم «سوما» . وال «جيرمن» في أصل النظرية مستقل كل الاستقلال عن ال «سوما» .

على أن هنالك فرقاً في كيفية تسلل هذه الخلايا الجنسية بين نظرية «فايزمان» من جهة ورأي «نوسباوم» و «بونور» من جهة أخرى . فالاتصال في سلسلة الخلايا التناسلية بحسب رأي «فايزمان» يقوم على وجود مادة معينة هي «البلاسما الاصلية المنشئة» فاذا استقرت هذه المادة في خلية كانت الخلية خلية تناسلية .واذا لبثت المادة برهة من الزمن في الخلية ثم غادرتها أضحت الخلية خلية عادية . فحلقات الاتصال هنا هي أجزاء المادة لا الخلايا نفسها وأما نظرية «نوسباوم» و «بونور» فهنالك سلسلة محكمة من الخلايا جاء بعضها من بعض وتمتد بين الخلايا التناسلية الناضجة وبين الخلية الاولى التي تنشأ في المراحل المبكرة من تقسّم البيضة الملقحة .

ماهي خصائص الخلايا التناسلية بصورة عامة وكيف تكون ؟

لا يهمنا من ذلك كله الا أمر واحد هو عدد الصبغيات في الخلايا التناسلية . لقد قلنا إن عدد الصبغيات يظل ثابتاً في خلايا كل نوع حيواني فالمَ يرتد هذا الثبات؟ ان هذا الثبات ليرتد الى أن الخلايا التناسلية الناضجة لا تكون محتوية الا على نصف عدد الصبغيات الذي يتميز به ذلك النوع . فالخلية الذكر تأتي بنصف العدد والخلية الانثية تأتي بالنصف الآخر وباتحاد الخليتين التناسليتين بالالقاح تتكون بيضة ملقحة محتوية على النصفين اي على العدد الكامل فتتقسم هذه البيضة وتكون كافة الخلايا الناتجة من التقسيم محتوية على العدد نفسه، وتظل الحال كذلك الى أن يقرب الفرد من النضج الجنسي وحينئذ يرجع عدد الصبغيات في الخلايا التناسلية الناضجة الى

نصفه ، وذلك في الذكر والانثى. والالقاح يجمع بين النصفين وهكذا يظل العود الصبغي ثابتاً في كل نوع .

ويتم هذا الامر بصورة مجملة وفقاً لحادثة نطلق عليها اسم التصنيف الصبغي أو الارجاع الصبغي . وهي نوع من الانقسام الخلوي تصطف فيه الصبغيات مثنى مثنى ثم يذهب نصفها الى قطب ويذهب النصف الآخر للقطب الخلوي الآخر وعندما يتم انقسام الخلية الى اثنين تكون كل واحدة منها محتوية على نصف العدد النوعي .

ولكن كيف تصطف هذه الازواج و كيف ينتخب كل زوج من الصبغيات زوجه الآخر؟ الواقع ان كل زوجين مقترنين احدهما هو من صبغيات الأب والآخر من صبغيات الأم . أما أيهما يذهب الى القطب الاول وأيها يذهب الى القطب الثاني فهذا شيء عائد للمصادفة .

لقد قلنا ان الكائن الحي ينشأ في الحالة العامة من اتحاد خليتين تناسليتين تأتي احداهما من الذكر وتأتي ثانيتهما من الانثى وتشكلا بعد اختلاطهما بالالقاح بيضة ملقحة تعطي الكائن المعقد التركيب الرفيع النظام فأول فكرة تتبادر للذهن هي اننا يجب أن نفتش في داخل هذه البيضة الوحيدة نفسها من كافة العوامل التى ستكسب الفرد ما يستمتع به من صفات شكلية وخصائص فيزيولوجية . إن في البيضة الاصلية لعوامل يجب أن تتداولها الصفات والخصائص. ماهي هذه العوامل الوراثية ، ماهي هذه المورثات ، وأين مقرها وموضعها من أجزاء الخلية ؟ هل هي في السيتوبلاسما ، هل هي في النواة ، هل هي فيهما كلتيهما ؟

نترك الآن هذا السؤال وننتقل الى ذكر الملاحظات والمشاهدات والتجارب التي أدت الى اكتشاف ماهو على حد كبير من الروعة والعبقرية في علم الحياة الحديث.

كان الملاحظون القدامى يلقون على الطبيعة نظرات فيها شيء من الفطنة والحذق والدقة واليقظة . كانوا يرون في عالم النبات والحيوان صفات متقابلة وكان يروقهم لو تنصهر الصفات المتقابلة في الحيوان الهجين أو في النبات الهجين وتعطيهم نمطاً جديداً يكون وسطاً بين النمطين الملاحظين . وإن مثل هذه الفكر هي التي وجهت

يربون الازهار والحيوانات ردحاً طويلاً من الزمن عندما كانوا يسعون لانتاج عروق هجينة . ولكننا لا نذكر هنا من اولئك الملاحظين والمبشرين احداً قبل « نودان » الفرنسي و « ماندل » النمسوي .

اما تجربات « نودان » فقد اجريت من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٦١ في باريس في حديقة النباتات ولقد اختصها مجمع العلوم بجائزة العلوم الفيزيائية الكبرى سنة ١٨٦٢ ونشرت تلك التجربات في شكلها النهائي سنة ١٨٦٥ .

ولقد قام « نودان » بعمليات انفال مختلفة على انواع نباتية متعددة وحصل على عدة أنسال متعاقبة من النغال النباتية ، كل ذلك لكي يرى هل يؤدي الانفال النباتي الى تحقيق أشكال نوعية جديدة ثابتة . أما جواب التجربة على هذا السؤال فقد كان سلبياً ، فالنغال التي كانت تظهر بصورة عامة متجانسة في النسل الاول كانت تبدي على العكس في النسل الثاني وفي الانسال التالية تعدداً في الاشكال ورجوعا الى الاصلين النباتيين . والشيء الجدير بالذكر هو ان « نودان » قد اعطى هذا الامر ايضاحا صحيحاً يشير الى القانون الاساسي في الانفال فهو يقول : « كل هذه الامور والوقائع توضح وتفسر بافتراق المادتين النوعيتين في غبار طلع النغل النباتي وفي بيضاته » . هذا ما نعبر عنه الآن بقولنا ان الخلايا التناسلية التي يعطيها النغل تكون صافية نقية بالنسبة الى صفة من الصفات ، هذا هو قانون صفاء الخلايا التناسلية ونقاوتها .

ولكن « نودان » الذي استشف هذا القانون استشفافاً لم يستطع الذهاب في تحليله أكثر من ذلك لأنه كان يجري على « أنواع » تختلف بعدد كبير من الصفات فيكون التحليل معها على هذه الصورة دقيقاً صعباً .

وفي الوقت نفسه كان الراهب النمسوي المشهور « ماندل » يقوم بملاحظاته وتجاربه . عاش « يوهان ماندل » بين سنتي ١٨٢٢ — ١٨٨٤ ، وهو ينحدر من أسرة ريفية متواضعة في « سيليزيا » النمسوية . وهو بعد ان أنهى دراساته الثانوية في « اولموتز » دخل سنة ١٨٤٣ دير « الاوغوستين » في « برون » في « مورافيا »

وأخذ فيه اسم « غريغور » الذي يعرف به . ثم أعلن راهباً سنة ١٨٤٧ ثم أرسل على حساب ديره الى جامعة « فيينا » من سنة ١٨٥١ الى ١٨٥٣ لدراسة الرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية ثم قام بعد ذلك بتدريس هذه العلوم في مدرسة « برون » حتى سنة ١٨٦٨ حين أضحى سيد ديره، أما تجاربه فقد أجراها في حديقة ديره منذ سنة ١٨٥٤ وقدمت الى جمعية العلماء الطبيعيين في « برون » في ٨ شباط و ٨ آذار سنة ١٨٦٥ تحت عنوان « تحريات على هجناء نباتية مختلفة » .

لقد كان « ماندل » أكثر دقة ولباقة من « نودان » ولعل الامر أنه كان أسعد حظاً . فلقد ركز جهده على نبات مناسب جداً هو « البزلياء » . فالزهرة في هذا النبات تلقح بغبار طلعها الخاص قبل أن تتفتق والانسال المعاقبة بفضل هذا الالقاح الذاتي تؤلف في الشروط الطبيعية سلالات صافية .

لقد انتق «ماندل » من بين الاخراب الموجودة في التجارة عددا من الانماط التي تأكد من صفاتها وثباتها بزراعات سابقة . ثم ألقحها ببعضها مثنى وذلك باستئصاله أسدية الزهرة اي العناصر المذكرة فيها قبل نضجها ثم تلقيح هذه الزهرة بغبار طلعي آخر، وغبار الطلع أو حبات الطلع هي العناصر التي تلقح مبيض الازهار والازهار الملقحة تعطي بالطبع بزوراً . ونحصل بهذه الصورة على أول نسل من البزور التي تكونت بالتهجين ولا يبقى بعد ذلك للحصول على الانسال التالية الا ترك الالقاح الذاتي يتأمن من نفسه في كل زهرة. ولكن « ماندل » لم يغفل ناحية رئيسية هامة في كافة هذه التجارب وفي كافة الانسال وهو أنه لجأ الى انشاء « شجرة نسب » اذا صح هذا التعبير. فكان يجمع كافة البزور الناتجة من كل نبات ويزرعها بعد ذلك منفصلة مستقلة . وكان يحصل بهذه الصورة على « شجرة نسب » صحيحة كاملة تعطي احصاءات ذات دقة مطلقة .

أما قانون « ماندل » الاول اي القانون الاول في التهجين فهو : « عندما يتم التهجين بين سلالتين مختلفتين بصفة واحدة . فهجناء النسل الاول كلها متجانسة متشابهة . أما في النسل الثاني فيحصل تفكك وافتراق في الصفتين المتقابلتين ويكون

ربع أفراد النسل الاول من سلالة الأب وربعها الآخر من سلالة الأم ويكون نصف أفراد النسل الاول هجناء تشبه هجناء النسل الاول وتحلل من جديد على نفس الصورة التي تحلل عليها ذلك النسل الاول ».

وأما القانون الثاني فهو « قانون افتراق الصفات افتراقاً مستقلاً ».

ولكن ما كتبه « ماندل » قد أصابه الحظ السيء العجيب بأنه قدم وكأن لم يشعر به أحد. ولقد كان من أسباب ذلك نشر هذه الرسالة في مجلة الجمعية المحلية الصغيرة للعلماء الطبيعيين في « برون » التي لم يكن لها أي انتشار. ولكن ذلك لا يفسر هذا الامر تفسيراً تاماً، والسبب هو أن الاقطار لم تكن متهيئة لادراك مداها البعيد. ولقد رأينا كذلك ان فكرة صفاء الخلايا التناسلية ونقاوتها التي اعلنها « نودان » والتي نشرت في أشهر المجلات الدورية والتي خصت بأكبر جائزة من مجمع العلوم في باريس قدمرت أيضاً وكأن لم يشعر بها أحد. ويظهر أن « نودان » لم يعرف ماقام به « ماندل » ولكن يظهر أن « ماندل » قد عرف ماقام به « نودان ». ولما انصرف « ماندل » الى ادارة ديره فقد انحرف بذلك الامر عن التجريب، وأضحى النسيان الكامل مصير ما كتبه وماقام به. ومن سنة ١٨٦٥ الى سنة ١٩٠٠ لم يشر الى ماقام به « ماندل » إلا مرة واحدة بصورة عرضية، وذلك في مؤلف عرض فيه (Focke) سنة ١٨٨١ مجموع مايعرف عن الهجناء النباتية. فهو يذكر فقط أن « ماندل » قد وجد نسباً عددية منتظمة بين مختلف أشكال الهجناء.

ولقد استمر هذا النسيان الكامل حتى سنة ١٩٠٠ حيث بعثت رسالة سنة ١٨٦٥ وحيث اكدت نتائجها وأثبتت في آن واحد من قبل (Correns) في المانيا و(E. Von Tschermak) في النمسا و(Hugo de Vries) في هولاندا. واخذت قوانين ماندل « هذه » المرة مكاناً هاماً بارزاً في توسع علم الحياة. فما بين سنتي ١٨٦٥ و ١٩٠٠ كانت المعلومات عن الخلية والالقاح قد تقدمت وهيئات الافكار الى ادراك مدى اعتقاد « ماندل » وأفكاره وابتدأت من ذلك العهد وثبة علم الوراثة التجريبي الذي جاءنا ببعض ماهو أدق وأمتن ماعرف من الاكتشافات في علم الحياة الحديث.

ذكرنا قبل هنيهة ان قانون افتراق الصفات افتراقاً مستقلاً هو القانون الثاني في التهجين ولقد ابرزت كذلك هذا القانون تجارب التهجين المشهورة التي اجريت على (« ذبابة الخل » Drosophila melanogaster) التي نستطيع أن نقول انها هي التي « سال مع لعابها » أروع ما شيده علم الحياة الحديث.

ولكن ماذا يعني أن الصفات تفترق مستقلاً بعضها عن بعض؟ الا يعني هذا أن لكل صفة شيئاً حاملاً لها موجوداً في الذخيرة الوراثية ويتمتع بشيء من الاستقلال؟ يمكننا أن نفهم ذلك التفرق والتوزع اذا لم نقبل ان الذخيرة الوراثية تحتوي على أجزاء قادرة على أن تتفرق عن بعضها وان تتركب مع بعضها تبعاً لجميع الصيغ الممكنة وفقاً للتصادف لاننا لانستطيع أن نفرق وأن نركب ماليس له وجود محسوس. وهكذا نلمس كنتيجة للقانون الثاني في التهجين اي قانون افتراق صفات الابوين افتراقاً مستقلاً ان المادة الوراثية لايجب أن تعتبر وكأنها كل لايتفرق ولا تحلل ولا تجزأ ولكنها تتألف على التأكيد من أجزاء متفرقة مستقلة، أي أن المادة الحية الوراثية هي ذات بنية متقطعة، أي أنها غير متجانسة.

ولكن ماهي هذه الاجزاء التي تؤلف المادة الوراثية؟ وما هي هذه الوحدات الوراثية التي تبرهن عليها حادثة افتراق الصفات افتراقاً مستقلاً؟

لقد ثبت ان هذه الاجزاء، هذه الوحدات، « هي « الصبغيات » الموجودة في النواة. وسنرى أن هذه الصبغيات تحتوي في طولها على وحدات اخرى أصغر منها تشغل فيها مواضع معينة ثابتة وهي ما نسميه بالعوامل الوراثية او المورثات. والواقع أننا اذا فرضنا ان الصفات تفترق مستقلاً بعضها عن بعض لانها مرتكزة على صبغيات تفترق هي نفسها مستقلاً بعضها عن بعض أثناء الانقسام المنصف الذي يكون الخلايا التناسلية فان هذا الغرض، اذا مابحثنا عن نتائجه يؤدي بنا الى كافة النتائج التي تظهرها التجربة.

لقد انتهينا اذن الى ان الصبغيات هي حوامل مسببات الصفات الوراثية، الى انها حوامل المورثات او العوامل الوراثية. فاذا كانت هذه الفكرة مبنية على اساس راسخ متين فان كل شذوذ في توزع زوج من الصبغيات يجب ان يؤدي الى نمط

خاص في توزع المورثات التي يحويها . فهل هنالك في مسألة توزع الصبغيات عند تكون الخلايا التناسلية حادثة خاصة نستطيع ان نفيد منها في البرهنة على ان العوامل الوراثية موجودة على الصبغيات ؟

نحن نعلم ان الباحثين قد وجدوا في كثير من الحيوانات زوجين من الصبغيات يختلفان في الذكور عنها في الاناث ونعلم انهم اطلقوا على هذه العناصر اسم « الصبغيات الجنسية » . ونعلم ان الفرق بين الصبغيات الجنسية يكون على نمطين فقد يكون عدم تناظر الصبغيين الجنسيين موجوداً في الذكر فيكون تناظرهما موجوداً في الانثى كما هي الحال في الانسان . وقد يكون عدم تناظر الصبغيين الجنسيين موجوداً في الانثى فيكون تناظرهما متحققاً في الذكر كما هي الحال في بعض الفراشات مثلاً .

ويحسن بنا الآن قبل الذهاب بعيداً ان نشير الى الصورة التي يتم عليها تعين الجنس وتحدده بصورة عامة وفي الانسان بصورة خاصة . متى يتعين جنس الجنين الذي تحمله امه ، متى يصبح ذكراً او انثى ؟

يتعين جنس الجنين عند اتحاد النطفة الذكرية اي الخلية التناسلية الذكرية بالبيضة اي بالخلية التناسلية الانثية . اي ان تعيين الجنس يلازم الالقاح ، وذلك على الصورة التالية :

قلنا ان خلايا الرجل تحوي كلها ستة واربعين صبغيا عادياً وتحوي الصبغيين الجنسيين غير المتناظرين (X و Y) ونتيجة الانقسام المنصف الذي يكون الخلايا التناسلية يكون في الرجل نوعان من النطاف نوع يحمل الصبغي الجنسي (X) ونوع يحمل الصبغي الجنسي (Y) . اما المرأة فتحوي كافة خلاياها على ستة واربعين صبغياً عادياً وعلى الصبغيين الجنسيين المتناظرين (XX) وعلى هذا فان البيضات اي الخلايا التناسلية التي تصدر عنها نتيجة الانقسام المنصف تكون كلها متشابهة ومحتوية على الصبغي الجنسي الوحيد (Y) . فاذا كان الالقاح قد تم بين البيضة وبين نطفة تحمل الصبغي الجنسي (Y) فان الصيغة تصبح (YX) وهي صيغة الذكر ويكون الجنين ذكراً . واذا كان الالقاح قد تم بين البيضة التي تحمل الصبغي الجنسي (X) وبين النطفة الذكرية التي تحمل الصبغي الجنسي (X) فان

صيغه البيضة الملقحة تكون (XX)وهي صيغة الانثى ويكون الجنين انثى ومن هذا نرى ان المرأة ليست هي المسؤولة عن الصبيان او عن البنات وانما المسؤول عن ذلك هو الرجل . واننا لانستطيع ان نفصل هنا قضية الشواذ في تعين الجنس التي تبرز فكرة التوازن بين الصبغيات العادية والصبغيات الجنسية في مسألة تعين الجنس .

لنعد الآن الى فكرتنا الأولى وهي وجود نمط خاص لانتقال الصفات التي تكون اسبابها موجودة على احـد الصبغيين الجنسيين . هـذا وهي الوراثة المرتبطة بجنس الوالدين ، هذه هي الوراثة المرتبطة بتوزع الصبغي الجنسي . ولنأخذ مثالاً عنها في الانسان .

نعرف في الانسان جملة امراض تكون المورثة المرضية فيها متوضعة على الصبغي الجنسي (X) ونذكر منها الآن مرض نزف الدم او ابطاء تخثر الدم المعروف في الطب باسم (hémophilie) .

اما عن آلية تخثر الدم بصورة عامة فنذكر ان تخثر الدم يجري في زمنين :

في الزمن الأول تؤثر خميرة تفرزها اللويحات الدموية تسمى « الخميرة الخثرية المنشطة » (thrombokinose) بوجود شوارد الـكالسيوم (Ca^{++}Kalsium) على مادة تتشكل في الكبد تسمى (مولد الخميرة المخثرة thrombogène) فتكون الخميرة المسماة (الخميرة المخثرة thrombine) :

وفي الزمن الثاني تؤثر هذه الخميرة المخثرة (thrombine) على مادة تصنعها الكبد تسمى (مولد المادة الليفية fibrinogène) فتكون المادة الليفية (fibrine) وهذا هو تخثر الدم .

ونذكر كذلك ان الفيتامين (K) يتدخل في هذه الحادثة اذ يظهر انه يؤثر على تشكل مولد الخميرة المخثرة في الكبد .

هذا وان الزمن العادي لتخثر الدم الذي خرج من وعائه هو من اربع الى خمس دقائق . اما في المصابين بالمرض فهو يبلغ عدة ساعات . ومن هنا تأتي صعوبة ايقاف

النزف فيهم . والمرض يتوقف على عامل وراثي كامن مستتر متوضع على الصبغي الجنسي (X) .

ونذكر ان اشهر الحالات المعروفة في السلالات التي اصيبت بمرض عدم او ابطاء تخثر الدم هي حالة نسل ملكة انكلترا (فيكتوريا Victoria) فقد مات احد أبنائها وهو مصاب بالمرض . واثنتان من بناتها هما (Béatrice) و (Alise) قد نقلتا العامل المرضي الى اسرتي (Battenberg) و (Hesse) . ومن الاسرة الثانية انتقل العامل المرضي الى اسرة امير ابروسيا حيث مات البنون جميعهم وهم مرضى والى البيت المالك القديم في روسيا . ونعلم ان الوارث الوحيد لذلك البيت وهو (Alexis) كان مصاباً بالمرض . واما من الاسرة الاولى فقد انتقل العامل المرضي الى البيت المالك في اسبانيا .

ان هذا المرض لايبدو الا على الرجال ،ولكنه لاينتقل قطعاً من الاب بصورة مباشرة وانما ينتقل دائماً عن طريق الأم فالنساء هن نواقله من غير ان يصبحن ضحايا له . وهذه الامور تفسر بسهولة لان المرض كما قلنا ينتج من مورثة كامنة مستترة تقع على الصبغي الجنسي (X).

فاذا تزوج رجل مصاب بهذا المرض امرأة سليمة فالبنون اي الذكور يكونون سليمين بصورة نهائية . اما البنات فهن سليمات في الظاهر ولكنهن يحملن العامل المرضي الذي لايستطيع ان يظهر عليهن لانه يكون مغلوباً بعامل الصحة الذي يقهره .

واذا ما زوجت البنات السليمات في الظاهر برجال سليمين فسيكون نصف بناتهن سليمات بصورة صافية ، ونصفهن سليمات في الظاهر ولكنهن يحملن عامل المرض مقهوراً ، وسيكون نصف صبيانهن سليمين ، ونصفهم الآخر مرضى .

واذا صدف ان زوجت بنت ابوها مريض برجل مريض ، وهذا ما يمكن ان يسهله الزواج بين افراد الاسرة الواحدة ، فان نصف البنين يكونون سليمين بصورة نهائية ، ونصفهم الآخر يكونون مرضى . ونصف البنات يصبحن سليمات في الظاهر ولكنهن يحملن عامل المرض كامناً مستتراً ونصف البنات الآخر يجب

ان يصبحن مراضاً لانهن يحملن آنذاك عامل المرض مضاعفاً لايحجبه شيء، أتاهن عامل مرضي من ابيهن وعامل مرضي من امهن . ومع ذلك فلم تلاحظ نساء اصبن حقاً بهذا المرض . ويقبل انه عندما يجتمع صبغيان جنسيان (XX) يحمل كل منها العامل المرضي المستتر فان ذلك التركيب يكون مميتاً فاذا كنا لانشاهد نساءً مراضاً فذلك لان النساء المراض يمتن في الرحم وهن في أول نشأتهن .

لقد اتخذنا من النمط الوراثي في المثال المتقدم دليلاً على ارتكاز بعض العوامل الوراثية على الصبغيات الجنسية . ولنعد الآن قليلاً الى « ذبابة الخل » فلقد قلنا إن الصفات الوراثية في التهجين تفترق عن بعضها افتراقاً مستقلاً لأن كل صفة لها عامل أي مسبب متوضع على صبغي خاص . وحرية التفرق تأتيها من حرية تنقل الصبغيات عندما يكون الهجين خلاياه التناسلية . ولكن كيف نستطيع أن نأخذ فكرة عن عدد العوامل الوراثية الموجودة على كل صبغي ؟

لقد قام الباقون وهنا نخص منهم بالذكر (Morgan) و (Sturtevent) و (Bridges) و (Müller) بدراسات وتجارب عظيمة في الدقة والاناة والمثابرة والصبر على التهجين بين عدد كبير من سلالات تلك الذبابة فوجدوا أن الصفات الوراثية المعروفة فيها كانت تنتقل وكأنها موزعة على أربع مجموعات ، أي كأن لها أربعة حوامل تنتقل وهي متربعة على ظهورها . لدينا إذن نحو أربعمائة صفة وراثية لها عواملها الوراثية وهي تظهر في تجارب التهجين متوزعة على أربع مطايا . ماهو السبب ؟ السبب أن خلايا هذه الذبابة تحوي أربعة أزواج مختلفة من الصبغيات فيكون كل زوج من هذه الازواج الأربعة حاملاً لمجموعة من المجموعات الأربع من الصفات الوراثية المعروفة ، أي ان كل صبغي يكون في النتيجة مقراً لعدة صفات مترابطة متلازمة عليه . وهذه هي فكرة ارتباط العوامل الوراثية على صبغي واحد ، وهي مايعبر عنه علماء الوراثة الامريكيون بكلمة (Linkage) . والواقع أن الباقين قد توصلوا إلى وضع قائمة الصفات الوراثية المتوضعة على كل زوج صبغي .

ولقد مكنتهم كذلك بعض الحوادث التي تجري بين الصبغيات التي تزدوج

مثنى مثنى عند تشكل الخلايا التناسلية ، وهي حوادث تقوم على تصالب بين الصبغيات وتبادل في المادة بينها ، أقول لقد مكنتهم هذه الحوادث من تعيين اماكن العوامل الوراثية على طول الصبغيات ، أي انهم كونوا وفقاً لتعابير الوراثيين مخططاً وراثياً لكل صبغي يدل على ترتيب توزع العوامل الوراثية فيه. وهكذا وضع (Morgan) ومعاونوه اسس أعظم ما شيده علم الحياة الحديث جرأة وعبقرية .

رأينا ان إستنتاجات الوارثيين قد أدت بهم إلى أن يدركوا أن للصبغيات بنية داخلية تخصص بتوضيع العوامل الوراثية عليها توضعاً خطياً ورأينا أنهم تمكنوا كذلك من تعيين الاماكن النسبية لهذه العوامل الوراثية في صبغياتها ، ولكن الحظ يجر الحظ ، إذ وجد الباحثون في ذبابة الخل نفسها صبغيات لها صفات خاصة وأدت في هذا الميدان خدمة عظيمة ، وهذه الصبغيات هي الصبغيات التي تحويها نوى خلايا الغدد اللعابية في يرقانة ذبابة الخل بصورة خاصة ويرقانات الحشرات ذوات الجناحين بصورة عامة . واليرقانة المقصودة هي المرحلة الدودية من تطور هذه الذبابة .

إن لهذه الصبغيات صفات خاصة لا نبحث فيها ، ولقد سميت « الصبغيات العمالقة» نظراً لطولها إذ ان مجموع أطوال الصبغيات العادية في المنسليات هو سبعة ميكرونات ونصف ، أما مجموع أطوال صبغيات الخلايا اللعابيـة في اليرقانة فيبلغ « ١١٨٠ » ميكروناً أي ان صبغيات الغدد اللعابية أطول من الصبغيات العـادية بمئة وخمسين مرة .

لنلق نظرة على قطعة منها بعد التثبيت والتلوين بالطرق المناسبة نجد انها تبدي شرطاً عرضية يختلف شكلها ويختلف ثخنها ، ولقد بين الباحثون أن توزع هـذه الشرط العرضية ثابت في كل صبغي ، وان لكل صبغي منها شكلية يتميز بها ، فلكل شريط عرضي فيه شكل ومكان معينان محددان . ولقد وضع الباحثون مخططات خاصة لهذه الصبغيات وعينوا فيها مكان كل شريط .

ولكن الشيء الهام هو ان الباحثين قد تساءلوا عن العلاقات بين هذه الشرط العرضية وبين اماكن العوامل الوراثية . أما الجواب فقد أعطي من دراسة عدد

كبير من الحوادث والأعراض التي تطرأ على صبغيات الخلايا التناسلية كانتقال أجزاء منها أو فقدانها أو انعكاسها فتدل عليها بعد ذلك الصبغيات اللعابية باضطرابات مرئية في تعاقب الشرط العرضية .

تساءل الباحثون : هل من تطابق بين حبيبات الشرط العرضية وبين العوامل الوراثية التي رأينا أنها تتوضع توضعاً خطياً على طول الصبغيات ؟

لقد استعمل الباحثون طرائق شتى فاستعملوا الأشعة (X) لتجزئة هذه الشرط واستعملوا الاشعة فوق البنفسجية لتحليل الشرط الثخينة التي تبدو بسيطة . وخلاصة ابحاثهم في هذا الصدد أن الشرط العرضية الشديدة الدقة يمثل كل منها مكان عامل وراثي واحد ، مكان مورثة واحدة . أما الشرط الثخينة فهي شرط مركبة ولكن عدد عناصرها يظهر متوافقاً مع عدد امكنة المورثات التي يدل عليها التحليل الوراثي . وأشار الى اهمية « الصبغيات العمالبق » في خلايا الغدد اللعابية هذه الأهمية التي تجلت لنا الآن ، كنا لفظنا قبل هنيهة ان ذبابة الخل قد سال « مع لعابها » أروع ماجاء به علم الحياة الحديث .

وقصارى القول ان الصفات الوراثية تتمثل في الخلايا التناسلية بمعينات متميزة مستقلة نطلق عليها اسم العوامل الوراثية أو المورثات . هذه العوامل الوراثية هي شرط تكون الصفات ، إنها تمثل الامكانيات التي تنم عنها الملاحظة والمشاهدة .

ولكن ماهي طبيعة هذه العوامل الوراثية ؟

يرى الباحثون ان العامل الوراثي يتألف من ذرة ضخمة نووية بروتيئينية ويحتمل أن يكون طولها نحو مئة ميليميكرون .

المورثة هي ذرة نووية بروتيئينية ، ألا يستدعي هذا الأمر لبالنا شيئاً ؟

إما في الطبيعة لعناصر مستقلة مؤلفة من ذرات نووية بروتيئينية وهي « الفيروسات البروتيئينية » التي تسبب في أوراق التبغ مرض « فسيفساء التبغ » فهذه الفيروسات تتألف كذلك من ذرات نووية بروتيئينية ضخمة . وهي تطرح لنا مسألة التركيب

والانتظام ضمن نطاق الذرات الكيميائية . إن لدينا على هذه الصورة سلماً للبنية والتعضي ، سلماً نظامياً يمتد من الذرة الكيميائية حتى الـكائن المعقد ، وعلى هذا السلم يمكننا أن نتساءل اين تبتديء الحياة ؟ وكأن الجواب يكون أن ثمة شكلين للحياة فهنالك الشكل الخلوي للحياة وهنالك الشكل ما قبل الخلوي للحياة . وأما الفيروسات البروتيئينية التي يتطلب تكاثرها وسطاً خلوياً فقد ظهرت بعد الخلية ، وقد يكون أصلهـا من تطفل وتراجع . ولقد فرض بعضهم أنها قد يكون لهـا أصل خلوي داخلي كأن تكون بعض العوامل الوراثية قد انتقلت من خلية الى أخرى وأضحت فيروسـات بروتيئينية . ونرى من هنـا أية آفاق يفتحها ذلك التقريب بين العوامل الوراثية والفيروسـات البروتيئينية في تخيل طبيعة هـذه العناصر ومفهومها .

تلـكم هي ايها السيدات والسادة ، الوراثة الكلاسيكية او كما ينعتها بعضهم ، الوراثة « المندلية المورغانية » . وخصائصهـا الرئيسية ان العوامل الوراثية فيها متوضعة على الصبغيات ، وان التغير والتبدل اي حصول الشكل الجديد الذي يجب ان يصبح وراثياً هو الذي ينتج من تبدل في بناء العامل الوراثي نفسه . التغير في هذه الوراثة هو تغير فجائي منقطع وراثي في الحال ، هو طفرة وهـذا ما كان عبر عنه (De Vries) بكلمة « Mutation » . أما الشروط الخارجية الـتي تحيط بنمو الفرد والتي قد تؤثر في جسمه بعض التأثير وتكسبه بعض الصفات الظاهرة فليست لها أهمية من الناحية الوراثية . ولا تكون الصفات المكتسبة وراثية اذا لم يقع في الذخيرة الوراثية الصبغية اي تغير وتبدل . ويحصل التغير الفجائي المنقطع الوراثي ، في هذه الوراثة الكلاسيكية ، كلما تزعزع هيكل العامل الوراثي ، كما تزعزع بناء الذرة النووية البروتيئينية الضخمة ، وهـذا التغير قد يحصل بصورة طبيعية ضمن نسب تختلف اختلافاً عظيماً، وقد يحدث بالتجربة اذا سلطت الاشعة (X) على الخلايا التناسلية . والمدرسة الاميركية قد خطت في هذه الميادين خطى واسعة. أما الصفات المكتسبة فليست بصفات وراثية .

لقد هبت في السنوات الاخيرة على هذه الوراثة الكلاسيكية «المندلية المورغانية» رياح باردة من الشرق اتتها من المدارس الروسية على لسان «الميتشورينيين» و «الليسنكونيين». اما ميتشورين (Mitchourine) فهو زراعي روسي عملي مجرب عاش من سنة ١٨٥٥ الى سنة ١٩٣٥. وأما ليسنكو (Lyssenko) فهو رئيس مجمع «لينين» للعلوم الزراعية اليوم، وهو دعامة الهجوم على الوراثة الكلاسيكية. فما هي خلاصة الميول الروسية الجديدة في قضية الوراثة؟

ان الوراثة الكلاسيكية «المندلية المورغانية» في نظرهم وراثة عقيمة غير مجدية من الناحية العملية ومضرة من الناحية الفكرية المبدأية، ولا تتفق كلها مع بعض الوقائع التجريبية الحيوية. فالوراثة التي تهمهم والتي يحرصون عليها هي الوراثة العملية المجدية التي تناقض جهود الفرد في توجيه الطبيعة. يقول «ليسنكو»: «ان العلم الذي لايفتح آفاقاً أمام النواحي العملية التطبيقة، وان العلم الذي لايعطيها قوى توجيهية، وان العلم الذي لا يوحي الثقة ببلوغ أهداف عملية تطبيقية، ان علماً كهذا ليس جديراً بان يسمى علماً».

ويقول «فافيلوف S. Vavilov» رئيس المجمع العلمي في الاتحاد السوفيتي: «ان العلم السوفيتي يبقي بين فكرة النظرية المجردة وبين الناحية العملية الفنية رابطة لا يستغنى عنها. فالعالم مهما تكن المسائل التي يهتم بها مجردة فهو يتذكر على الدوام أن للعلم غاية هي خدمة المجتمع، وهو يبذل جهده بكافة الوسائل التي يتصرف بها ليؤمن وليقيم على أسرع صورة ممكنة رابطة بين النتائج التي ينتهي اليها وبين الناحية العملية».

ان الوراثة الكلاسيكية في نظرهم وراثة عقيمة لان العضوية لا تستطيع ان ترث الا الصفة التي كانت موجودة في والديها. ولما كانت النسج الجسيمة منفصلة انفصالاً مطلقاً عن مجموعة الخلايا التناسلية منذ ابتداء تكوّن الفرد فلا شيء مما يمس النسج الجسيمة يستطيع ان يؤثر على سلسلة الخلايا التناسلية، وعلى هذه الصورة لا يمكن ان تصبح الصفات المكتسبة خلال حياة الفرد قابلة للانتقال اي وراثية.

والوراثة الكلاسيكية في نظرهم مضرة من الناحية الفكرية المبدأية فهي وراثة رجعية عرقية لان الوراثة « المندلية المورغانية الفايزمانية » التي تقوم على استقلال وخلود الاصل المنشيء اي مجموعة الخلايا التناسلية بالنسبة للجسم الموقت الميت ،لان تلك الوراثة كانت مضرة في النطاق الاجتماعي والسياسي لان العرقيين « الهتلريين» قد عرفوا كيف يستخدمونها الى أبعد حد ، ولان « الروح العرقية » التي انتقلت في نظرهم خلال التقلبات الاجتماعية من دون تبدل منذ الجرمنيـة القديمة ، توازي وتعادل بالضبط البلاسما الاصلية المنشئة الفايزمانية التي تنتقل بدون تبدل خـلال كافة الاجيال والانسال .

ان الوراثيين الروسيين ذوي الميول الجديدة لا ينكرون دور الصبغيـات في نقل الصفات الوراثية . و « ليسنكو » يعترف بذلك قبل غيره اذ يصرح بان ما قاله لا ينقص دور الصبغيات في شيء .

ولكنهم يعيبون على الوراثة الكلاسيكية « الفايزمانية المندليـة المورغانية » مبالغتها في قصر انتقال الصفات الوراثية على النواة . وهم يرون ان انتقال الصفات الوراثية يتم ايضاً بسيتوبلاسما البيضة ويعتمدون في اثبات ذلك على بعض وقائع علم الجنين التجريبي الحديث ، وعلى تجـارب الالقاح بين أنواع حيوانية متبـاعدة . وانصار هذه الميول الجديدة لا يرغبون في التمييز بين وراثة نووية صبغية ووراثة بسيتوبلاسمية وانما هم يعتبرون ان المركب المعقد المؤلف من النواة والسيتوبلاسما اي مجموع البيضة الملقحة هو الذي ينقل الصفات الوراثية . فالميل الجديد هو النظر الى القواعد المورغانية كمظهر هـام جداً ، ولكن كمظهر فقط ، من نظرية للوراثة أوسع نطاق وأبعد مدى تستمد بعد مظاهرها ووجوهها الاخرى من مجموع الوقائع والامور التي أتى بها ليسنكو والميتشوريניون . ونرى اصحاب هذه الميول الجديدة يصرون على ايراد الامثلة التي تبين في نظرهم دور السيتوبلاسما في الوراثة . ونراهم لا ينسون ان يذكروا ان « مورغان » نفسه كان صرح بان تفسير الوراثة المندلية وفاقاً لاساس صبغي لا يمنع احتمال وجود اشكال اخرى للوراثة تتوقف على العناصر

والمركبات الاخرى في الخلية. وهم يرون ايضاً ان تجارب « بول بريان Paul Brien » وتحرياته قد أظهرت الخلايا التناسلية في بعض الحيوانات الدنيا كالاسفنجيات والهدريات والديدان والحيوانات الطحلبية يمكنها أن تنشأ من العناصر الجسمية غير التناسلية في الاصل . أي أن هذا الامر يناقض نظرية استقلال الخلايا التناسلية عن بقية خلايا الجسم. وهم يلمحون كذلك الى ان «مورغان» نفسه قد ذكر في كتابه علم الجنين والوراثة أن احدى المسائل الاساسية في النمو هي امكان تبادل التأثير بين الصبغيات والسيتوبلاسما وأن من المقبول ان تتعقد المورثات بالتدريج أو أنها تتبدل بحال من الاحوال خلال النمو كجواب على تبدل السيتوبلاسما التي تحيط بها. وتبدلات العوامل الوراثية تعود فتؤثر بدورها على السيتوبلاسما .

ان الميول الجديدة تدعم مسألة وراثة الصفات المكتسبة . وليسنكو يوجه النظر اولا الى أن الصفة يمكنها ان تكتسب في كل سن وفي أي جزء من الجسم ، وليس من أحد يستطيع في نظرهم ان يناقش اكتشاف ليسنكو المتعلق «بالتربيع» اذا صحت هذه الكلمة ، ذلك الامر الذي يمكن ، بتأثير درجات حرارة متناسبة ، حبوب الشتاء المبزورة في الربيع من ان تنبت وتثمر . ولكن المناقشة لا تبدأ الا بصدد انتقال الصفات المكتسبة انتقالا وراثياً .

ولكن الشيء الذي يبدو هو ان الروسيين اصحاب الميول الجديدة يفهمون من كلمة « الوراثة » معنى غير المعنى الذي يفهمه منها علماء الحياة الكلاسيكيون . فالوراثة في ذهن ليسنكو هي خاصة الجسم الحي في أن يتطلب شروطاً معينة لكي يعيش ويتوسع ، وفي أن يرد بصوره معينة على هذا الشرط أو ذاك . ولذلك فان الميتشوريتيين عندما يتكلمون عن وراثة الصفات يجب ان تجري وتختبر على الدوام في نفس الشرط التي اكتسبت ضمنها . أما الوراثة الكلاسيكية فمفهومها ان هذه الصفة تكون قد اكتسبت حقاً ويكون هنالك وارثة صفة مكتسبة اذا كانت الصفة تظهر في كل جيل في شروط غير الشروط التي اكتسبت فيها ، وفي شروط حياتها الاولى .

لنضرب على هذه الفكرة مثلاً تجربة قديمة معروفة للعالم المشهور « غاستون بونيه Gaston Bonnier » . لقد أخذ هذا العالم بزور القلقاس الرومي وبزور اللؤلؤية التي كانت في السهل وزرعها في الجبال على ارتفاع قدره ٢٤٠٠ متر فحصل على نباتات ، سوقها قصيرة جداً ، واوراقها بشكل وريدة ، وأزهارها شديدة اللون . ثم أخذ بزورها وزع قسماً منها في المكان المرتفع نفسه فاعطت البزور أيضاً نباتات سوقها قصيرة جداً كالنبات الذي أتت منه البزور . وكلما زرعت البزور في المكان المرتفع نفسه أعطت نفس النباتات القصيرة . ان هذا الامر في مفهوم الوراثة الميتشورينية هو وراثة صفات مكتسبة . ولكن تردد الصفات « الألبية » في المكان المرتفع نفسه على هذا الشكل ليس هو في نظر الوراثيين الكلاسيكيين وراثة صفات مكتسبة لان البزور التي تجمع من المكان المرتفع إذا ما زرعت في السهل أعطت من جديد نباتاً عالياً . فلقد اكتسب النبات في نظر الوراثيين الكلاسيكيين الصفات « الألبية » ولكن ليس في الامر وراثة صفات مكتسبة .

ويثير كذلك أصحاب الميول الجديدة في الوراثة مسألة الهجناء النباتية التي يحصل عليها « بالتطعيم » لا بالتكاثر الجنسي الالقاحي. وهي مسألة التأثير المتبادل بين حامل « الطعم » وبين « الطعم » نفسه وهي مسألة كان آثارها في القديم بعض الباحثين الذين اظهروا بين الطعم وحامله تأثيراً متبادلا . ولكن الميتشوريين وليسنكو نفسه معهم يشيرون الى ان شروط التطعيم يجب ان تكون دقيقة جدا حتى يتحقق النجاح من جهة ووراثة الصفات التي تكتسب بالتطعيم، فكأنهم لا يحرصون الآن على ابداء رأي نهائي .

ويفخر الميتشوريون كذلك بمسألة تحويل الحبوب التي كان الدافع الاول اليها تحريات ليسنكو القديمة على « التربيع » . فلقد لوحظ ان حبوب «اسكاندينافيا» إذا زرعت في الشمال فهي تثمر بعد دور أقصر بكثير من الدور الذي يلزمها في

الجنوب . وإن بزورها إذا ما زرعت بعد ذلك في مناطق أشد بعداً نحو الجنوب أعطت ، خلال بضعة انسال على الأقل نباتات تتمتع بالخاصة نفسها . ولقد ظن في أول الأمر أن ثمة صفة مكتسبة وراثية حتى لوحظ أن الأمر هو اصطفاء للحبوب لأن البزور المجموعة لم تكن متجانسة في البدء . وفي هذه الحال تكون أشد الحبوب إسراعاً هي وحدها التي تستطيع أن تثمر خلال الصيف الشمالي القصير .

أما ما يتعلق بتحويل قمح الربيع إلى قمح خريف وبالعكس وفقاً لتجارب ليسنكو ، فان الروسيين ينفون قضية تدخل الاصطفاء وحده ويقولون بوراثة صفات مكتسبة .

يأخذ أحدهم أصنافاً نقية من قمح الربيع ويزرعها في الخريف ، وهذا على حسب تعبير عزيز على « الليسنكويين » مايهز وراثتها ويزعزعها ، وبعد تكرير ذلك مرتين ، أي بعد « تشتيتين » فان صنفين من الأصناف قد تحولا الى قمح خريف بنسبتين مختلفتين . ولكنهم يلاحظون مع ذلك أن عدد الصبغيات يختلف في القمح الأول عنه في الثاني .

إن أصحاب الميول الجديدة يحرصون على النتائج العملية حرصاً قوياً . انهم لحريصون بصورة عامة على أن تكون ثمارهم صالحة سريعة الايناع دانية القطوف ولذلك فانهم يرون عمل الوراثيين الكلاسيكيين عملاً مجرداً بطيئاً لأنه يجب أن يستند في أساسه على تنقية العروق بتحليل وراثي قد يدوم عدة أجيال . وليسنكو يعيب على الوراثة الكلاسيكية انها لم تؤد الى نتائج صالحة للزراعة إلا نادراً وإلا على التصادف . إنه يعيب عليها انها تنتظر على حسب تعبيره عطف الطبيعة عوضاً عن ان تنتزع منها ما تريده . إن الاستاذ « كيسلوفسكي » من معهد « تيميريازيف » يتهم خصوم ليسنكو بأنهم أعداء النواحي العملية . إن الميتشورينيين يستندون الى امكان والى ضرورة وراثة الصفات المكتسبة .

ماذا يستطاع قوله في هذا الخلاف الظاهر بين الوراثيين أصحاب الميول الجديدة

«الميتشورينية الليسنكوية» وبين الوراثيين الكلاسيكيين «المندليين المورغانيين؟»

إن لمن الانصاف الثناء على النتائج العملية التطبيقية التي حصلت عليها المدرسة الروسية الجديدة. ولكننا نقدر ان الخلاف لم يبحث لا في الشرق ولا في الغرب بالروح العلمية البحتة المجردة. لقد ابتدأ العلماء نقاشهم وهم مختلفون على معنى ومفهوم كلمة «الوراثة» كما رأينا. ونظن أنهم إذا ما اتفقوا على تحديد معنى ومفهوم ومدى لكلمة «الوراثة» وإذا ما بحثوا المسألة بروح علمية صرفة محضة فسيكونون أقرب إلى بعضهم مما نظن ونتوقع.

* * *

العمران البرازيلي وأثر المغتربين فيه [1]

للسيد ادواردو سالم المغترب السوري في سان باولو

سيداتي وسادتي :

١ – أستأذنكم فور ابتداء حديثي بايضاح يتعلق بعنوانه ، وهو أن مجال القول ذو سعة ، ولما كانت الاحاطة به من جميع أطرافه تستغرق الساعات الطوال ، وحرصاً مني على راحتكم وضناً بوقتكم الثمين فاني سأحاول استيفاءه باقصى ما يمكن من السرعة مستنداً الى معلومات واحصاءات رسمية .

٢ – أبدأ وإياكم باستعراض خاطف لتاريخ تأسيس سان باولو أهم ولايات البرازيل فأقول :

٣ – ان الاتصال الاول بين الارض الباولسانية المعروفة اليوم والرجل المتمدن حدث غب مرور عام ونصف عام على اكتشاف البرازيل . وكانت وسيلته العثور على ميناء اطلق عليها اسم « نهر سان فيسنتي San vicente »

٤ – في سنة ١٥٣٢ وضعت نواة أول قرية في النجد الذي سمي « سانطو أندره دا بوردا دو كامبو Santo andré da porda do Campo » .

٥ – ولم تؤسس مدينة سان باولو الحالية الا سنة ١٥٥٤ . وقد سميت في أول عهدها « سان باولو دوس كامبوس دي بيراتيننغا San polœ dos Campos di piratininga »

٦ – ولم تنقض بضع سنوات على تأسيسها حتى بدىء فيها باستغلال القطن

---

(١) القيت على مدرج الجامعة السورية الكبير أثناء زيارة المغتربين لسورية الوطن الام .

لأنها كانت موطنه ، وتربية الماشية ، وصنع المربى ، والسكر ، وقبعات اللباد .

٧ — وفي سنة ١٥٩٠ اكتشف الذهب في جوار سان باولو وأنشئت أول دار لسك النقود في البرازيل .

٨ — وفي أواخر سنة ١٦٠٠ كانت قرية سان باولو مؤلفة من مئة بيت يسكنها نحو ثلاثمائة نفس .

٩ — ولم ترق الى مرتبة مدينة الا في سنة ١٧١١ .

١٠ — وفي سنة ١٧٦٦ كان في مقاطعة سان باولو مدينة واحدة وثماني قرى وتسع حلل للهنود وثماني وثلاثين دسكرة يبلغ مجموع سكانها ٥٨٠٧١ شخصاً .

١١ — وفي سنة ١٧٨١ رسمت خطة للسير بالمدينة الباولسانية في سبيل النمو وهكذا بدأت تتحضر .

١٢ — وما أزفت سنة ١٧٩٥ حتى بدىء بتصدير البن .

١٣ — وفي سنة ١٧٩٨ انشئت دائرة البريد .

١٤ — وبمجيء الاسرة المالكة الى البرازيل وإباحة الموانيء البرازيلية للبلدان الموالية استهل مرفأ سانطس (Santos) السانبولي معاملاته الدولية .

١٥ — في سنة ١٨١٣ تولى توماس رودريغس (Thomas Rodriguès) تعليم الحياكة وادارة الانوال وبذلك نشأت في سان باولو صناعة المنسوجات .

١٦ — وبترقية البرازيل الى مرتبة مملكة متحدة اصبحت مقاطعة سان باولو ولاية ، وفي سنة ١٨١٥ اي بعد انقضاء ٢٦١ سنة على تأسيسها رقيت سان باولو الى رتبة حاضرة .

١٧ — وفي السابع عشر من شهر ايلول عام ١٨٢٢ نادى الامير دون بدرو باستقلال البرازيل وكان عدد سكان الولاية اذذاك قد بلغ ٢١٩,٠٠٠ شخصاً منهم ٢٤٠٠٠ في الحاضرة .

١٨ — وفي سنه ١١٢٨ انشيء في سان باولو أول معهد لتدريس الحقوق . وفي ذلك العهد كانت في الولاية عدة مصانع لانتاج السكر والملح والقرميد والآجر

والكحول والاسلحة، كما كانت هناك مناشر للحطب وانوال لحياكة القطن والصوف، وفي سنة ١٨٤٠ ساهمت سان پاولو باثنين وثمانية أعشار في المئة من الانتاج العام في البلاد .

١٩ — وفي سنة ١٨٤٢ كانت الحاضرة تنار بالزيت وفي ١٨٧٢ بالغاز وفي ١٨٩١ بالكهرباء .

٢٠ — وفي سنة ١٨٥٣ كانت سان پاولو تؤوي ستين الف اوروبي .

٢١ — وقد جهزت سان پاولو بالتلغراف الكهربائي سنة ١٨٦٦ .

٢٢ — وفي سنة ١٨٧٠ ساهمة ولاية سان پاولو بخمسة عشر بالمئة من الانتاج الوطني.

٢٣ — وفي عام ١٨٧٢ دشن أول خط للحوافل التي تجرها البغال في الحاضرة.

٢٤ — في سنة ١٨٧٧ تم الاتفاق مع الشركة التي كانت تعهدت بانشاء شبكة المياه والمجاري . وفي سنة ١٨٨٣ ركبت في مدينة سانطس (santos) الاجهزة التلفونية الاولى .

٢٥ — في سنة ١٨٨٦ قويت حركة المهاجرة التي كان لها أعظم الاثر في ترقية شؤون البرازيل ، وبنوع خاص لسان پاولو وذلك بانشاء « جمعية تنشيط الهجرة » وتدشين « مضافة المهاجرين » .

٢٦ — وفي سنة ١٨٨٧ انشيء المصنعان الاولان للثقاب والورق .

٢٧ — وعندما نودي بالجمهورية البرازيلية في سنة ١٨٨٩ كان عدد السكان في ولاية سان پاولو قد بلغ ١،٣٨٤،٧٥٣ نسمة .

٢٨ — وفي سنة ١٩٠٠ أصبح مصير سان پاولو التقدمي بيناً اذ بلغ فيها انتاج مبلغ ٦٦ بالمئة من مجموع انتاج البلاد . وفي ذلك العهد ازدانت الحاضرة بالسيارة والسينما والحافلة الكهربائية .

٢٩ — وقد ارتفع عدد سكان الولاية من ثلاثة ملايين سنة ١٩١٤ الى اربعة ملايين ونصف المليون سنة ١٩١٩ وهو اليوم ٨،٣٦٠،٣٥٩ نسمة .

٣٠ — وقدر عدد من دخل من المهاجرين الى ولاية سان پاولو بين سنتي ١٨١٩ — ١٩٢٠ أي في مدى قرن واحد بأكثر من مليون وستمئة الف مهاجر .

٣١ — وكان دخول المذياع سنة ١٩٢٤ .

٣٢ — في هذا العهد كانت سان پاولو قد بدأت تسير نحو رتبة « اكبر وسط صناعي في امريكا الجنوبية » .

أسباب ارتقاء سان پاولو

٣٣ — لامشاحة في أن ارتقاء أية امة يتوقف على مبلغ نمو صناعتها وزراعتها وتجارتها .

٣٤ — وقد كان من نتيجة تدفق سيل كبير من المهاجرين « القادمين من العالم القديم بما اقتبسوه من خبرة وحنكة أن تهيأت لسان پاولو السبيل لتصبح وسطاً صناعياً ذا أهمية تبرر اللقب الذي تقدم ذكره .

٣٥ — أما الخصائص المشاهدة في سان پاولو والجديرة بالتسجيل فهي التالية :

٣٦ — (أ) كونها أكبر مركز لاكثرية خطوط المواصلات الحديدية والبرية والجوية .

٣٧ — (ب) كونها اكبر مركز للقوة الشرائية في البلاد .

٣٨ — (ج) اعتدال مناخها بسبب ارتفاعها .

٣٩ — (د) كثرة الأيدي العاملة فيها وكفاءتها .

٤٠ — (ه) وفرة القوة الكهربائية .

٤١ — (و) مصارفها المالية الممتازة .

٤٢ — (ز) تفوق أسلوب التعليم فيها .

٤٣ — (ح) مراكزها الممتازة لتجديد القوة وممارسة الرياضة .

٤٤ — وبين أن مجموع هذه العوامل مضافاً الى ماسبق ذكره قد هيأ لولاية سان پاولو السبيل لبلوغ المستوى الذي بلغته اليوم ضمن نطاق الوطن البرازيلي .

نتيجة الارتقاء السريع

٤٥ — ان التوسع الصناعي المذهل الذي بدأ بعد الحرب العالمية الاولى الفى سان باولو خلواً من الوسائل التي تمكنها من مماشاته . وكان من نتيجة تكاثف السكان في المدن للقيام بالاعمال الصناعية ان خلق — لابالنسبة للحاضر فحسب بل ايضاً بالنسبة للمدن الصناعية بطبيعة موقعها كسوروكابا (Sarocaba).وجونديا هي (jundiai) وسواهما — مشاكل عسيرة الحل كتوفير المساكن للعمال ووسائل نقلهم واذ ذاك تجلت الضرورة الماسة لوضع خطة قومية للتنظيم المدني .

٤٦ — ومن المعلوم ان التمدين فرع من البسيكولوجيا العملية يهدف الى ايجاد التناسب بين جميع مرافق المدينة ، فهناك الأنفاق السطحية منها والمرتفعة والاستفادة المعقولة والمستحسنة والصحية والاقتصادية من اراضي المدينة ، انقاص التفاوت الاجتماعي ، والحل المعقول لمشكلة السكن والساحات والحدائق والمعابد والمدارس والمصانع والمستشفيات والمكتبات والمتاحف ووسائل النقل المناسبة من حيث توزيعها ومواقعها .

٤٧ — ولما كان نمو سان باولو في السنوات العشر الاخيرة يفوق حدود التصور ، حتى انها فاقت مدن اميركا الشمالية في اقصى ادوار نموها ، فان من السهل تصور المشاكل التي يترتب على اخصائيي بلادنا حلها .

٤٨ — وعلى سبيل الايضاح يمكننا القول انه في السنوات العشر الواقعة بين ١٩٤٠ — ١٩٥٠ ازداد عدد سكان الحاضرة ٨٠٠ الف شخص . وفي غضون ذلك العقد من السنين اجازت محافظتها البلدية تشييد ابنية في بقعة من الارض تبلغ مساحتها ١٤،٧٩٢،١٥٧ متراً مربعاً منها ٨،٥١١،٦٤٢ متراً مربعاً شيد فيها ٦١،٢١٨ منزلا للسكن . من هذا الاحصاء تبين ان تلك المساحة المبنية لم تحل مشكلة النقص في المساكن لان نصيب كل فرد من الزيادة السابقة الذكر لم يتجاوز عشرة امتار مربعة .

٤٩ — وقد اسفرت الدراسة التي قام بها الفنيون الاخصائيون من انه يوجد في سان باولو نقص يبلغ ثلاثين الف مسكن لمئة وخمسين الف شخص لا يزالون يقيمون في مساكن لاتتوفر فيها شروط الراحة والرفاهية .

٥٠ — ولما كانت هـذه الظاهرة فيها موجودة في جل حواضر الولايات البرازيلية الاخرى ، فقد اعتزمت الحكومة الاتحادية مداواتها بالاكثار من بناء البيوت الشعبية ، اما من نوع الشقق أومجاميع متلاصقة .

٥١ — والى جانب ذلك نرى الحكومة الاتحادية وحكومات سائر الولايات عاملة على تيسير بناء المساكن الخاصة لكل من شاء من البرازيليين ، عاهـدة الى مؤسسة التأمين وصناديق التوفير بتسليف الاموال اللازمة لآجال طويلة اقصاها ثمانية عشرة سنة .

٥٢ — ولكي يمكننا تصور مقدار المسؤولية الملقاة على عاتق الحكومـة والاخصائيين لحل مشكلةالسكن في البرازيل يكفينا ان نعلم ان عدد سكان سان باولو حالياً يبلغ ٢٫٣٠٠٠٠٠٠ نسمة والمقدر ان يزداد هذا العدد الى اربعة ملايين في السنوات الخمسة عشرة المقبلة .

الباطون المسلح

٥٣ — ان ضرورة ايجاد حل عاجل لمشكلة السكن حملت المهندسين البرازيليين على دراسة وتشييد ابنية عظيمة القابلية للاستيعاب،وهي المعروفة «بناطحات السحاب» .

٥٤ — من هذه الدراسة نتجت ميزات مستغربة في صناعـة البناء المدني في البرازيل ، بالاخص في العاصمة الاتحادية وفي سان باولو ، ويتحلى هذا المظهر في فن المعمار ، بالأمور الآتية :

٥٥ — (أ) بما انه لم يكن هناك صناعة معدنية تكفي لتقديم ما يلزم من قطع الفولاذ والحديد المهيأة(وهي اليوم صناعة آخذة في النمو)فان المهندسين البرازيليين

المتلهفين لاقامة ابنية ضخمة لم يترددوا في الاستعاضة عنه بالباطون المسلح ، بينما تشاد الابنية التي من هذا النوع في مدائن اخرى بالفولاذ الذي يفضل لخفته. وقد نتج عن هذه التجربة البرازيلية الجريئة الحصيفة ان مهندسينا اصبحوا يؤلفون رهطاً كفؤاً مجرباً من خيرة الاخصائيين في هذا النوع من البناء معترفاً له بالتفوق في العالم باسره .

٥٦ — (ب) وحدثت ظاهرة مماثلة في ما يختص بالاسس إذ أن ثقل هذه الابنية الهائل بالنسبة الى تلك التي عمادها الحديد اوجبت على المهندسين البرازيليين التخصص في دراسة طبيعية الاعماق بوجه عام لوضع اسس تتحمل ذلك الثقل الباهظ .

٥٧ — واليكم مثلا خاطفاً من الامثلة الجديدة التي يمكننا ان نوردها في ما يختص بالابنية الضخمة ذات الخطوط الهندسية العصرية البديعة الشكل .

٥٨ — (١) ملعب ماراكانا (Maracana) في ريو دي جانيرو. وهو اكبر ملعب في العالم يتسع لمئتين وعشرين الف مشاهد .

٥٩ — (٢) بناء « الاتحاد الصناعي البرازيلي » في سان باولو وهو اضخم كتلة من الباطون المسلح في العالم ، ويتألف من ثلاث وثلاثين طبقة تقوم كل طبقة منها على مساحة قدرها ١٤٧٧ متراً مربعاً فيكون مجموع المساحة التي يشغلها واحدا وخمسين الف متر مربع . اما حجمه فيبلغ خمسة عشر الف متر مكعب وقد استخدم فيه اثنا عشر مصعدا من اسرع مصاعد العالم .

٦٠ — (٣) بناء مصرف ولاية سان باولو ذو الادوار الخمسة والثلاثين يعلو ١٥١ مترا .

٦١ — (٤) بناء مصرف البرازيل في سان باولو الجاري بناؤه . وكذلك مئات الامثلة التي نضرب صفحاً عن ذكرها برغم صلاحيتها لأن تقدم برهاناً على كفاءة الهندسة البرازيلية .

٦٢ — وكنتيجة لاستخدام الباطون المسلح في البرازيل على نطاق واسع فقد اصبح من الضروري تنمية صناعة الاسمنت .

٦٣ — وقد صار عندنا عشرة معامل تجد" في انتاج اسمنت بورتلاند (Portland) بمقدار ٥٦٥,٠٠٠ طن سنويا . اما قابليتها الانتاجية في سنة ١٩٥٣ فتقدر بنحو ٢,٦٠٠,٠٠٠ طن وهي الكمية التي تفي بالحاجة حالياً لأن البرازيل لا تزال تستورد ٣٠ بالمائة من الخارج .

٦٤ — وتلبية للطلب المتزايد على المعجون الحجري بأقصى ما يمكن من السرعة والاقتصاد ، فاننا نرى العمل جاريا في سان پاولو في المصنع المركزي للتحجر ، وهو الاول من نوعه الذي انشيء في البرازيل ، بينما تبذل الهمة لانشاء مصنعين آخرين في سان پاولو ومثلها في ريو دي جانيرو .

٦٥ — ولا يخفى ما لانشاء مثل هذه المصانع من الاهمية في صناعة البناء المدني إذ انها هي التي تمون الابنية الكبيرة الحجم بما تحتاج اليه من هذه المادة في اقصر وقت وبأقل نفقة .

القوة الكهربائية

٦٦ — يقتضينا الواقع ان نعترف بان ولايتنا مدينة بقسم كبير من النجاح الصناعي والاقتصادي الى المنشآت العظيمة لتوليد القوة الكهربائية التي تمونها .

٦٧ — ان موقع المدينة على بعد بضعة كيلو مترات من المنطقة الجبلية المشرفة على البحر ، وعلوها البالغ سبعمائة متر عن سطحه كان كبير الجدوى على الشركة صاحبة الامتياز في تموينها بما يلزمها من القوة الكهربائية — وهي شركة الترامواي والقوة والنور المحدودة — لانشاء المصانع الاكثر اهمية في البلاد .

٦٨ — في سنة ١٩٢٦ كانت القوة المحركة تقدر بـ ٤٠,٠٠٠ حصان ثم ارتفع ذلك في سنة ١٩٢٧ الى ثمانين الف وفي سنة ١٩٣٨ الى ٣٣٧,٠٠٠ و ٥٣٥,٠٠٠ سنة ١٩٤٨ وهو اليوم ٦٦٨,٠٠٠ . وانتاج هذا قدره وضع هـذه المصانع في مستوى أهم المصانع في العالم وفي مقدورهـا أن تبلغ قوتها الى ما يقرب من مليون حصان .

٦٩ — ومما هو جدير بالتسجيل ان هـذه المصانع المنشأة في سان باولو تموّن بالقوة الكهربائية مدائن أخرى لا في الولاية فحسب ، وانما تتعداها الى ريودي جانيرو والمنطقة الاتحادية ايضاً .

٧٠ — ولكي يستطيع المرء تصور كيفية استخدام القوة الكهربائية في سان باولو يكفينا أن نعلم أن الاستهلاك اليومي الذي لم يكن يزيد في سنة ١٩٠١ عن ٧٥٠٠ كيلوات صافي،وصل اليوم الى درجة عشرة ملايين كيلوات تستهلك حاضرة سان باولو وصناعتها نحو نصفه .

المياه

٧١ — ان الزيادة المدهشة للسكان في سان باولو تسهل تقدير الاعباء الباهظة الملقى حلها على كواهل الفنيين المسؤولين عن تموين الحاضرة بالماء .

٧٢ — وبغض النظر عن ان بلادنا وبالاخص سان باولو من البلدان الغنية بالمياه فان تزايد السكان غير المنتظر أوجد حالة مزعجة وأوجب بذل جهد جبار للتوصل الى ايجاد حل سريع لمشكلة حيوية من هذا النوع .

٧٣ — وبتعديل هذه المعضلة في حاضرة الولاية مع موالاة الاستناد الى الاحصاآت المستخرجة من منشورات رسمية تجلى لنا في المدينة العظيمة الصورة التالية :

٧٤ — كان من سرعة النمو في السنين الستين الاخيرة ان هذه المدينة التي كانت سنة ١٨٨٠ ضئيلة الحجم قد ازدادت مساحتها على نحو ما حدث في بعض بلدان اميركا الشمالية ولكن دون تصميم اجماعي لابد منه في وسط مدني كوسطنا تضخم ولا يزال آخذاً في التضخم بسرعة هائلة في بقعة كثيرة الشذوذ مختلفة التنظيم .

٧٥ — وبالنتيجة فان استمرارها في النمو دون ذلك التصميم التنظيمي وتركه لمشيئة اصحاب الاملاك يتصرفون فيه وفق ما تمليه عليهم نزعاتهم ومصالحهم كل ذلك يقضي بامتدادها بحيث تكونت فيها ضواح في اراض أفضل وضعاً ولكن دون

تصميم مدروس ومرعي فيه تخطيط الشوارع وتسهيل المواصلات بين هاتيك الخلايا السكنية التي يغلب ان تفصل بينها أودية عميقة عجز الجهد الفردي عن اخضاعها للتنظيم المدني لتخير أصحاب الشأن الاراضي الجافة المرتفعة التي يسهل تقسيمها بنفقة أقل .

٧٦ — فعلى هذا الشكل تكونت الضواحي التي شقت شوارعها تبعاً لطبيعة الارض وشذوذها فجاءت متلوية متعرجة ومناقضة لمبادىء الذوق والتنظيم المدني .

٧٧ — وقد كوّن امتداد المدينة في رقعة واسعة كثيرة الشذوذ والمنحدرات الحادة التي قد تبلغ مئة متر ، ووجود شوارع خاصة تمتد الى مسافات بعيدة دون تناسق ولا نظام ، ومساحات خالية بين الضواحي كل ذلك كون حوائل دون السير بالمدينة خطوة خطوة في سبيل التنظيم المثالي الذي يفرضه النمو المتزايد وحرم جانباً كبيراً منها الاستفادة كما يجب من الخدمات العامة وبالأخص الصحية منها كالماء والمجاري ومصارف السيول والنقل العام .

٧٨ — وتشغل سان باولو بموجب القرار البلدي رقم ١٠٥٧ الصادر في ١٦ نيسان سنة ١٩٣٦ الذي يحدد محيطها ما مساحته ٢٢،٨٠٠ هكتار من الارض ، وبفضله ازدادت مساحتها عما كانت عليه ٤٧ بالمئة اذ كانت قبله ١٥،٥٠٠ هكتار ويبلغ مقياسها الحالي من الشمال الى الجنوب ٢١ كيلومترا ومن الشرق الى الغرب ٢٢ .

٧٩ — ومنذ بدء نموها المطرد الذي ينتهي الى سنة ١٨٩٠ مرت بها ازمات دورية مسببة عن نقص مؤنتها من الماء هذه المادة التي لم ترافق قط نمو عدد سكانها التدريجي .

٨٠ — في سنة ١٨٩٣ تبينت حكومة الولاية عجز شركة كانتاريرا (Cantaréra) المستثمرة لمشروع الماء عن تموين المدينة بالمقدار اللازم منه فقررت استملاكها .

٨١ — وكان عدد سكان المدينة في ذلك العهد ١٢٠ الفا يمونون بستة ملايين من الليترات يومياً وعدد الأبنية ٨٦٤٢ يجري بها الماء بواسطة شبكة من الاقنية والانابيب يبلغ طولها ٧٣،٣٦٨ مترا .

٨٢ — وعلى هذا المعدل كان نصيب كل فرد من السكان ٥٠ لترا من الماء في اليوم .

٨٣ — وفي سنة ١٨٩٤ ، وكانت ملكية الشركة قد انتقلت الى الدولة ، بلغ مجموع ما تتلقاه المدينة من الماء ٢٧ مليونا من الليترات يومياً وكان عدد السكان قد ازداد الى ١٦٠ الفا مما جعل نصيب كل فرد يوميا ١٦٩ لتراً .

٨٤ — غير ان زيادة السكان المدهشة استمرت حتى بلغ مجموعهم سنة ١٩٠٠ ٢٣١،٨٢٠ شخصاً .

٨٥ — على هذه الوتيرة أخذ عدد السكان يتكاثر فارتفع الى ٥٧٩،٠٨٣ سنة ١٩٢٠ و١،٠٦٠،١٢٠ سنة ١٩٣٤ و١،٣٧٨،٥٣٩ سنة ١٩٤٠ و ٢،٣٠٠،٠٠٠ سنة ١٩٥٠ .

٨٦ — هذه الارقام تجلو للسامعين حقيقة الواقع وتمكنهم من تقدير الجهد الجبار الذي كان على المسؤولين في بلادنا ان يبذلوه لكي يقوموا بمهمة تموين سكان الحاضرة بالقدر الكافي من هذا السائل الثمين .

٨٧ — وأزاء هذه الحال صح عزمهم على وضع خطة توفر الماء لثمانية ملايين تخص بمعدل ٥٠٠ لتر يومياً لكل فرد .

الملاحة النهرية

٨٨ — يخترق حاضرة ولايتنا نهر يسمى تياته (Tiété) وهو نهر كثير التعاريج وقدتتبع اللوائيون (Bandéireutés) مجراه المتعرج ايام توغلوا في المجاهل بحثاً عن الذهب ، لذلك كان نهراً اسطوريا .

٨٩ — وللتوصل الى الاستفادة منه على أفضل شكل تبذل المساعي منذ سنوات لتقويم مجراه وتوسيعه وتعميقه .

٩٠ — من المنتظر ان تتم هذه الاعمال في غضون سنتين ويبلغ طول تلك الشقة من الشرق الى الغرب ١٨ كيلومترا .

٩١ — ومتى تم هذا المشروع الهندسي العظيم تكسب سان پاولو شكلا أخاذاً على غاية من الاهمية للاسباب التالية :

٩٢ — (أ) تصبح المنطقة الواقعة على الضفتين صحية .

٩٣ — (ب) ترتفع أثمان الاراضي في تلك المنطقة ومايجاورها ارتفاعاً كبيراً.

٩٤ — (ج) يزول الخطر من الفيضانات .

٩٥ — (د) تتيسر الاستفادة من الملاحة السريعة للركاب والبضائع من أحد طرفي المدينة الى الآخر في مراكب يبلغ محمولها ستمائة طون .

٩٦ — يتوج كل ما تقدم شق شارعين على الجانبين يزيد عرض كل منهما على ٥٠ متراً.

٩٧ — أما الفوائد التي تنجم عن شق ذينك الشارعين فهي التالية :

٩٨ — (١) إمكان مد خطوط حديدية لجميع القطر التي تقصد الى الحاضرة وتغادرها في جميع الاتجاهات نحو داخلية البلاد .

٩٩ — (٢) اقصاء السكك الحديدية عن الاوساط المزدحمة حيث توجد اليوم ، وبذلك يتسع المجال لحركة الانتقال إذ ان اكثر الخطوط تخترق الشوارع في الوقت الحاضر على مستوى واحد مما يقضي بتوقف حركة السير عند مرور القطر .

١٠٠ — (٣) تسهيل بلوغ وسط المدينة من أجل الاحياء الكثيرة الحركة وأهمية تقويم هذا النهر ذي الصلة الوثيقة بتاريخنا لا تقتصر على ولايتنا بل تشمل البرازيل بأسرها .

طرق المركبات

حتى سنة ١٩٤٢ كانت ولاية سان پاولو قد شقت من طرق المركبات ما يبلغ طوله ٥٫٤٠٠ كيلومتراً ورسمت خطة تقضي بشق ثلاثة آلاف كيلو متراً سنوياً

لمدة خمس سنوات . على أن الحرب أضرت بهذه الخطة ضرراً بالغاً بحيث لم يتحقق في تلك المدة سوى ٧،٢٠٠ كيلومتراً عدا الف كيلومتر يجري العمل فيها .

ولا تدخل في هذا الاحصاء طرق السيارات الحديثة البالغة منتهى الاتقان وقد بلغ طول ما أنشأته حكومة الولاية منها ١٤٧ كيلومترا والحكومة الاتحادية ٤٠٠ كيلو متر .

وبموجب المعدل المئوي يتبين لنا أنه في السنوات الخمس الاخيرة انشيء ٤٣٠ بالمائة من الطرق التي كان قد تقرر شقها في الولاية .

أما الخطة الجديدة لطرق المركبات فتقضي بشق ما يبلغ طوله خمسة آلاف كيلو متر منها .

مطار كونغونياس (Congonhas) التجاري

لكي يمكنكم تصور مقدار التقدم الذي بلغه النقل الجوي في سان باولو فانني أسرد على مسامعكم احصاءات الاشهر الاخيرة وهي كما يلي :

بلغ عدد الطائرات التي غادرت هذا المطار ٦٧٣٢ نقلت ٩٥،١٨٩ راكباً وما زنته ٢٣،٥٢١ كيلوغراماً من المراسلات البريدية و ١،٩٦٢،٤٠٠ طن من البضائع .

ومما يجدر ذكره بشأن النقل الجوي بين مدينتي سان باولو والريو هو ان مطار كونغونياس يعد الاول في العالم اذ ان حركة النقل منه فاقت حركة النقل بين نيويورك وواشنطن .

مصلحة التلفون

يتبين من الجدول الاحصائي التالي مبلغ الحركة التي قامت بها الشركة صاحبة إمتياز المواصلات التلفونية في هذه الحاضرة وحدها :

سنة ١٩٢٠	١٨،٠٠٠	جهاز
سنة ١٩٣٠	٢٧،٠٠٠	جهاز

سنة ١٩٤٠ ٥٤،٠٠٠ جهاز

سنة ١٩٥١ حتى نهايتها ١٢٠،٠٠٠ جهاز

ومن المنتظر بعد انجاز الانشاآت الجديدة في مدة أربع سنوات يضاف الى الاجهزة الموجودة ٩٠،٠٠٠ جهاز جديد .

وحتى سنة ١٩٣٩ كان نصيب كل طلبات الانشاء وتركيب الاجهزة التلبية السريعة . ولكن منذ ذلك التاريخ بلغ من تزايد الطلبات وتعذر التمديد بسبب الحرب العالمية أن اضطرت الشركة إلى الابطاء والتسويف . لذلك نجد لديها اليوم برسم التلبية في المستقبل مالايقل عن أربعين الف طلب .

أما شدة حركة النداآت فيدل عليه الاحصاء التالي :

في سنة ١٩٥٠ بلغ عدد النداآت المحلية القاصرة على هـذه السنة الحاضرة بمليونين أو ما يعادل بوجه التقريب الف نداء في العالم لكل فرد من السكان ، أو متوسط ثلاثة نداآت لكل نفس في اليوم الواحد وهو متوسط هائل .

وقد بلغ عدد النداآت والاستجابات بين الحاضرة والمدن المجاورة بلغ عددها ١٢ مليوناً و ٥٠٠ الف في العام .

السوريون في البرازيل

١٠١ — إن الكلام ولو بصورة خاطفة عن بلادنا يقتضينا الاشارة بالاكبار الى العون الجريء الفعال الذي بذله السوري المهاجر في اكثر أعماله الكفاحية إذ نحن نلمس في كل ميدان من ميادين النشاط والتقدم اثر ما تحلى به اسلافنا من العزم والاقدام .

١٠٢ — ما أكثر ، بل ما أصعب تعداد السوريين والمتحدين منهم الذين كان لهم الاثر الفعال في الصناعة والتجارة والزراعة وتربية الماشية ، في التعليم

والآداب والمهن الحرة، في جمعيات الاسعاف الاجتماعي، وحتى في مناصب رفيعة في الدوائر العامة .

١٠٣ — وكم هي جديرة بالتسجيل تلك المشاريع التي انشأها السوريون بمجموعهم وبواسطتها تشرفوا واعلوا اسم وطنهم الأصلي .

١٠٤ — وتكفينا الاشارة الى سان باولو حيث قاموا فيها بالاعمال الكبيرة التالية التي عاد نفعها على العموم .

١٠٥ — الميتم السوري ـ أسس منذ ٢٨ عاماً وهو يضم اليوم مئة يتيم ويتيمة يعلمهم ويهذبهم ويعدهم ليكونوا غداً مواطنين نافعين محترمين .

١٠٦ — وتبلغ قيمة ممتلكاته خمسين مليون كروزيرو (Cruzeiros) بما يعادل ستة ملايين ليرة سورية .

١٠٧ — الكاتدرائية الارثوذكسية ـ وهي بناء فخم على الطراز البيزنطي يكون حلية بديعة في هندسة سان باولو البنائية .

١٠٨ — وقدتم بناؤها اليوم ولم يبق سوى الاعمال التكميلية وتقدر اكلافها بثلاثين مليون كروزيرو أوما يعادل اربعة ملايين ليرة سورية .

١٠٩ — ومما يستوجب التنويه أن تصميم هذا البناء العظيم وإقامته وتعهده يعود الفضل فيه كله إلى مهندسين برازيليين سوريين .

١١٠ — المصح السوري — وهذاالمشروع أيضاًوضع تصميمه وابلغه مرحلة التمام مهندسون برازيليون ابناء سوريين . وهو مشيد في مدينة كمبوس دوجوردو (Campos de jordaô) الكائنة في منطقة صحية ذات مناخ لامثيل له في العالم بأسره .

١١١ — ويتسع هذا المصح في الوقت الحاضر لتسعين سريراً .

١١٢ — النادي الرياضي السوري ـ وقد ساهم العنصر السوري أيضاً في المضمار الرياضي بشكل مرموق ومحسوس .

١١٣ — وربما كان النادي الرياضي السوري ، المأسس منذ ثلاثين عاماً الجمعية

الرياضية الأولى المنشأة من قبل عناصر الجالية ، وقد كان لها اثر بارز في تنشيط الرياضة وحمل مواطنينا على ممارستها .

١١٤ — وهـذا النـادي منصرف اليوم إلى تشييد ملعب عصري غاية في الاتقـان والجمال في شقة واسعة من الأرض على مقربة من مطـار الحاضرة التجاري .

١١٥ — هذا العمل العظيم المقدرة نفقاته بثلاثين مليون كروزيرو ، أو اربعة ملايين ليرة سورية هو دون جدال من اهم مافي اميركا من نوعه .

١١٦ — ولما كان الانخراط في سلك مشتركي النادي الرياضي السوري مباحاً للراغبين من أي جنس ، فمن حقه أن يفخر قبل كل شيء بهذه الخدمة الاجتماعية الرامية الى صهر العناصر الاجنبية في بوتقة الوطنية البرازيلية والتي يقدمها للوطن البرازيلي . مجنداً لها قوي وعزائم الذين يتفانون ليقيموا الدليل على الامتنان للارض التي عاشوا فيها سعداء هانئين .

في الحقل الصحافي

ولا يسعنا ان نختم هذه الجداول الاحصائية الباهرة للمنشآت المختلفة دون أن نشير الى الحركة الأدبية والصحفية ، مكتفين بالتنويه بمجلة الشرق البالغة أرفع مستوى من الجمال والاتقان بحيث لايوجد لها ضريب من نوعها لابين المجـلات السورية فحسب بل بين البرازيلية أيضاً .

وهي المجلة التي يقوم على ادارتها الـكاتب والصحفي موسى كريم الذي استطاع بطلاقته وكفاءته أن يجتذب اليه نخبة من ألمع الكتاب والأدباء البرازيليين الذين يعاونونه في إصدارها .

سيداتي وسادتي :

١١٧ — بعرضنا أمامكم نتائج الجهد الذي بذله السوري في أرضنا البرازيلية يقضينا الواقع أن نعترف بأنه لقي في أرضها ومن أهلهـا حسن الوفادة والعطف اللذين هيئا له البيئة الصالحة ليطلق فيها العنان لنبوغه العامل الخلاق .

أقول إن حرية العمل والأمن اللذين لقيهما السوريون في البرازيل كاناحجرة الزاوية في ما بلغوه من الاتقاء وأصابوه من النجاح .

١١٨ — من الواجب علينا أن نجاهر بان السوري في نظر البرازيلي لم يكن سوى برازيلي آخر .

١١٩ — في البرازيل التي لا أثر فيها للمشكلة العنصرية ولاالمذهبية ، وحيث تعتبر حرية الفكر المطلقة مضمونة ، يشعر السوري دون أن يتنازل عن سوريته انه برازيلي يعامل على قدم المساواة أمام الشريعة والمجتمع .

١٢٠ — والسوري الذي يرى في كل هذا ويحسه عرف كوطني كيف يقابل الكثير الذي تلقاه من الارض التي تلقته على الرحب والسعة .

ختام

ولا يسعني في الختام إلا ان أبدي امتناني العميق للحكومة السورية الجليلة لتهيئتها لنا التمتع بما لاسبيل الى نسيانه واعني هذه الزيارة لمهد آبائنا لذي رأينـا فيه أبلغ مظاهر اللطف والعطف في جو وادع من التبادل الثقافي والاجتماعي الذي نتمنى له مع الايام التزايد والدوام .

كما أشكر حضرة رئيس الجامعة الممتاز الاستاذ الدكتور قسطنطين زريق

الذي تلطف ففتح لنا ، بصورة خاصة ، مدرج الجامعة الكبير ، بصورة استثنائية مكتسباً بذلك إحترامنا وتقديرنا .

وأشكر أيضاً الدكتور نهاد السباعي الذي تفضل بالقاء هذهالمحاضرة بالعربية متيحاً لي نقل فكرتي الى جمهوركم الكريم .

وأشكر أخيراً المديرية العامة الدعاية والانباء ، ومديرية الاذاعةاللتين شوقتا، متلطفتين ، لهذه المحاضرة ، وأخص بالشكر الصحافة الراقية التي اضحت المجال لخدمة الثقافة العامة والسلام عليكم .

❀❀❀

au contraire, en éclairant la phase première de son histoire, mettre mieux encore en lumière les titres de noblesse de cette cité trois fois millénaire, dont le nom, à plus d'un titre, fait battre le cœur de quiconque s'intéresse à l'histoire des grandes civilisations humaines.

au contraire, en éclairant la phase première de son histoire, mettre mieux encore en lumière les titres de noblesse de cette cité trois fois millénaire, dont le nom, à plus d'un titre, fait battre le cœur de quiconque s'intéresse à l'histoire des grandes civilisations humaines.



araméenne ; ce sont les toponymes de la région même de Damas, dont beaucoup sont des mots proprement araméens. Prenons, par exemple, le *Nahr Tôrâ*, dérivation du Barada : le mot *Tôrâ* n'est pas arabe, mais parafaitement araméen (« le taureau »), ainsi que le souligne la désinence araméenne — â d'étant emphatique masculin singulier, l'état emphatique est un fait grammatical proprement araméen. Il en est de même du nom du village de *Kefr Batnâ*, de celui de 'Aqrabâ (« le scorpion »). Avec désinenee d'état emphatique féminin singulier — tâ, nous avons Harestâ (« la rude »)' Qarhtâ (« la chauve »). Et encore, commençant par le mot araméen b (ê) « maison », le nom du village de Berzê (« la maison des cèdres »), de celui de Bzaïnê (« la maison des armes, l'arsenal »)... Que ces quelques exemples, pris un peu au hasard, suffisent à vous montrer, chers auditeurs syriens, que, sur vos propres lèvres, vit encore quelque chose du passé araméen du pays de Damas.

*
* *

Ce passé araméen, si lointain qu'il soit, n'est donc pas entièrement mort. Si j'ai cherché à le faire un peu revivre, en cette rapide esquisse, c'est que ce passé peut vous être cher, comme est cher aux Français par exemple l'histoire de leurs ancêtres gaulois. Certes, l'histoire de Damas,après l'époque araméenne, a connu bien des époques brillantes et fécondes. Mais ce n'est pas diminuer la gloire de la Damas romaine, de la Damas médiévale ou de la Damas moderne, que de rappeler les fastes de la plus antique Damas. C'est,

l'ère chrétienne une étonnante prospérité, c'est aussi l'araméen qui triomhe : les inscriptions palmyréniennes, si nombreuses, ce sont des inscriptions en langue et en écritures araméennes.

En Mésopotamie, l'arméen également domine, évinçant de plus en plus les anciens idiomes, jusqu'à ce que l'Islam y introduise et y répande la langue arabe. Le plus important de ces dialectes araméens de Mésopotamie, c'est celui qu'on appelle « syriaque » : le « syriaque » est proprement la langue d'Edesse (aujourd'hui Urfa, dans le Djézireh). L'importance croissante de l'Eglise d'Edesse fit rapidement de ce dialecte la langue classique des communautés chrétiennes de Mésopotamie et aussi de Syrie : nous possédons en ce dialecte une littérature très vaste, surtout théologique, mais comportant aussi des traductions de nombreux ouvrages philosophiques et scientifiques grecs ; c'est par le moyen de ces traductions syriaques que la science grecque fut transmise aux savants arabes.

Aujourd'hui même, l'araméen n'est pas une langue entièrement morte. C'est un dialecte araméen, héritier direct de l'antique langue de Damas que parlent encore, à quelque 60 km. d'ici, les villageois de Ma'lùla, de Bah'a, de Djub'adin. Ce sont aussi des dialectes araméens, ceux-ci proches de l'ancien syriaque, que continuent à parler plusieurs centaines de milliers de personnes dans les communautés chrétiennes ou juives de la région du Tur-'Abdin, des environs de Mossoul et du lac d'Ourmiah.

Et pour finir, un dernier trait qui souligne clairement la permanence, jusqu'à aujourd'hui, des vestiges de la période

syrien. Sous la dynastie chaldéenne, au temps de Nabopolassar et de Nabuchodonosor, l'araméen accentue encore son avance, non seulement en Babylonie même, qui pullule d'Araméens, mais encore dans tout l'empire. Aussi, quand Cyrus le Perse, en 539, se fut emparé de Babylone et que tout l'empire chaldéen fut tombé, du même coup, entre ses mains, l'araméen ne tarda pas à devenir la langue officielle du nouvel empire, de cet empire achéménide qui dura 200 ans et s'étendit du Nil à l'Indus.

La conquête de l'Orient par Alexandre le Grand substitua le grec à l'arméen comme langue officielle. Désormais, la langue araméenne, privée de ce principe d'unité que constituait pour elle l'unité même de l'administration perse, va évoluer d'une façon plus souple, tendant à se diversifier suivant les régions où elle se parlait et s'écrivait. Son aire d'extention demeure très vaste. En Palestine, notamment, l'araméen se substitue de plus en plus à l'hébreu comme langue courante : c'est en araméen qu'est écrite, vers le milieu du second siècle avant l'ère chrétienne, une grande partie du livre biblique de *Daniel*. C'est l'araméen que parlaient, en Palestine, Jésus et les premiers Apôtres chrétiens.

De l'autre côté du Jourdain, c'est en araméen que les Nabatéens, peuple d'origine arabe, redigèrent leurs inscriptions. Celle-ci s'échelonnent du 1er siècle avant au IIIe siècle après l'ère chrétienne et se distribuent sur tout l'ensemble de l'ancien domaine du royaume nabatéen : du Nord du Hedjaz (Hégra) aux confins méridionaux de la Syrie (Bosra), en passant par Pétra, la capitale. Dans le désert syrien lui-même, à Palmyre, qui connut dans les trois premiers siècles de

cien de la langue écrite araméenne, cette langue araméenne qui donne naissance à tant de dialectes représentés pour nous par d'immenses littératures. Elle se datent, tant par le type de l'écriture, encore tout proche du type phénicien archaïque, que par le contenu même des inscriptions, de 750 avant notre ère. Elles présentent, en plusieurs recensions, le texte d'un traité d'alliance conclu entre le roi d'Arpad, un nommé Mattic'-'el, et le roi d'un autre Etat, Katka, un nommé Bar-Ga'yah. Si Arpad est bien connu (c'est, je le répète, aujourd'hui Tell Refat), Katka est plus difficile à identifier, c'est, selon moi, le nom d'un Etat araméen — ou aramaïsé — situé près de la Cappadoce. En face du danger assyrien devenu plus grave que jamais, le monde araméen tout entier, de l'extrême Nord jusqu'au Sud, regroupe ses forces, en une vaste coalition, pour tâcher de tenir en échec les visées conquérantes du terrible ennemi. Les stèles de Sfiré sont pour l'historien le témoignage de cet effort diplomatique de la résistance syrienne : l'un de ces derniers efforts ; car, quelque vingt ans plus tard, sous les coups répétés de Teglatphalasar III les divers Etats araméens seront tombés les uns après les autres, et Damas elle-même, le dernier bastion de l'indépendance syrienne.

Revenons à la langue araméenne. C'est bien parce qu'elle avait atteint, avant la disparation des Etats araméens, un parfait degré de maturité, qu'elle put non seulement survivre, mais encore s'imposer aux vainquers eux-mêmes. Oui, dans les provinces assyriennes, et jusqu'en Assyrie même, toutes sortes de documents nous attestent que l'arméen, au VIIIe siècle et au VIIe siècle se parlait et s'écrivait, à côté de l'as-

tienne, elles amenèrent en Mésopotamie, en Babylonie, en Syrie, au moment de leurs invasions. Si l'araméen se rapproche de l'hébreu et du phénicien, il s'en distingue pourtant très nettement ; sur certains points, il présente même plus d'affinités avec l'arabe qu'avec ces deux langues.

Notre connaissance de l'araméen de haute époque — de l'époque de la puissance politique araméenne — , est réduite à un petit nombre d'inscriptions, toutes découvertes assez récemment ; mais plusieurs de ces inscriptions sont fort longues, et, vu leur dispersion — Telle Halaf (dans le Djézireh), Zencirli (près de Islahiyé), Arpad (près d'Alep), Hamâ, Damas —, elles suffisent à montrer que les divers Etats araméens surent se donner une langue littéraire commune, dont l'âge d'or peut remonter au IXe, voire même au Xe siècle avant l'ère chrétienne. Je dois signaler ici que le monument le plus important pour la connaissance de cet araméen de haute époque, ce sont les stèles originaires de Sfiré-Sudjin, à environ 20 km. au Sud-Est d'Alep ; ces stèles, couvertes d'inscriptions araméennes, furent révélées au monde savant en 1930. Récemment, elles furent acquises, nul d'entre vous ne l'ignore, par le Musée de cette ville : joyau incomparable de l'épigraphie sémitique ancienne, elles sont, en dépit de leur apparence austère et des graves mutilations qu'elles ont subies, l'une des gloires de ce Musée, — de ce Musée si jeune et déjà si riche — ; oui, un monument que les plus grands musées d'Europe ou d'Amérique pourraient lui envier. Pourquoi ces stèles ont-elles, sur le plan scientifique, tant de valeur et tant de prix ? C'est qu'elles nous documentent, pour une époque où les témoignages sont rarissimes, sur le stade le plus an-

des ouvriers phéniciens, tout comme fit Salomon lors de la construction du temple de Jérusalem.

*

* *

Sont-ce là les seuls vestiges que nous possédions de la Damas araméenne ? Non, il nous en reste autre chose, quelque chose qui est encore vivant. En Effet, si, avec la prise de Damas par Téglatphalasar III, en 732 avant l'ère chrétienne, dispartut définitivement la puissance politique araméenne les Arméens, ent tant que peuple, ne disparurent pas pour autant. Au contraire, ils se trouvaient alors répandus partout, dans toute la Mésopotamie et dans toute la Syrie. Leur histoire politique était finie : elle n'avait guère duré que trois ou quatre siècles, mais sur un autre plan, ces Arméens, solidement implantés dans les pays qu'ils avaient pour quelque temps soumis, continuèrent, sous la domination assyrienne et ultérieurement, à affirmer leur présence. Leur langue, en effet, se maintint ; elle réussit même à s'imposer, à des degrés divers, dans tout le monde de l'Orient, durant un millénaire, jusqu'à ce que l'arabe, à partir de l'hégire, vienne l'y remplacer. Cette langue araméenne, sous sa forme littéraire, c'est très probablement à Damas même qu'elle s'est forgée. Retracer en quelques mots l'étrange et glorieux destin de la langue araméenne, c'est donc encore parler de la Damas araméenne.

L'araméen est une langue sémitique, celle même que les tribus nomades araméennes parlaient dans le désert syro-arabe et que vers la fin du second millénaire avant l'ère chré-

littéralement comme suit : « bon est Rimmôn ». Or, Rimmôn, le « Tonnant », n'est autre que Hadad, dieu de l'orage et par conséquent du tonnerre. La Bible mentionne précisément le temple de Hadad à Damas sous le nom de « Bêt-Rimmôn » (« temble de Rimmôn »). Elle nous apprend aussi que dans ce temple, se trouvait un autel tout à fait remarquable : Achaz, roi du Juda, étant allé à Damas pour y rendre hommage à Téglaphalasar III, en prit le modèle, pour qu'un autel semblabls fût érigé dans le temple même de Jérusalem, à la place de l'ancien autel. Tel était donc le prestige du temple araméen de Damas, telle était la splendeur de ses constructions, que les voisins, de Damas, éblouis, en copiaient telle ou telle partie pour embellir les temples de leurs propres capitales !

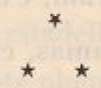
Tout récemment les travaux de restauration entrepris par la Direction Générale des Antiquités de Syrie dans la Mosquée des Omayyades ont mis au jour une relique extrêmement précieuse de l'antique temple de Hadad : c'est un orthostate en basalte, mesurant 80 cm. sur 70 cm., qui se trouvait encastré dans le soubassement du mur Nord de l'enceinte, où il avait été réemployé à l'époque romaine. Cet orthostate, qui a été publié cette année même dans le dernier fascicule de la revue *Syria*, et que vous pouvez désormais admirer dans l'une des salles du Musée de Damas, représente un sphinx aile portant une longue barbiche et coiffé de la double couronne. Les caractères et aussi le tablier couvrant les membres antérieurs du sphinx, indiquant un travail phénicien. Ce qui tend à montrer que les rois de Damas firent volontiers appel pour leurs constructions à des artistes et à

même emplacement. Ce « tell », semble-t-il, marque l'emplacement de l'acropole de la ville primitive, sur laquelle se dressait le palais des rois de Damas. Des feuilles seraient évidemment nécessaires pour vérifier le bien-fondé de cette conjecture, qui fut proposée par mon très regretté collègue Jean Sauvaget ; mais ces fouilles, en un tel quartier de la ville,resteront longtemps impossibles.

Quant au temple de la ville araméenne, on peut en déterminer l'emplacement de façon pratiquement certaine. Les lieux sacrés, en effet, surtout dans les pays sémitiques, conservent une fixité absolue. C'est donc sûrement sur l'emplacement de l'ancien temple araméen que fut érigé à l'époque romaine le temple de Jupiter, ce temple magnifique dont les traces sont encore clairement visibles et dans l'enceinte duquel fut construit, au début du VIIIe siècle, la Mosquée des Omayyades. Ce monument insigne de Damas et de tout l'Islam marque donc encore aujourd'hui la place qu'occupait le temple araméen.

Le temple romain, notons-le, sous son aspect occidental, gardait les dispositions essentielles du sanctuaire sémitique. En outre, le dieu auquel il était consacré : Jupiter, ou plus précisément, «Jupiter Damascenus» («le Jupiter de Damas»), n'aitait autre, sous ce nom latin, que le grand dieu araméen, Hadad, l'antique possesseur de ce lieu sacré. Que Hadad ait été, à la période araméenne, particulièrement vénéré à Damas, ceci est prouvé par le fait que trois des rois araméens de Damas ont porté le nom de « Bar-Hadad » (c'est-à-dire de « fils de Hadad »). Un autre roi, le père de Bar Hadad I, s'appelait « Tâb Rimmôn », nom propre araméen qui se traduit

Damas est maintenant sans allié ; durant deux ans, en 733 et 732, Téglatphalasar s'acharne contre elle. La lutte est pas trop inégale. En dépit d'une résistance acharnée, l'armée araméenne, en bataille rangée, est vaincue, et le roi de Damas doit s'enfermer dans sa capitale. Le roi d'Assur ravage tout le pays, coupant les arabes, dévastant les jardins, — les merveilleux jardins qu'arrose le Barada. Il détruit tout « comme un ouragan », suivant l'expression des Annales assyriennes. Enfin, Damas tombe, et Rasôn, son roi, est mis à mort. C'en est fini de l'indépendance de Damas ; de ce royaume et de ses vasseaux, Téglatphalasar fait quatre provinces assyriennes.



Reste-t-il dans la Damas d'aujourd'hui des vestiges archéologiques de la Damas araméenne ? Certes, on ne peut s'attendre, sur ce sol qui, depuis l'époque araméenne, resta constamment habité, à trouver beaucoup de choses. Durant la période gréco-romaine notamment, la ville vit s'élever de nombreuses constructions nouvelles, qui bouleversèrent l'ordonnance ancienne et firent disparaître la plupart des traces du passé. Mais on peut du moins fixer avec quelque vraisemblance le site de la cité araméenne. Au cœur de la vieille ville, en effet, entre la rue Droite et l'actuel quartier de Shahgour, on remarque un monticule qui domine de 5 à 6 mètres le terrain avoisinant. C'est très probablement un « tell », c'est à dire une butte artificielle, comme il en existe tant en Syrie, en Iraq, en Anatolie, une butte constituée par les décombres des constructions qui, au cours des siècles, se sont succédées sur un

« Prends garde, reste calme, n'aie pas peur
et que ton courage ne mollisse pas...
Parce qu'Aram a résolu ta perte,
ainsi que (Péqah) le fils de Remalyahu, en disant :
Marchons contre Juda ; nous l'accablerons,
nous nous en emparerons,
et nous y établirons un roi,
le fils de Tab-el »,
Voici ce que dit le Seigneur Yahvé :
« Cela ne se réalisera pas, cela ne sera pas.
Car la tête d'Aram, c'est Damas,
et la tête de Damas, c'est Rasòn !
Et la tête d'Ephraim, c'est Samarie,
et la tête de Samarie, c'est le fils de Remalyahu !
Si vous ne croyez pas,
vous ne subsisterez pas ».

« Mais ces paroles du prophète ne rassurent nullement Achaz ; celui-ci envoie à Téglatphalasar tout ce qu'il possède d'or et d'Argent, avec ce message : « Je suis ton serviteur, je suis ton fils. Viens m'arracher des mains du roi d'Aram et du roi d'Israël, qui se sont dressés contre moi ». L'Assyrien accourt : il envahit Israël, conquiert «tout le pays de Nephtali», c'est à dire la Galilée, et en déporte les habitants en Assyrie. Les gens de Samarie se soulèvent et assassinent Péqah, dont la politique anti-assyrienne a amené la catastrophe. Celui ci est remplacé par Osée, le chef de la conspiration, créature du roi d'Assur.

suprématie sur Israël,qui se libère peu à peu,Suit une période d'environ 50 ans, durant laquelle les Etats syriens, à travers mille vicissitudes, réussissent à sauver leur indépendance. Mais voici que, pour le malheur d'Aram, en 745, se trouve porté au pouvoir, dans la capitale assyrienne, Téglatphalasar III,un souverain des plus énergiques, qui va rendre à l'empire d'Assur son autorité et sa force. Le glas de l'indépendance syrienne commence à sonner. Arpad, la grande capitale du Nord, succombe en 740 et devient province assyrienne. Vers le Sud, Damas et Samarie manifestent une certaine résistance: Téglatphalasar juge nécessaire de proter là-bas un grand coup. En 734, il se dirige vers la Philistie : en chemin, il sou_ met Hatarikka importante citadelle qui commande l'accè à l'Oronte; puis il gagne la côte phénicienne, où il reçoit notamment le tribut de Byblos, en même temps qu'une partie de ses troupes s'empare d'Abil-'akka' au Nord du territoire d'Israël; enfin, il descend jusqu'à la côte philistine, où Gaza est prise et pillée.

La situation est très grave pour Juda, Israël, Damas. Le roi de Juda, Achaz, est tout prêt à se soumettre. Au contraire, le roi d'Israël, Péqah, et le roi de Damas, Rasôn, entendent se défendre énergiquement. Menacés d'une attaque par le Sud, il leur faut obtenir l'appui du roi de Juda, Achaz : celui-ci s'y refusant, ils se mettent tous deux en campagne contre lui, en vue de s'emparer de Jérusalem, de chasser Achaz et de la remplacer par un Araméen, le « fils de Tab-el ». Achaz est effrayé : le prophète Isaïe lui prêche la confiance :

ans, déployer librement sa force. Mais voici qu'en Assyrie se lève à nouveau un chef plein d'énergie et d'ambition : ayant atteint sa majorté, Adad-nirari III a pour premier souci de faire sentir à nouveau l'autorité d'Assur aux dynastes syriens qui s'étaient émancipés. De 805 à 802, il conduit contre ceux-ci une série d'expéditions. Voici un passage de ses Annales concernant Damas:«. . .Vers le pays de Damas je marchai.Mari le roi de Damas, je l'enfermai dans Damas. sa ville de résidence. La crainte de l'éclat d'Assur, mon Seigneur, l'abattit; il embrassa mes pieds et se soumit. Dans Damas, sa ville royale, au millieu de son palais, Je reçus (son tribut) : de 2300 talents d'argent, 20 talents d'or, 3000 talents de bronze, 5000 talents de fer, des étoffes multicolores, des étoffes de lin, des lits d'ivoire, des tabourets d'ivoire plaqué (d'or) et incrusté (de pierres précieuses) , son trésor, son avoir, en quantité immense . . . » Ce « Mari », c'est probablement le fils même de Hazaël. L'énumération du butin évoqne les richesses immenses accumullées dans son palais; elle mentionne notamment, vous l'avez remarqué, les fameux ivoires, ceux qu'on a précisément retrouvés à Arslan-Tash.

Si Damas fut particulièrement visée et le plus durement frappée par le monarque assyrien, c'est qu'elle était la base principale de la résistance du monde araméen et qu'il fallait la maîtriser, si l'on voulait tenir en mains la Syrie entière. Celle-ci est maintenant sous l'hégémonie d'Assur il en va de même de la Phénicie, d'Israël : l'Assyrie étend son emprise jusqu'à la frontière de l'Egypte.

Terriblement affaiblie par les coups que lui a portés Adad-nirari, appauvrie par le tribut très lourd qu'il a fallu verser au vainqueur, Damas ne peut plus maintenir sa

contempler récemment On y trouve des motifs d'animaux : vaches allaitant et cerfs se désaltérant, merveilleusement pris sur le vif des décorations florales d'un très bel effet; des sphinx; des griffons, etc... La trouvaille d'Arslan-Tash illustre de la façon la plus heureuse cette période brillante de l'histoire des rois araméens de Damas.

Sur le plan extérieur, Hazaël, sur qui la menace assyrienne pèse désormais moins lourdement, du fait que Salmanasar III se trouve totalement occupé en d'autres régions, Hazaël porte son effort contre Israël : il lui enlève d'abord « tout le pays de Galaad, depuis Aroër, sur le torrent de l'Arnom ». Ainsi maitre de toute la Tranjordanie il pénètre en Palestine et, par un raid hardi, arrive jusqu'à Gat, dans le pays des Philistins, d'où il menace Jèrusalem. Le roi de Juda achète sa retraite à prix d'or. Mais le royaume d'Isrël voit passer sur son sol les armées araméennes et subit les plus graves revers. La Bible nous apprend qu'à la suite de ces revers, Israël n'avait plus pour toute armée que « cinquante cavaliers, dix chars et 10000 hommes de pied; car, est-il dit, le roi d'Aram (entendons le roi de Damas) avait anéanti les Israélites et les avait rendus semblables à la poussière qu'on foule aux pieds ».

*
* *

A partir de 827 et jusqu'on 806, l'Assyrie traverse une crise intérieure très grave ; elle est alors si faible qu'elle ne saurait gravement inquiéter le monde syrien. Damas, qui reste la première des puissances araméennes, peut, durant vingt

montagne qui se dresse en face du Liban (il s'agit sans doute de l'Hermon, du Djébel esh-shèh), il en fit ma forteresse. Contre lui je combattis, je lui infligeai une défaite. J'abattis avec l'arme 6.000 de ses guerriers. Je lui enlevai 1.100 de ses chars, 470 de ses chevaux, en même temps que son camp. Pour sauver sa vie, il s'enfuit. Je le poursuivis et je l'enfermai dans Damas, la ville où il réside. J'abattis ses vergers (les beaux vergers de la Ghutâ !). Puis je marchai jusqu'au massif du Hauran. Je détruisis ses villes sans nombre, je les dévastai, je les brûlai. En elles je fis un immense butin... » En 838, nouvelle campagne contre Hazaël : « En ma 24e année de règne, je franchis pour la 21e fois l'Euphrate. Je marchai contre les villes de Hazaël du pays de Damas. Je conquis quatres de ses villes... »

Au cours de ces deux campagnes. Hazaël a subi de rudes coups, mais Salmanasar n'a pu réussir à s'emparer de la capitale, et il ne semble pas qu'il soit intervenu à nouveau contre Damas jusqu'à la fin de son règne. Hazaël profite de ce répit pour réparer ses ruines et pour relever sa puissance. De sa richesse et du luxe de son palais nous pouvons avoir quelque idée par les plaquettes d'ivoire sculpté qu'on a retrouvées à Arslan-Tash, près de Til-Barsib; sur l'une d'elles, on lit le nom de « notre seigneur Hazaël » mârânâ Hazaël, c'est à dire très probablement de Hazaël le roi de Damas. Ces ivoires furent sans doute transportés à Arslan-Tash, dans le palais du roi d'Assur, avec le butin qu'Adad-nirari III. comme nous allons le voir bientôt, emporta de Damas. Toute une collection de ces ivoires, d'un travail vraiment magnifique, se trouve exposée au Musée d'Alep; J'ai été heureux de l'y

Le danger assyrien est à peine écarté — pour bien peu de temps — que la guerre se rallume entre Israël et Damas ; la trêve n'a duré que trois ans. C'est le roi d'Israël, Achab, qui attaque, en vue d'arracher au roi de Damas la ville de Ramôt-en-Galaad (probablement El-Husan, à 25 km. environ au S. O. de Deraa). La rencontre a lieu sous les murs de la ville. Au cours du combat, Achab est tué d'une flèche sur son char. Quand, au soir, la nouvelle s'en répand dans l'armée d'Israël, c'est la débandade : « Chacun à sa ville ! Chacun à son pays ! Car le roi est mort ». Les troupes israélites abondonnent Ramôt et amènent à Samarie le cadavre du roi.

A la suite de cette défaite, la pression de Damas sur Israël se fait de plus en plus fortement sentir. Le roi de Damas, c'est alors Hazaël ; une inscription de Salmanasar III nomme celui-ci « un fils de personne », voulant dire que c'était un usurpateur. La Bible nous raconte précisément comment il accéda au trône ; ce récit est en partie légendaire, mais il ne manque pas de pittoresqve, et le trait essentiel, à savoir l'assassinat du roi précédent Bar-Hadad, a toutes les chances d'être historique : « ... Hazaël prit une couverture, la trempa dans l'eau et l'étendit sur le visage de Bar-Hadad, de sorte que celui-ci mourut. Et Hazaël devint roi à sa place ».

Salmanasar suit de près l'évolution des faits. L'énergie du nouveau roi de Damas l'inquiète, et il décide de frapper un grand coup. Il entre en campagne en 841 ; cette campagne est ainsi décrite dans les annales assyriennes : « En ma 18e année de règne, je franchis pour la 16e fois l'Euphrate. Hazaël du days de Damas se confia à la masse de ses troupes et mobilisa ses troupes en grand nombre. Le Sanir, pic pe

Gabbari (Zencirli) : argent or, plomb, cuivre et vases de cuivre, je le reçus dans la ville située au delà de l'Euphrate que les Hittites appelent Pitru. Je partis de l'Euphrate et je m'approchai d'Alep. Ils eurent peur de la bataille et ils embrassèrent mes pieds. Je reçus d'eux comme tribut de l'argent et de l'or. J'offris un sacrifice à Hadad d'Alep. Je m'approchai des deux villes d'Irhuleni, roi de Hamat : Adennu et Parga. Je conquis Parga, sa résidence, et j'emportai son butin, son avoir, les biens de ses palais. Dans ses palais je mis le feu. Je partis d'Argana et je m'approchai de Qarqar (site non identifié, sans doute près de Homs). Je détruisis Qarqar, je la ruinai, je la brûlai avec le feu... » Suit le dénombrement des forces armées mobilisées contre l'Assyrie : « 1200 chars, 1200 chevaux, 20.000 soldats de Adad-Idri, roi de Damas ; 700 chars, 700 chevaux, 10.000 soldats d'Irhuleni, roi de Hamat ; 2.000 chars, 10.000 soldats d'Achab, roi d'Israël ; etc... » Le récit continue ainsi : « Pour livrer bataille et combat ils se dressèrent contre moi. Avec la puissance sublime qu'Assur, le Seigneur, me donna, avec les armes puissantes dont Nergal me fit présent, je combattis contre eux. De Qarqar jusqu'à Gilsau, je réalisai leur défaite. J'abattis avec les armes 14.000 de leurs guerriers. Tel Hadad, je fis pleuvoir sur eux un ouragan, je dispersai leurs cadavres, je remplis la plaine de leurs troupes puissantes, avec les armes je fis couler leur sang...» La bataille de Qarqar, si l'on en croit ce glorieux récit, fut une victoire pour les Assyriens. Au vrai, ce fut une bataille indécise : le roi d'assur ne prit ni Hamat ni Damas ni Samarie et il dut retourner chez lui sans que ses adversaires eussent été réduits à merci.

connut sous son règne, avait dû céder devant Damas; la querelle entre les deux Etats portait essentiellement sur des questions territoriales : Galilée et Transjordanie, mais aussi sur des questions de politique économique, Damas exigeant que des débouchés commerciaux lui fussent assurés en Israël.

Sous Achab, qui succède à Omri en Israël, le conflit devient plus aigu. En 857, le roi de Damas, Bar-Hadad II, pénètre en Palestine avec une armée nombreuse : il est accompagné, disent les documents, de « 32 rois » : vaste coalition qui réunit, semble-t-il, tous les dynastes araméens de Syrie, grands et petits. Il arrive devant Samarie, qu'il encercle; Achab, enfermé dans sa capitale, ne dispose que d'une garnison assez faible. Néanmoins, il réussit, rapportent les sources hébraiques, à reppousser l'assaillant. Finalement, les deux rois concluent un traité : « Je restituerai, dit Bar-Hadad, les villes que mon père a prises à ton père, et tu auras des souqs à Damas comme mon père en avait à Samarie ».

Ce qui, pour le moment, rapproche les deux adversaires et les amène à conclure une trève, c'est le danger assyrien. Salmanasar III, en effet, au cours de deux campagnes, en 858 et en 857, a réduit à merci le royaume du Bit-Adini et l'a définitivement transformé en province assyrienne. Une immense inquiétude s'empare alors du monde syrien tout entier, et aussi d'Israël. Bientôt, en effet, l'attaque se déclanche; en 853, Salmanasar franchit l'Euphrate à Til Barsib. Laissons-le raconter lui-même sa campagne (je vous traduis ici un fragment de ses Annales) : « ... Le tribut des rois d'au-delà de l'Euphrate, les rois de Karkémish, de Kummuh (Commagène), de Bit-Agushi (Arpad), de Melid (Malatia), du Bit-

qui, en dépit de l'alliance, reste l'ennemi héréditaire : « Il ravagea, rapporte la Bible, Iyyôn, Dan, Abdel-Bêt-Ma'akkah et toute la région des Kinnerôt, ainsi que tout le territoire de Nephtali », c'est à dire tout le Nord du Royaume d'Israël. Ba'sha doit alors cesser sa pression sur Juda; Asâ est sauvé, mais c'est l'Araméen; c'est le roi de Damas qui recueille tout le profit de cette lutte fratricide.

C'est ce même roi de Damas dont on lit le nom sur une stèle récemment découverte à Breidj, à 7 km. d'Alep, et que j'ai pu examiner il y a peu de temps au Musée d'Alep; elle porte l'image du dieu Melqart, avec cette inscription en araméen : « Stèle qu'a posée Bar-Hadad, fils de Tàb-Rimmôn, fils de Hazion, *roi d'Aram*, (noter ce titre de roi d'Aram pour désigner le roi de Damas), en l'honneur de son seigneur Melqart, (stèle) qu'il lui a vouée, parce qu'il entendu sa voix ». Il n'est pas sûr que ce document ait été trouvé *in situ*, à l'endroit même où il avait été primitivement érigé; mais ce n'est nullement impossible : le roi de Damas a fort bien pu intervenir dans la région d'Alep, soit comme allié soit comme ennemi du Bit-Agushi. N'est-il pas dit du roi de Sôbah, sous le règne de David, qu'il fit campagne vers l'Euphrate pour y « ramener sa main », c'est à dire affirmer son autorité sur les Araméens de cette région.

Sous le règne d'Omri, roi d'Israël (886 — 875), la pression de Damas sur Israël continue; un passage de la Bible nous apprend incidemment que le roi de Damas avait pris des villes à Omri et qu'il avait obtenu de celui-ci le droit d'avoir des « souqs », des marchés, dans Samarie, la capitale d'Israël. Ainsi, Omri, malgré la [illegible] ccrue qu'Israë

Ahuni, à payer tribut et déporte à Kalah, sur le Tigre, 2100 Araméens de cette région. Maintenant, la route est libre vers l'Ouest, vers la mer : l'Assyrien traverse l'Euphrate, le voici en Syrie. Hattin, sur le Bas-Oronte, et le Bit-Agushi, lui apportent leur tribut. Il atteint alors la côte, et les cités phéniciennes, effrayées, lui offrent des présents. A vrai dire, ces diverses régions ne sont pas pour autant conquises ni occupées : le roi d'Assur a seulement pour but de semer l'épouvante et de ramener du butin. Mais l'Assyrie, une fois l'Aram de Mésopotamie vaincu et assujetti rêve d'intégrer réellement à son empire, au delà de l'Euphrate, de nouveaux territoires, de nouvelles provinces.

Tandis que, vers le Nord, se déroulent ces évènements, au Sud de la Syrie le royaume de Damas développe toute sa puissance : il n'est pas encore immédiatement menacé, comme les Etats Araméens du Nord, par l'avance assyrienne; d'autre part, du côté de la Palestine, la rivalité entre les deux royaumes hébreux facilite ses entreprises. Vers le début du IXe siècle, voici le roi de Juda, Asâ, aux prises avec le roi d'Israël, Ba'shâ, qui veut empiéter sur son territoire. Il sollicite alors contre son ennemi l'appui du roi de Damas lui-même, qui est à ce moment un nommé « Bar-Hadad, fils de Tâb-Rimmôn, fils de Heziôn ». Asâ lui envoie des présents, avec ce message : « Il y a une alliance entre toi et moi, entre mon père et ton père. Je t'envoie en présent de l'argent et de l'or. Va, romps ton alliance avec Ba'shâ, roi d'Israël, afin qu'il cesse de m'accabler ». Le roi de Damas, on le voit, était devenu l'allié des deux royaumes hébreux à la fois : il profite de l'occasion qui lui est offerte pour envahir Israël,

Vers la fin du Xe siècle, la puissance araméenne est à son apogée. Les Araméens occupent la Haute-Mésopotamie presque entière et tiennent l'Assyrie aux abois. En Syrie, où ils s'étainent trouvés aux prises avec le jeune royaume d'Israël et lui avaient été quelque temps plus ou moins assujettis, ils redeviennent les maîtres absolus. En effet, à la mort de Salomon, en 936, le royaume d'Israël s'est scindé en deux: Roboam, fils de Salomon, ne conserve que le Sud, avec Jérusalem pour capitale (royaume de «Jnda»), tandis qne Jéroboam, usurpateur, règne sur tout le Nord (royaume d'« Israël »); les Araméens de Syrie, dont Damas a pris la tête, comme nous l'avons vu, profitent des dissensions entre les deux royaumes hébreux pour recouvrer une indépendance totale.

Mais l'heure du réveil de l'Assyrie a sonné, Nation rude, énergique, disciplinée, elle a réussi, malgré la poussée formidable des invasions araméens, à se maintenir, et elle a concentré toute sa force. Maintenant, elle va réagir de toute sa vigueur et reconquérir sur les Araméens l'espace dont elle a besoin. Systématiquement, durant 50 ans, ses rois, et notamment Assur-nasir-pal II, le plus cruel des rois d'Assur et peut-être de toute l'histoire, mènent la gerre contre les Araméens. Vers 860, la Mésopotamie presque entière, Jusqu'à la frontière de la Babylonie, est passée aux mains du roi d'Assur. Celui-ci organise ce territoire, le divise en districts et en provinces, prélève impôts, corvées et soldats.

Toutefois, le Bi-Adini, qui occupe une positions maitresse dans la grande boucle de l'Euphrate, est encore indépendant. Assur-nasir-pal marche contre lui, oblige son roi,

ment que la souveraineté de Salomon s'étendait sur toute la Syrie, mais elle est rédigée avec une certaine emphase et n'est pas exempte d'exagération ; il est peu probable que Salomon ait exercé une souveraineté effective sur des régions aussi éloignées de la Palestine et constitué réellement un empire encore plus vaste que celui dont rêvait le roi de Sôbah. Mais les victoires remportées sur les voisins araméens pouvaient donner à Israël l'illusion flatteuse d'une suprématie complète sur l'Aram tout entier, jusqu'à l'Euphrate.

Quoi qu'il en soit, les documents bibliques nous fournissent encore sur l'histoire des Araméens de Syrie au Xe siècle un renseignement important : « Dieu, est-il dit, suscita à Salomon un adversaire, Rezôn, qui s'était enfui de chez son maître Hadad-'èzer, roi, de Sôbah. Ce Rezôn rassembla des gens autour de lui et devint chef de bande. Puis il s'empara de Damas, s'y établit et devint roi de Damas. Il fut l'adversaire d'Israël pendant toute la durée du règne de Salomon », Ce Rezôn fut donc l'âme de la résistance araméenne contre l'occupant israélite. Le prestige de ce chef énergique s'imposa bien vite à tous les Etats Araméens. Désormais, grâce à ce Rezôn, — un nom qui peut rester cher au cœur de tous les Damasquins, — c'est Damas qui exercera l'hégémonie sur le monde araméen de Syrie. C'est le roi de Damas que les anciennes inscriptions araméennes, et aussi les textes bibliques. nomment tout simplement « roi d'Aram ». Damas, grâce à ce Rezôn, est devenu le centre et l'âme de tout le monde syrien.

*

* *

les murs de Rabbah,captiale des Ammonites(aujourd'huiAmman).Selon le narrateur hébreu, les Israélites furent vainqueurs. Mais les Araméens ne se tinrent pas pour battus. Le roi de Sôbah, un nommé Hadad-'èzer, décida de reprendre la lutte. Il obtint le concours des « Arméens de l'autre côté du Fleuve (l'Euphrate) », c'est à dire des Araméens des Mésopotamie : Voici donc l'Aram du Nord et l'Aram du Sud mobilisés contre Israël. Il est très intéressant de noter cette solidarité du monde araméen, depuis l'Euphrate jusqu'à Damas. L'ambition du roi de Sôbah, c'est alors, semble-t-il, de constituer un vaste empire araméen, dont lui-même serait la tête. Mais. à en croire les documents hébreux, le roi d'Israël, David, aurait infligé à la coalition araméenne une rude défaite : « Il prit à Sôbah — je cite encore — 1.700 cavaliers et 20.000 hommes de pied, et il coupa les jarrets de tous les chevaux d'attelage, dont il ne conserva que cent... » Aux Araméens de Damas, il tua « 22.000 hommes », il installa, en outre, des garnisons à Damas, qui dut lui payer tribut.

D'autres textes hébreux indiquent que Salomon, fils et successeur de David (environ 973-936), maintint cette suprématie d'Israël : « Il dominait, est-il raconté,sur tous les royaumes depuis le Fleuve (l'Euphrate) jusqu'au pays des Philistins et jusqu'à la frontière d'Egypte. Ces royaumes payaient tribut et restèrent assujettis à Salomon tout le temps de sa vie... Il dominait sur toute la Transeuphratène (entendons la Syrie et la Palestine) depuis Thipsas (sur le Moyen-Euphrate, un peu à l'Ouest de l'embouchure de Balih) jusqu'à Gaza, sur tous les rois de la Transeuphratène, et il avait la paix avec tous les pays d'alentour ». Cette notice indique nette-

connaître les noms des principautés araméennes existant dans ces régions : Aram-Sôbah, Aram-Rehôbh, Aram-Ma'akah, Geshur et Damas. Sôbah était situé dans la Béqa', tandis que Bet-Rehôbh se trouvait plus au Sud, dans la région du cours moyen du Litani. Ma'akah occupait sans doute la région de Telle-el Qadi et la Gaulanitide; Goshur devait se trouver plus à l'Est, dans le Ledja.

Du côté de la Palestine, les Araméens se heurtèrent au jeune royaume d'Israël. Je rappelle que, vers le milieu du XIe siècle, pour mieux unir leurs forces contre le péril philistin, les tribus hébraiques avaient dù consentir à la monarchie et s'étaient donné un roi, Saul. Celui-ci eut à lutter non seulement contre les Philistins, mais encore contre Moab, contre Ammon, contre Edom, — peuples habitant la Transjordanie et le Sud de la Mer Morte — et contre «le roi de Sobah », c'est-à-dire contre le chef des Araméens installés dans la Beqa'. Sur cette lutte entre Saül et le roi de Sôbah, nous n'avons aucun détail, remarquons seulement que, si les autres princes araméens de la région ne sont pas mentionnés c'est apparemment qu'ils étaient alors plus ou moins les vassaux de Sôbah,

Sous David, qui succéda à Saul comme roi d'Israël, la lutte contre les Araméens reprit de plus belle. Ce fut d'abord à l'occasion d'une guerre contre les Ammonites. David ayant décidé de les attaquer, ceux-ci appelèrent aussitôt à leur secours, — je ctie —, «les Aaraméens de Bet-Rehôb et les Araméens de Sôbah, 20.000 hommes de pied, et le roi de Ma'akah, 1.000 hommes...» Contre cette coalition d'Ammon et d'Aram David mobilise toute l'armée d'Israël. La bataille s'engage sous

probable, cependant, que, de bonne heure, la région d'Arpad (aujourd'hui Tell Refat, à 30 km. environ au Nord d'Alep), région désignée plus tard sous le nom de Bit-Agushi, passa aux mains des Araméens, à l'exception toutefois de Karkémish,qui resta au pouvoir desHittites jusqu'à la fin duVIIIe siècle

Plus au Nord, les Araméens s'infiltrèrent dans la vallée du Karasu; là ils fondèrent, au pied du mont Amanus, le petit royaume de Ya'udi, nommé aussi en araméen Sam'al (c'est-à-dire le Nord), avec Zencirli pour capitale.

Vers le Sud, Hamat, sur le Moyen-Oronte, dut passer, elle aussi, dès la fin du XIe siècle, sous l'autorité des conquérants araméens. Nous savons, en effet, qu'à l'époque du roi hébreu David, — vers 1000 avant J. C., le fils du roi de Hamat, un nommé To i, avait pour fils un nommé Joram : si le nom du pére est peut-être d'origine hittite, le nom du fils est sûrement un nom sémitique. Les fouilles effectuées récemment à Hama ont mis au jour un niveau araméen (avec un certin nombre de petites iuscriptions araméennes), succédant immédiatement au niveau hittite; bien qu'aucun indice archéologique ou épigraphique ne permette de fixer avec précision la date à laquelle sont parvenus les Sémites araméens, rien n'empêche, selon moi, de la faire remonter jusque vers la fin du XIe siècle.

Quoi qu'il en soit, il est incontestable que, dès le XIe siècle. les Araméens étaient installés dans la vallée du Haut-Oronte, dans celle du Litani et dans tout le Sud de la Syrie.A l'époque des premiers rois d'Israël Saül et David, qui régnèrent de 1044 à 974 —, les documents hébreux nous font

là ils créent le royaume du Bit Adini, dont Til-Barsib est la capitale, et qui s'étend vers l'est jusqu'au Balih. Un texte assyrien nous apprend que vers cette époque le « roi des Araméens » enleva la ville de Pitru, située à l'embouchures du Sadjur, un peu au dessous de Karkémich, et celle de Mutkinu, sur la rive gauche de l'Euphrate.

C'est au XI° sicle que l'invaion des Araméens en Haute-Mésopotamie atteint son intensité la plus grande : C'est une véritable conquête, qui fait passer le pays prespue tout entier aux mains des rudes assaillants. Outre le Bit-Adini, il s'y constitue de nombreux Etats araméens : deux dans la vallée du Balih; plusieurs dans la vallée du Habur (notamment celui de Guzaua, aujourd'hui Tell-Halef); trois à l'Est du Haut-Habur. L'Assyrie se trouve presque complètement encerclée, coupée par ces Etats araméens de tout débouché vers l'Ouest, vers les riches plaines de la région d'Alep vers la Méditerranée; privée de commerce extérieur, elle vit pauvre et misérable. Mais elle conserve une armée disciplinée et forte, une volonté de fer; en son suprême réduit, elle se prépare à la revanche.

Vers le même temps, en Syrie du Nord, le mouvement d'invasion des tribus araméennes se déploie avec non moins de vigueur que de l'autre côté de l'Eupharate. Mais là les Araméens se heurtent à une certine résistance de la part des populations hittites qui, même après l'offondrement de l'empire hittite—vers 1. 200 avant l'ère chrérienne—restaient maitresses de la région, notamment de Karkémish (Djérablous), d'Alep, de Hamat (aujoud'hui Hama). Les textes ne nous renseignent pas sur les détails de cette lutte; il est très

trent ces nomades rôdant dans la Mésopotamie, infestant les routes entre la Babylonie et le pays hittite, c'est-à-dire l'Asie Mineure, poussant leurs incursions jusqu'aux abords de l'Assyrie, dans la région même du Haut-Tigre. Les rois assyriens les pourchassent, s'efforcent constamment de les rejeter au delà de l'Euphrate; mais ces Bédouins pullulent: battus, décimés, ils reviennent toujours, guettant avec une ténacité avide les terres fertiles où il rèvent de se fixer. Téglatphalasar I, le grand conquérant assyrien — vers 1. 100 avant l'ère chrétienne n'arrive pas à se débarrasser de ces hordes pillardes, sans cesse renaissantes : « Vingt-huit fois, derrière les Ahlamu-Araméens, lisons-nous dans les Annales de ce roi, j'ai traversé l'Euphrate à raison de deux fois par ans. Depuis la ville de Tadmor (Palmire) je réalisai leur défaite, j'emmenai à ma ville d'Assur leur butin, leur avoir, leurs biens ! « Vingt-huit campagnes ! Il faut nettoyer sans cesse les rives de l'Euphrate, depuis Karémish (Djérablous) jusqu'à la Babilonie. Bien plus, en plusieurs points. ces enfants du désert se sont déjà sédentarisés : ils occupent notamment six villes dans la région du mont Bishri, tout près de la grande boucle de l'Euphrate. Il faut les traquer jusqu'à Palmyre, en plein cœur du désert syrien, d'où leur viennent d'incessants renforts.

Toutefoie, l'action énergique de Télatphalasar I n'a réussi à contenir la pression des envahisseurs araméens que pour peu de temps. Sous le règne de ses successeurs immédiats, nous constatons que le danger persiste et ne fait que s'aggraver. Les Araméens sont alors installés dans la région de la grande boucle de l'Euphrate, sur les deux rives du fleuve;

Damas se trouve mentionnée pour la première fois dans des textes égyptiens de la XVIIIe dynastie, au XVe siècle avant l'ère chrétienne. C'était déjà à cette époque un centre économique et politique d'une certaine importance ; ce qui prouve qu'on avait su déjà, grâce aux travaux d'irrigation, faire naître et developper la merveilleuse et riche oasis qui entoure la ville. Mais c'est seulement 300 ou 400 ans plus tard, à l'époque de la pleine expansion araméenne que Damas prend tout son essor et commence à jouer un rôle de premier plan sur la scène de l'histoire.

A l'époque araméenne, ai-je dit. Qu'est-ce que les Araméens ? Ce sont des Sémites, comme les Babyloniens, comme les Assyriens, comme les Phéniciens, comme les Arabes. Les débuts de l'histoire des Araméens sont extrêmement obscurs: à quelle date les Araméens ont-ils pénétré dans les territoires du « fertile croissant » ? D'où viennent-ils ? Pour le moment, aucun document ne permet de répondre avec certitude à ces questions : nous ne possédons même pas sur l'origine des Araméens la moindre légende. Cependant, on peut tenir pour très probable que leur habitat primitif, ce fut le désert syro-arabe, comme pour la plupart des Sémites qui, au cours des siècles, envahirent la Mésopotamie et la Syrie.

La première mention de tribus araméennes apparaît au XIV siècle avant l'ère chrétienne, dans l'une des tablettes trouvé à El-Amarna, en Egypte, qui nous conservent les archives diplomatiques des pharaons de cette époque, on apprend par cette tablette que les tribus araméennes habitaient alors la région de l'Euphrate. Puis durant environ trois isècles, divers passages des Annales des rois assyriens mon-

DAMAS ET LES ARMEENS[1]

Par Mr. le Professeur A. DUPONT-SOMMER

Excellences,

Monsieur le Recteur,

Monsieur le Doyen et Messieurs les Professeurs,

Mesdames, Messieurs,

C'est un grand honneur pour moi que de prendre la parole ici, à l'Université de Damas, devant un tel auditoire, pour l'entretenir de la plus ancienne histoire de la grande capitale syrienne. Tel est, en effet, le sujet de cette causerie : *Damas et les Araméens.* Que de fois, à mes étudiants et à mes auditeurs parisiens, j'ai parlé de Damas, de ses rois araméens, des antiques inscriptions araméennes trouvées en Syrie ! Aujourd'hui, à Damas même, devant des maitres et des étudiants damascains, je ne puis traiter un tel sujet sans une profonde émotion et sans une joie très vive. Aussi m'est-il très agréable d'exprimer ma sincère reconnaissance aux éminentes personnalités qui ont bien voulu m'accueillir et organiser la réunion d'aujourd'hui, ainsi qu'à vous tous, Mesdames et Messieurs, qui êtes venus l'honorer de votre présence.

*

* *

(1) Conférence donnée le 6-11-50 au grand amphithéâtre de l'Université Syrienne.

En accordant à la Mission de Ras Shamra une autorisation de fouilles valables cinq ans qu'assure au Musée-National de Damas la totalité des produits des fouilles, le Service des Antiquités de Syrie, nous a permis de reprendre l'an dernier nos recherches avec tous les moyens de la méthode archéologique moderne, aidés par un personnel scientifique et technique qualifié, parmi lequel je salue la présence de collaborateurs Syriens. Il y a quelques mois, nous avons ainsi mis au jour, l'aile nord du palais d'Ugarit, qui s'annonce le plus grand et le plus luxueux édifice jusqu'ici connu du second millénaire, en dehors de l Egypte et de la Mésopotamie propre.

Appuyé par le Service des Antiquités de Syrie et le Centre National de la Recherche Scientifique, (Commission des Fouilles), nous retournerons dans peu de temps à Ras Shamra pour continuer les dégagements à Ugarit. Nous allons, j'en ai confiance, recueillir de nouveaux renseignements et de nouveaux documents sur une des plus importantes et des plus riches civilisations de l'ancienne Syrie. Proche parente de celle des Cananéens sur laquelle nous apportons enfin la lumière en complétant les renseignements de l'Ancien Testament, la civilisation d'Ugarit constitue, certes, un des aspects les plus attrayants et les plus surprenants de la civilisation de l'ancien Orient, où nous retrouvons les lointaines racines de la culture Européenne.

* * *

tante qui ait jamais été faite : celle le l'alphabet qui ouvrait à tous la pensée et le savoir, jusque là le privilège des scribes professionnels.

A son rôle de plaque tournante du commerce ancien et de nœud de communications, Ugarit ajoutait les revenus que lui rapportait l'Importation du cuivre des mines chypriotes. En effet son port de Minet-el-Beida est le havre naturel le plus proche de la côte syrienne par ropport à l'île de Chypre, et c'était ici que le minerais ou le cuivre brut étaient déchargés pour être acheminé par caravane vers l'intérieur et la Mésopotamie ou pour se diriger par mer vers l'Egypte.

Toutes ces activités valaient aux Ugariticiens de grandes richesses, et cela explique, pourquoi pendant nos fouilles nous avons trouvé dans les cachettes et les tomeaux qui ont subsisté, tant d'antiquités de choix : vases repoussés en or, ivoires gravée, faïences multicolores, statues et bas-reliefs en terre des divinités, figures en bronze parfois rehaussées de plaquages en métal précieux, bijoux en or et electrum, vases en albâtre et céramiques superbes importées en partie de l'Egée ou fabriquées sur place par des potiers venus de Chypre on même de Mycènes.

Les Musées de Damas, d'Alep et du Louvre se sont partagés le butin de nos fouilles qui s'accroît encore, car, après onze campagnes de fouilles avant la guerre exécutées au nom de l'Académie des Inscriptions et du Musée du Louvre, le Gouvernement de la République de Syrie et son Président actuel S. E. Monsieur Hachem Atassi, ont maintenant pris les fouilles de Ras Shamra sous leur patronage.

ons en personne, établirent leurs bases pour les opérations destinées à assurer le calme et la sécurité dans les pays en marge de leur frontière asiatique.

Dans les documeats du Nouvel Empire, Ugarit est appellé: « La forteresse du Pharaon ».

Enfin, les entreprenants navigateurs de l'Egée, venant de Crête, de Rhodes ou de Grèce, aprés avoir quitté les rives de Chypre, étaient guidés par la vue du Djebel Akra au sommet souvent enneigé visible depuis l'île, en ligne droite vers la baie de Minet-el-Beida, l'ancien port de Ras Shamra-Ugarit.

On ne sera donc pas surpris si je révèle que dans la bibliothèque du Grand Prêtre d'Ugarit, découverte parmi les ruines de sa résidence à Ras Shamra, comme dans les archives du palais des rois que nous sommes en train d'explorer, nous avons trouvé des documents en cunéïformes rédigés sur tablettes en terre cuite en quatre langues et autant de systèmes d'écritures différents.

Si nous ajoutons les documents en hiéroglyphes égyptiens et hittites et un syllabaire chypriote tiré du sol d'Ugarit, nous nous apercevons que dans cette ancienne échelle du commerce oriental, on ne parlait et écrivait pas moins de sept langues.

L'une d'elles, parlée par la majorité des Ugaritiens, la langue des Cananéens ou Protophéniciens, est écrite à l'aide de trente signes qui constituent le plus ancien alphabet actuellement connu, et qui fut probablement inventé à Ugarit. C'est à un génie syrien donc, du millieu environ du second millénaire, que nous devons l'invention la plus impor-

sième et du second millénaire, peuplée de Cananéens sémites ou Protophéniciens. La ville abritait en outre, d'importantes colonies de marchands égéens,plus tard, mycéniens, des quartiers entiers de forgerons et de fondeurs de bronze d'origine non sémite de la Syrie du Nord, des caravaniers venus de la vallée de l'Euphrate, et des Egyptiens,des Egyptiens surtout qui, à partir de 1950 avant notre ère, c'est à dire depuis les puissants pharaons du Moyen-Empire, avaient fait d'Ugarit, l'un de leur point d'appui politique, commercial et militaire dans la Syrie du Nord.

C'est sa situation géoraphique qui a fait la fortune d'Ugarit-Ras Shamra .

On a comparé en effet, le proche Orient à un croissant dont les deux extrémités seraient constituées par les vallées fertiles de l'Egypte au sud, de la Mésopotamie et de l'Euphrate à l'est. Le sommet du système, où les puissants empires des vallées devaient aller chercher les matières premières indispenasables à leur économie, le sommet du croissant fertile, était constitué par la Syrie, et dans ce sommet s'insérait comme une clef de voûte, la ville et le port de Ras Shamra, Jadis Ugarit.

Le négociant qui voulait se rendre d'Egypte vers Babylone ou inversement, voyant son chemin barré par les déserts de l'Arabie, devait traverser la Palestine ou longer la côte, pour aboutir fatalement à Ugarit. Pour le diplomate qui, au nom du Pharaon devait négocier avec les rois locaux les accords en vue des fournitures de bois, de résine, d'étoffes et de minerais. Ugarit constituait l'étape la plus importante du nord. Ici aussi, les généreux égyptiens ou les phara-

« Voulez-vous aller examiner l'endroit ? me demanda-t-il penché sur les débris étalés sur son bureau : il s'agit là des restes d'un caveau funéraire important, d'un type inconnu en Syrie et rappelant les trouvailles similaires de l'ile de Chypre»

Pourvu d'une mission de l'Académie des Inscriptions, je partis aussitôt, accompagné de mon vieil ami et collaborateur Georges Chenet. De Lattaquié, une petite caravane de chameaux transporta notre tente et des vivres jusque sur les dunes qui dominent la baie charmante de Minet-el-Beida, où nous nous installions dans un isolement total.

Quelques jours plus tard, nous avions détecté au voisinage du caveau trouvé accidentellement par le cultivateur, un quartier de ville qui avait la particularité de contenir dans le sous-sol des habitations, de grands tombeaux, construits avec soin en belles pierres de taille, et voûtés en encorbellement, comme les constructions mycéniennes. L'un d'eux nous livra un splendide ivoire sclulpté, figurant la déesse de la fécondité, entre deux bouquetins dréssés, et levant vers le ciel des épis symbolisant la fertilité qu'elle dispense à ses adorateurs.

Bientôt nous nous rendions compte que ce que nous étions en train de déblayer, ne constituait que le quartier du port, en arabe le *« mina »* d'une ville importante dont les ruines se cachaient dans une colline distante d'un kilomètre environ de la mer. Nous décidâmes de l'explorer aussitôt. C'est ainsi que fut touvé en 1929 Ras Shamra-Ugarit, un des sites les plus féconds et les plus célèbres de l'Orient Antique.

Grâce aux documents en cunéïformes découverts depuis, nous savons qu'Ugarit fut la capitale d'un royaume du troi-

LES FOUILLES

DE RAS-CHAMRA-UGARIT[1]

Par Mr. le Proffesseur CLAUDE SCHAEFFER

En 1928, un cultivateur de la Syrie du Nord, en labourant son champ au bord de la mer, accrocha avec sa charrue une dalle enfouie dans la terre. Il l'arrcha et, trouvant en dessous un creux, il vide hâtivement ce qu'il croyait être un trésor caché. Il ramassa en effet, quelques feuilles d'or plissées provenant d'un placage, et, il semble, une bague en argent .

A douze kilométres de là, dans les souks de la ville de Lattaquié, aujourd'hui le chef-lieu en plein développement du Mohafazat du même nom, le bruit courut aussitôt de la découverte d'un trésor fabuleux, trouvé près de la baie de Minet-el-Beida. Alerté par les rumeurs, le Servtce des Antiquités, dépécha sur les lieux un inspecteur qui recueillit les débris abandonnés par le cultivateur et leva le plan d'un caveau souterrain qui s'y trouvait Les documents et fragments céramiques furent soumis pour expertise à M. Cussaud, alors Conservateur en Chef des Artiquités Orientales du Musée du Louvre .

---

(1) Conférence donnée le 9-12-50 au grand amphithéâtre de l'Université Syrienne.

fiance du malade ou de la famille, et partager, dans la mesure où cela est utile au traitement, le secret de la maladie.

Il cst donc vain de raisonner dans l'abstrait sur l'évolution du secret. Ce n'est pas par une réforme des principes que l'on résoudra ces multiples problèmes qui se présentent différemment dans chaque cas. Il est vain également de vouloir les rapporter tous à une prétendue donnée commune qui serait un éternel, donc insoluble conflit entre l'individuel et le social (Mignon).

Il peut certes y avoir parfois opposition entre individu et société ; mais, dans ces cas exceptionnels, le médecin ne doit partager le secret que si la volonté du malade ne s'y oppose pas. Il ne s'agit point d'admettre que le malade peut autoriser le médecin à révéler, mais uniquement de reconnaître qu'il appartient au malade d'accepter ou de refuser l'aide que la société lui offre, et, avec cette aide, les servitudes qu'elle comporte.

Ces servitudes ne seront ressenties comme telles que si elles s'exercent sans contrainte. Elles doivent donc être inspirées et non imposées, dans un monde libre, libre pour le malade mis en confiance, libre pour le médecin guidé par sa conscience.

Et je ne saurais mieux conclure que par la formule proposée per le Professeur Portes :

« Tout acte médical normal n'est, ne peut être, ne doit être qu'uue confiance qui rejoint librement une conscience ».

*

* *

res de façon toute abstraite, comme si médecin et patient étaient seuls face à face sur une île déserte. En réalité, le malade a une famille, des parents, parfois un tuteur, un conjoint ou des enfants. Le médecin de son côté a des aides, des auxiliaires, mais aussi des confrères spécialistes ou consultants. Le plus souvent, le milieu du malade et l'équipe médicale concourent ensemble au traitement, à la guérison. Il est bien évident, et tous les juristes le reconnaissent, que la révélation de faits, même secrets de leur nature, peut être valablement faite aux proches du malade, aux équipiers du médecin traitant, dans la mesure où cette révélation permet à leur intervention de donner au malade des soins plus éclairés et d'améliorer son état. En sorte que la pratique applique depuis fort longtemps la théorie du secret partagé, un peu comme M. Jourdain faisait de la prose.

C'est ici qu'il convient d'introduire une remarque fondamentale sur le caractère social de la maladie. Ce fait a un double aspect : passif tout d'abord, la maladie pouvant avoir une origine sociale ; actif en second lieu, car la société estime qu'il est de son devoir et de son intérêt de lutter contre la maladie et d'aider les malades à bénéficier des méthodes diagnostiques et thérapeutiques modernes. Les institutions sociales n'interviennent donc plus seulement dans un but d'hygiène, pour aider les bien portants à se maintenir en état de belle santé, mais aussi pour aider le malade à guérir. En sorte que ce groupe social, volontaire ou imposé, vient aujourd'hui se joindre à la famille du patient, pour concourir avec elle au traitement, et que les médecins qni ont la confiance de ce groupe veulent se joindre à ceux qui ont la con-

soient pas toujours correctement interprétées.

De même qu'il faut savoir dorer la vérité aux malades, de même il s'agit de se faire comprendre des gouvernants.

Le médecin d'un grand roi l'avait averti des accidents dûs à la famine, qui se multipliaient dans ses Etats et avait montré au souverain un pain de paysan misérable, un pain fait avec de la fougère. Le roi fondit en larmes et dit : «Quand je pense qu'aucun de mes ministres des finances n'a songé à mettre un impôt sur la fougère...».

Mes chers bien portants provisoires,

Je viens de vous promener dans les sentiers de la vertu afin que, bien informés, vous puissiez en choisir d'autres. Je vous laisse libres, en effet, de préférer à tout prix l'individuel au social, ou l'inverse, et de subir les conséquences de votre choix.

Mais si vous acceptez de prendre comme guide cette seule directive : l'intérêt du malade, vous allez peut-être aboutir à une conclusion acceptable, à la manière de ces médecins philosophes qui, depuis dix ans en France, essaient de trouver à ces problèmes une solution humaine et générale.

Et c'est peut-être dans le droit à la vérité qu'on doit reconnaître au malade, chaque fois que la vérité ne peut pas nuire, que se trouve, sur le plan moral et philosophique, la clé du problème moderne du secret médical.

S'il est vrai que le malade a droit à une certaine partie de la vérité, on doit reconnaître qu'autour du malade et autour du médecin, bien d'autres personnes, elles aussi, ont droit de connaître en tout ou en partie les constatations du praticien. L'erreur en effet serait de raisonner en ces matiè-

la pendule et le royal patient fut si heureux de ne pas avoir d'accès à l'heure prédite qu'il se trouva guéri du coup.

Ce n'est pas toujours manquer de loyauté que de prescrire à ce genre de malade un remède anodin, de l'eau distillée ou des pilules de mie de pain, en les entourant de tout le cérémonial nécessaire pour frapper l'imagination.

Vous me direz que de telles prescriptions posent des cas de conscience aux pharmaciens : à quel prix doivent-ils délivrer de pareils remèdes? J'avoue ne pas posséder sur cette question de documents définitifs.

Loyal envers lui-même, prudemment véridique à l'égard du malade, le médecin doit enfin la vérité aux pouvoirs publics. Il la doit de plus en plus, si j'ose dire, d'abord parce que la Science médicale fait des progrès de géant et nous amène à répondre par un « oui » ou par un « non » à des questions que, jadis, nous aurions éludées par un modeste «peut-être». Et ensuite parce qu'aucun progrès de la médecine sociale n'est concevable sans une collaboration absolument sincère et loyale du corps médical, sous les réserves qu'impose, nous l'avons dit, le respect du secret professionnel.

Vous savez quel bon usage les pouvoirs publics savent faire des vérités que nous leur révélons : de distingués fonctionnaires les mettent en fiches, en statistiques, en complètent des rapports, s'en inspirent pour des réglements qui retombent en pluie bienfaisante sur la tête des bien portants, parfois des malades et éventuellement des médecins. C'est ce qu'on appelle la Santé publique.

Le corps médical est récompensé, dit-on, par l'estime des gouvernements, encore que les remarques qu'il peut faire ne

un pouvoir d'amplitude universelle. Nous disposons, comme aucun autre des armes que sont l'angoisse, la terreur, l'idée fixe, l'espérance, la joie du salut, et nous n'en disposons pas, comme d'autres, à une lointaine et douteuse échéance, non : dans le présent, dans l'avenir immédiat . . . . Iatocratie n'est pas un mot ou à peu prés : c'est une formule rigoureuse autant que démocratie ou aristocratie ou théocratie; c'est un programme : gouvernement par des médecins dans le cadre de la cité, de la nation et du monde. Mise réglementaire de toute l'humanité dans la position d'obédience médicale, si vous préférez : dans la position patiente. Législation universelle ramenée à un système d'ordonnances, au sens rigoureusement professionnel du mot ».

Voilà ce que Knock révélait ces jours derniers à son confident.

Soyez rassuré : Knock a le sens de l'humour et les médecins sont les premiers à rire de ses incartades.

Ainsi, véridique et prudent, loyal mais soucieux d'éviter les chose psychologiques nuisibles à son patient, le médecin avance à pas mésurés dans le chemin de la vérité, d'une vérité accessible au patient et acceptée par lui.

Il sait gagner doucement la confiance de son malade, surtout s'il est imaginaire. Il l'écoute sans laisser paraître le doute, il affecte de croire à son mal pour mieux ouvrir la porte de son cœur, puis ne laisse apparaître la certitude que le maladie est imaginaire que lorsque le malade est pour ainsi dire psychologiquement tout près à se rallier à cette idée. Vous savez l'histoire de ce prince de Weimar qui se croyait atteint d'une fièvre tierce revenant à heure fixe. Son médecin avança

Ainsi, la franchise envers soi-même, franchise lucide, modeste mais ferme, est-elle la première condition de la loyauté dans nos professions médicales.

En second lieu, le médecin doit être au ssrvice de la vérité dans l'exercice de son art. Pour des raisons de morale sociale, cette loyauté est d'autant plus impérative que sa responsabilité civile et légale se trouve toujours très difficile à démontrer. On se souivent du mot féroce de Nicoclès, repris par Montaigne, à l'adresse des médecins: « Ils ont cet heur que le soleil esclaire leur succès et la terre cache leur faulte » .

Le médecin, en effet, échappe à tout contrôle, ou à peu près. Le magistrat peut être tenté de commettre une injustice; mais il est surveillé par d'autres magistrats; l'homme politique a des adversaires qui l'épient; le fonctionnaire public devra tôt ou tard rendre ses comptes.

Mais le médecin sait bien qu'en mainte occasion ses décisions ne seront pas publiquement attaquées: la nature délicate des services qu'il rend, la confiance qu'on a en lui, font qu'on se livre aveuglément à lui dans des cas où, s'il n'était pas ce qu'il doit être, il pourrait faire un mal incalculable. En voulez-vous un aperçu?

Notre Collègue Jules Romains a eu récemment la bonne fortune de prendre une interview d'un certain Docteur Knock dont il avait déjà eu, il y a un quart de siècle, l'occasion d'apprécier la forte personnalité. Et Knock lui a livré des « fragments de sa doctrine secrète ».

— « Nous avons, nous autres médecins, lui dit Knock,

Rassurez-vous: un médecin digne de ce nom n'a rien à craindre d'être loyal et véridique. Il évite simplement de confondre la franchise avec cette intempérance de langage qui, à la fois indiscrétion et manque de tact, conduit à parler sans discernement et à énoncer des vérités dangereuses ou blessantes. Molière l'a dit avant nous:

> « Il est bien des endroits où la pleine franchise
> Deviendrait ridicule et serait peu permise».

Et Dieu sait si Molière savait dire leurs vérités aux médecins !

La vérité et la franchise, le médecin se les doit d'abord à lui-même.

Il doit se rendre compte de ce qu'il ne sait pas. Lorsque en présence d'une maladie qu'il rencontre pour la première fois, il ne trouve pas dans sa mémoire la totalité des renseignements dont il a besoin pour soigner son malade, il doit avoir pleine conscience de l'insuffisance de ses connaissances, s'astreindre à redevenir pour quelques heures un étudiant en reprenant ses livres et ses dossiers, et, au besoin, appeler un consultant plus éclairé que lui.

Pasteur était encore plus exigeant: « S'efforcer de se convaincre soi-même de la vérité qu'on a entrevue, a-t-il écrit, est le premier pas vers le progrès. Persuader les autres est le second. Il y en a une troisième, peut-être moins utile, mais fort enviable néanmoins, qui est de convaincre ses adversaires». Vous savez que ce troisième principe a conduit Pasteur à des joutes mémorables, quand il se battait au nom de la vérité scientifique.

Un jour, le Professeur Gosset opérait une malade devant moi, sous rachi-anesthésie. La malade avait donc sa pleine conscience et, bien qu'elle eût le ventre ouvert, elle continuait à tout entendre. De temps à autre, Gosset lui adressait un mot d'encouragement et la réponse de la patiente parvenait de dessous le champ opératoire.

— Messieurs, dit le Maître aux élèves qui assistaient à l'opération, je vais loyalement suivre les désirs de la malade. Je vais enlever l'ovaire droit car il présente de graves lésions, mais je laisse l'ovaire gauche, car cette femme m'a dit qe'elle voulait avoir des enfants.

— Ah! pas du tout, protesta l'opérée, je vous ai dit que mon mari tenait à ce que j'aie un enfant ; ne m'en laissez pas pour davantage.

En réalité, le consentement éclairé du malade à l'acte médical n'est qu'une notion mythique car, à aucun moment, le patient ne connait au sens exect du terme, la nature, l'étendue, les conséquences de sa maladie, et il ne peut vraiment consentir ni à ce qui lui est présenté comme la vérité sur son mal, ni à ce qui lui est opposé comme traitement, si du moins, nous donnons au mot de consentement sa signification habituelle d'acquiescement averti, raisonné. lucide et libre.

*
* *

Chers futurs malades.

Vous venez de voir le médecin aux prises avec le secret et le mesnonge, mais j'espère que vous attendez maintenant de moi la vérité ou du moins la franchise.

Le consentement du malade à l'acte médical,quelle exception! Certes, un blessé encore conscient accepte qu'on ampute sa jambe gangranée ou qu'on plonge le bistouri dans une collection purulente. Mais à quoi va consentir ce patient à qui vous ne pouvez pas dire toute la vérité? Prenons l'exemple du cancer au début. Vous proposez au malade de la faire opérer. Et quelle opération! Totalement disproportionnée: enlever tout un sein pour une petite glande indolore repérée en son épaisseur;faire sauter un œil pour une minuscule tache révélée seulement à l'ophtalmoscope. Et vous croyez que le malade a les mêmes éléments psychologiques que vous pour accepter de pareilles mutilations? Et vous pensez qu'il est de notre devoir de tout lui dire pour la lui imposer?

Situation dramatique parfois, et même situation absurde lorqu'il s'agit de faire une intervention sur les centres nerveux pour améliorer le psychisme d'un dément. Est-ce au fou que vous allez demander de consentir à une intervention qu'il est manifestement incapable de juger ou même de comprendre?

De toute évidence, le médecin et le maiade ne détiennent pas la même vérité et ne parlent pas le même langage. Le malade n'arrive pas à cette connaissance enchainée des faits que désirait Platon, et ce qu'il y a de terrifiant, c'est que, plus sa maladie est grave, plus elle diminue sa personnalité et moins il est capable d'accepter la vérité du diagnostic et d'en admettre les conséquences.

Sait-il même grand chose des couséquences de l'opéation?

catégories jadis si fréquentes. Combien plus nombreux sont ceux qui nous accablent de questions, multiplient les interrogations, insidieuses, sans compter ceux qui vivent avec un dictionnaire médical sur leur table de nuit et les anxieux qui courent de médecin en médecin, collectionnent les ordonnances, comparent les analyses, mettent en contradidtion les avis les plus autorisés.

Après tout, la vérité est-elle indispensable au malade?

Est-ce que les enfants demandent tant de détails sur leurs diagnostics et est-ce que nous ne les soignons pas avec autant de dévouement que les adultes qui sont si avides de connaître tous les détails de leurs maladies?

Et, ectte vérité, pourquoi la devrions-nous au malade? Apparemment, pour que, mieux instruit sur son cas, il consente ou geste thérapeutique nécessairs.

Nous voilà au cœur d'un des plus graves problèmes philosophiques qui se posent à notre époque. Toute une partie de la médecine sociale, dans de nombreux pays où fonctionne un système quelconque d'assurance contre la maladie, est basée sur le fait que le médecin propose une thérapeutique et que celle-ci est acceptée préalablement à son application, soit par le malade, soit par l'organisme collectif qui l'a pris en charge. Donc, le médecin ne doit point mentir : le diagnostic sciemment faux ou même déguisé appartient à la médecine du passé.

Hélas! Qelle vue simpliste de la question et combien Portes a-t-il eu raison de mettre le doigt sur cette plaie de la médecine sociale.

un sourcillement, un léger tremblement des lèvres ou de la main qui remet les vêtements révèle l'inquiétude.

Il y a encore les stoïques, prêts à accepter le verdict, parce qu'ils ont une vue claire et froide des nécessité sociales, familiales, professionnelles au millieu desquelles ils évoluent: mais derrière cette façade dictée par l'ambiance, que ressentent-ils au fond d'eux-mêmes?

Et puis, il y a les instinctifs, les nerveux et surtout les inquiets qui veulent tout de suite connaitre, précisément,pour calmer leur peur.

N'est-ce pas à ceux-là que le médecin doit savoir ne point présenter la vérité toute nue, mais combien pudiquement voilée.

Dans ce drame psychologique qui se joue alors, il y a des degrés infinis dans les vérités dont les malades se contentent d'après leur niveau intellectuel et même social. Il y a d'abord l'homme simple et confiant qui prend au sens littéral le mot en quelque sorte professionnel que nous laissons tomber par habitude autant que par devoir : " Ce n'est pas grave". — "Vous ne m'inquiétez pas". — "Soyez rassuré".

Heureux ces sages qui s'aident eux-mêmes ainsi à guérir!

Il y a ceux qui, tout en étant confiants, veulent savoir davantage et questionnent: "Mais encore"?. — "Vous me dites, Docteur, que ce n'est pas grave; mais est-ce sérieux?". Ce sont les faciles, ceux pour lesquels il nous suffit de rester dans le domaine qui est le nôtre, lorsque nous expliquons, à notre façon, la maladie et son évolution.

Mais combien rares maitenant se font ces deux premières

la maladie.

Pour le médecin qui juge dans toute la lucidité et tout l'éveil de son savoir, le diagnostic résulte d'une opération purement intellectuelle. Parfois même, la vérité s'impose à lui en une seconde, à la lecture d'un examen de laboratoire.

Le patient, au contraire, obnubilé par des symptômes frappants: un vomissement de sang, un point de côté atroce, n'a de la vérite qu'une soif affective. Il réclame d'être soulagé, peu lui importe comment. C'est lorsqu'il va mieux qu'il cherche à avoir quelques connaissances sur son cas, et c'est parfois quand il est guéri qu'il arrive à une compréhension complète de ce qui lui est arrivé : faut-il avouer que c'est ici le moment où il porte les jugements les moins charitables et parfois les plus inexacts sur l'activité de son médecin?

Voulez-vous que nous fixions cet instant où le malade sent que le médecin approche du diagnostic. Au fur et à mesure que l'examen s'est prolongé, le patient a pris du médecin un contact plus humain et il sent s'établir en lui une confiance grandissante. Or, plus il est confiant dans ce médecin, plus est sincère l'angoisse qu'il éprouve à l'égard de la vérité que cet homme va lui révéler, puisque, par avance, il se sent plus de confiance dans la véracité du diagnostic.

Ah! qu'il est délicat, à ce moment, pour le clinicien, de savoir peser la personnalité du patient!

Il y a les forts, ceux qui, en tout cas, gardent leur sang-froid à l'approche de la révélation.

Et puis, il y a ceux qui paraissent courageux, mais dont

ve et estime suffisantes les chances de succès, il ne peut l'entreprendre sans le consentement explicite et implicite du malade ou de ceux qui ont sur lui autorité. Le rôle du chirurgien consiste donc à conseiller, à encourager et à représenter avec la plus entière franchise, mais sans exagération, les conséquences d'un refus. Il n'y a pas de problème, croyez-vous?.

Doit-on dire la vérité au malade? — Est-il nécessaire de la lui dire pour qu'il consente à l'opération? — Ou bien doit-on, par un habile mensonge, le faire consentir sans susciter ses appréhensions?

Poser ainsi la question, c'est mal la poser, car c'est admettre que le patient dispose de toutes ses ressources intellectuelles alors qu'il est saisi et secoué par cette irruption de la maladie, qu'il est comme roulé par un vent qui vient il ne sait d'où, et cela quelle que soit sa science des problèmes médicaux, comme le prouve le cas, hélas! si significatif des médecins lorsqu'ils sont malades eux-mêmes.

La maladie se glisse comme un écran entre le patient et son propre mal et l'empêche de voir clair en lui-même.

Ce qu'il ressent le trompe. Tantôt l'affection la plus grave ne se révèle par aucune douleur. Tantôt au contraire, des tourments aigus sont le fait de lésions bénignes et passagères. Le patient se plaint de l'épaule alors qu'il a une maladie de foie. Comment saurait-il que ses reins sont malades quand ce sont ses jambes qui enflent?

Et même si le patient sait bien analyser ce qu'il ressent, ce n'est pas dans la même ambiance psychologique que le médecin et lui cheminent l'un et l'autre vers l'analyse de

dénonciateurs. C'est d'abord en matière d'avortement que la loi autorise, mais sans l'obliger, la violation du secret. Puis, en 1892, elle oblige le médecin à la déclaration sur les maladies épidémiques, en 1898, sur les accidents du travil, en1919 sur les maladies professionnelles. Et enfin, dans ces récentes années, une législation sociale de plus en plus généreuse vient, dans toutes les nations, donner au malade des assurances contre la maladie. Dès lors, il appartient au médecin d'avertir l'Administration. Que devient le secret?

Tous les pays du monde s'orientent vers une solution nouvelle, celle du secret partagé, c'est-à- dire partagé entre médecins, entre le médecin particulier du malade et le médecin responsable d'une collectivité sociale. Que de prudence et de délicatesse il faut apporter à ce partage, avec un autre médecin habilté à en connaitre!, et sous la condition formelle que ce dernier soit rigoureusement tenu au secret vis à vis de tous et sur tout ce qu'il a appris du fait du partage de ce secret.

II. — *LE MALADE ET LE MENSONGE.*

Du secret à la dissimulation, a-t-on dit, il n'y a qu'un pas. Du secret envers les tiers à la dissimulation envers le patient, par contre, le fossé est profond, Et, puisque nous sommes dans la domaine de la philosophie médicale, nous sommes aussi amenés à étudier ce mensonge, car de lui dépend le consentement éclairé ou aveugle du malade à tout acte médical.

Je m'explique:

Lorsqu'un chirurgien juge nécessaire une opération gra-

connaître son diagnostic. Si ce certificat n'est remis qu'au médecin de l'Administration, celle-ci refusera sa titularisation et le malade saura également son diagnostic par élimination. Doit-on alors garder le secret et ne pas répondre, ce qui risque d'éclairer le malade sur son ètat réel. Doit-on faire un certificat faux, avec toutes les conséquences morales et pénales que cela comporte?".

Telle est, je vous le répète, la question que le Syndicat des Chirurgiens des Hôpiteux de Paris posait il y a à peine quelques semaines.

Bien entendu, Messieurs, je me place ici sur le plan de l'éthique internationale. Je ne vous cacherai pas que le législateur français, celui du Code pénal, comme celui des lois médico-sociales les plus récentes, a été singulièrement embarrassé par cette évolution de la médecine. Il y a plus d'un siècle, le médecin était tenu au secret envers tous, même envers la justice de son pays et même dans le cas où sa propre justification était en cause.

L'obligation du secret était d'ordre public, absolu, et s'exprimait avec force dans la formule classique: "Silence quand même et toujours". Silence même quand le malade est un criminel. Silence même quand l'intérêt immédiat du patient est en jeu.

Cette obligation absolue avait bien des avantages. La confiance du malade pouvait être totale. L'attitude du médecin était simple, constante, impeccable. Mais voici que peu à peu les textes législatifs s'enrichissent de phrases lourdes de sens: on y lit que les médecins doivent garder le secret, hormi le cas où la loi les oblige ou les autorise à se porter

danger et, à la limite, munir le malade d'une sonnette ou d'une claquette, comme le lépreux du Moyen Age. Pourquoi le médecin serait-il gêné par la déclaration des maladies vénériennes? Pourquoi serait-il embarrassé par la rédaction d'un certificat prénuptial qui risque d'étaler les tares d'une famille ou celle d'une jeunesse imprudente ?

En vérité, si je m'adressais à vous pour vous demander auquel de ces deux médecins vous aimerisz voir confier votre santé, je sais bian quelles seraient vos réactions. Aujourd'hui, tous réunis dans cette salle, vous bénissez les réglements publics de déclaration obligatoire qui vous mettent à l'abri d'une propagation massive de la variole ou de la peste à l'occasion d'un rassemblment tel que celui-ci. Mais si, demain, telle maladie intime tenaillait votre corps et inquiétait votre esprit, vons aimeriez sans doute ne vous confier qu'à un dépositaire éprouvé du secret le plus absolu.

La médecine moderne est littéralement déchirée par ces deux tendances.

Voici la lettre que le Syndicat des Chirurgiens des Hôpiteux de Paris adressait cette année même au conseil de l'Ordre des Médecins de France :

"Un malade est opéré en un temps d'un cancer du gros intestin et l'intervention ne laisse aucune trace susceptible d'établier un diagnostic rétrospectif. Ce malade est fonctionnaire. Pour être titularisé dans son emploi, il a besoin d'un certificat précisant qu'il n'est atteint ni de cancer,ni de tuberculose et que son état mental est normal. Or,le malade ignore le diagnostic opératoire et son psychisme ne permet pas de lui révéler. Si le certificat lui est remis en mains propres, il

la médecine moderne : les médecins devant le secret médical sont sollicités par deux tendances intérieures, en partie justifiées mais rigoureusement contradictoires.

Louis Portes a très finement analysé ce terrible dilemne.

Pour les uns, le secret médical implique le silence absolu sur tout ce qu'il leur a été donné d'apprendre dans l'exercice de leur art et cela, à l'égard de tous. En aucun cas, ils ne supportent de le trahir, car le secret est la justification essentielle de la confiance inconditionnelle du malade.

Pour les autres, le secret professionnel n'est plus qu'une convention désuète que la vie actuelle fait exploser chaque jour : une hypocrisie, une survivance d'un âge révolu que les exigences de l'hygiène publique, de la médecine collective, administrative ou judiciaire n'autorisent plus et qui, d'ailleurs n'est pas, semble-t-il, essentiel à l'art de guérir.

Combien j'aime, Messieurs, la première attitude, celle du médecin de famille, qui surveille ses paroles, écrit lui-même son propre courrier, cache ses documents de laboratoire, impose à son entourage et à ses familiers la plus scrupuleuse des discrétions. Dans ses rapports avec l'Etat, il obéit aux lois, déclare certes les maladies contagieuses ou la naissance d'un enfant, mais s'entoure de mystère dès qu'une Administration indiscrète ou non mandatée s'efforce d'en connaître plus que sa conscience ne lui commande de divulguer.

Et pourtant, comment ne pas s'incliner devant les nécessités de la médecine collective ? Si la maladie est dangereuse, si elle est contagieuse, pourquoi l'entourer de mystère ? Si la tuberculose s'introduit dans une famille par le truchement d'un parent porteur de bacilles, pourquoi ne pas crier le

ne pas parler, mais d'oublier en quelque sorte tous ce qu'il savait, comme si la vérité qu'il détenait dans sa main s'était évaporée au laindemain du jour où celle-ci ne pouvait plus signer les actes officiels.

Il n'en est pas de même du médecin. Nous devons nous souvenir de ce que le malade nous a appris car, des années plus tard, ce souvenir peut être précieux au malade qui peut avoir oublié le secret qu'il nous a confié. C'est à nous, médecins, de le retenir, dans son propre intérêt.

« Le secret de notre patient est tellement nôtre, disait Brouardel, que lui, client, ignore souvent son étendue et il ne peut nous en libérer parce que lui-même ignore ce dont il nous délie. Si le médecin est ainsi tenu au secret vis à vis du malade lui-même, c'est parce que, dans le colloque qui l'unit au patient, il est seul à porter la totalité de la connaissance » .

Ainsi, le secret médical est d'une originalité irréductible. Imposé par la maladie ou l'accident, il se distingue de la confidence amicale par son caractère de nécessité. La véracité absolue et l'absence totale de ruse dans les propos échangés l'éloignent du colloque de l'avocat et du prévenu.

La personnalité des interlocuteurs et la permanence de la mission éloignent le secret médical du secret d'Etat.

Ainsi, défenseur d'un trésor à nul autre pareil, de ce secret dont une partie vient de notre science et l'autre de l'aveu des malades, dont un fragment sort de nos connaissances et l'autre de l'examen aquel le malade s'est prêté, qu'avons-nous le droit d'en faire ?

C'est ici que se pose le problème le plus dramatique de

comme l'a fait Portes, si ce même mot couvre des concepts semblables, lorsque nous parlons du secret d'Etat que garde un Ministre ou un diplomate ?

Le secret amical se confie dans une simple détente réciproque qui n'a ni nécessité ni entrave. C'est une confidence délibérée ; — tandis que le malade, saisi contre sa volonté par la maladie, est contraint à venir tout raconter au médecin et il n'est pas libre de sa confidence.

Le Secret de l'avocat ? Autre chose encore ; il garde pour lui tout ce que le prévenu lui raconte ; mais l'avocat n'est pas un juge d'instruction. Il n'a pas le devoir d'exiger la vérité : l'aspect de la vérité lui suffit, si elle l'aide à protéger de la condamnation le présumé innocent. Le client de l'avocat est libre de toutes les ruses à l'égard de son défenseur et celui-ci n'a nul besoin de démêler les fils dans lesquls l'enferme son client : l'avocat ne détient que la vérité qu'on a bien voulu lui confier. Si, brusquement, le prévenu avoue en plein tribunal beaucoup plus qu'il n'en avait confié à son défenseur, celui-ci en est quitte pour plaider coupable et n'a même pas à s'excuser auprès du tribunal de n'en avoir pas dit davantage. Tout au contraire, le médecin cherche la vérité à tout prix, avec la collaboration d'un malade qui ne ruse point et, s'il se met à ruser, le médecin s'éloigne de la position de l'avocat pour se rapprocher de celle du juge d'instruction.

Le secret d'Etat, que détiennent un diplomate ou un ministre, comporte des devoirs d'une nature très élevée. Ce n'est pas en tant qu'homme qu'il en est le dépositaire, mais du fait de ses pouvoirs et ceux-ci, du jour au lendemain, peuvent lui être retirés. A ce moment, il a le devoir, non seulement de

mué d'une façon intéressante les notions de secret, de mensonge et de vérité, en s'inclinant sous un impératif unique et susceptible d'être reconnu tel par tous les hommes, à savoir : l'intérêt du malade.

I – *LE MALADE ET LE SECRET*

Voulez-vous que, sous cet aspect particulier, je vous expose comment nous nous représentons d'abord le Secret médical ?

Vous savez qu'à la fin de ses études, quand le jeune médecin de France arrive au jour de sa thèse, l'huissier de la Faculté amène devant les Professeurs le candidat, après lui avoir fait revêtir la robe universitaire. C'est le moment solennel où le jeune Docteur va prononcer devant ses Maîtres la formule du « Serment d'Hippocrate ». En voici le début :

« En présence des Maîtres de cette Ecole, de mes chers condisciples et devant l'effigie d'Hippocrate, je promets et je jure d'être fidèle aux lois de lhonneur et de la probité dans l'exercice de la Médecine. Admis dans l'intérieur des maisons, mes yeux ne verront pas ce qui s'y passe ; ma langue taira les secrets qui me seront confiés... »

Le Secret professionnel reste donc, en France, la pierre angulaire de l'édifice médical.

Il ne peut pas, en effet, y avoir de confiance du malade sans respect du secret. Mais ce secret professionnel du médecin, avez-vous songé à l'analyser ? Vous êtes-vous demandé,

Mais aviez-vous songé que vos ancêtres ne connaissaient qu'un seul de ces aspects de l'art médical ?

Au temps d'Hippocrate ou à l'époque d'Avicenne, il n'y avait pas de problèmes de médecine sociale ou d'hygiène publique. Le médecin n'avait de devoir qu'envers *son* malade : on n'imaginait pas qu'il pût en avoir à l'égard de l'entourage de celui-ci ou du corps médical tout entier.

Aujourd'hui, il en est tout autrement et l'on tient le médecin pour responsable de la prévention qui suppose l'abandon du secret professionnel tout autant que du traitement individuel, qui comporte le respect du secret.

Dans le monde entier le broblème est posé et se trouve résolu tant bien que mal par les lois ou les jurisprudences, selon les tendances des mœurs et des politiques. Chez tel peuple, le social l'emporte sur l'individuel, chez tel autre l'inverse s'observe. Je pourrais facilement vous situer la position actuelle de mon propre pays dans cette évolution législative ou judiciaire.

Mais tel n'est pas mon propos. Je viens aujourd'hui signaler à votre attention qu'en France, dans ces dix dernières années, s'est développé un bien intéressant mouvement de philosophie médicale, contemporain de l'installation d'un Conseil National de l'Ordre des Médecins. On y a repris tous ces problèmes à la base, sous l'angle d'une morale qui se veut libre de tout préjugé, et qui cherche ses principes dans les relations naturelles du malade et du médecin. Ce mouvement d'idées auquel s'attachent les noms du regretté Professeur Portes, de Serge Oberlin, de Piédelièvre, de Vidal, de Jean-Robert Debray, de Péquignot, de Villey et tant d'autres, a re-

PROBLEMES ACTUELS POUR LA CONSCIENCE DES MEDECINS[1]

Par Mr. Le Professeur JUSTIN BESANÇON

Messieurs,

Rien n'est plus agréable pour un médecin que de s'adresser à un auditoire de bien-portants.

Ne protestez point que votre santé est « un état précaire et qui ne présage rien de bon ». Mon propos est précisément de vous rappeler que l'ensemble du corps médical ne songe qu'à vous maintenir tous en parfaite santé et que, si vous vous trouvez malade, votre médecin particulier vous aidera à guérir.

Vous maintenir tous en bonne santé : problème collectif, auquel s'attachent vos lois sanitaires ; — problème public et social.

Vous soigner individuellement, vous Monsieur, ou vous, Madame : problème singulier qui ne regarde que vous et le médecin à qui vous vous confiez ; avec vos misères cachées, vos secrets — avec vos angoisses devant la vérité qu'il vous découvre, — vos apaisements ou vos incertitudes devant celles qu'il va vous taire.

Deux aspects de la médecine, deux séries de devoirs pour le médecin.

---

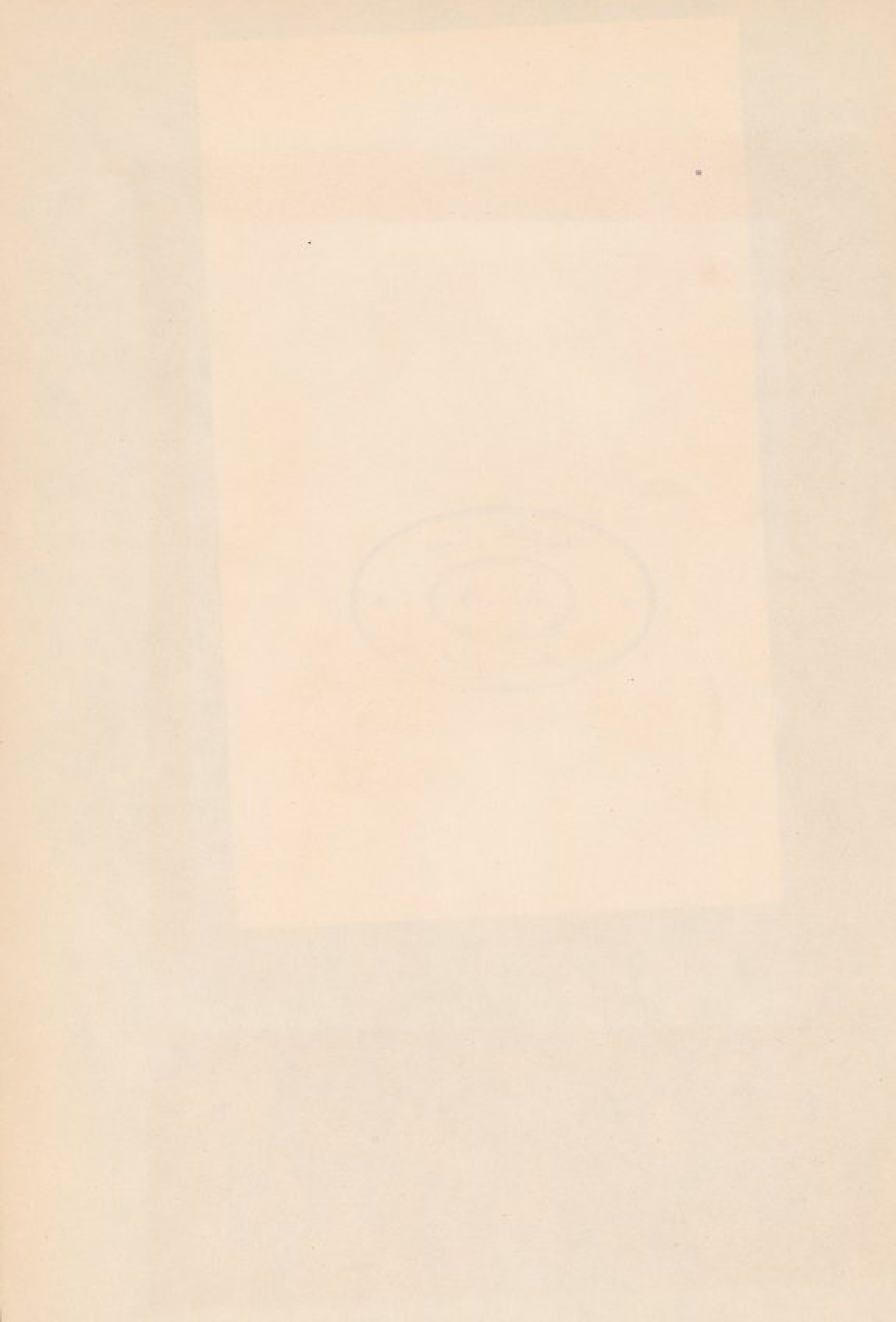
(1) Conférence donnée le 22-11-50 au grand amphithéâtre de l'Université Syrienne.

UNIVERSITE SYRIENNE

CONFÉRENCES PUBLIQUES

ANNÉE 1950 - 1951

Imp. de l'Université Syrienne — Damas 1951



DATE DUE


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الأميركية في بيروت

